موقف الله من أمور عسرة الفهم

د.جيمس دوبسون

اهداءات ٢٠٠٢

كنيسة الانجيلية بالعطارين

الاسكندرية

د. جيمس دوبسون

موقف الله

من أمور عسرة الفهم

ترجمة: د. إيفا وهيب

لوجوس

الكـــتاب : **موقف الله من أمور عسرة الفهم**
الكـــاتب : **د. جيمس دبسون**
المترجم : د. **إيفا وهيب**

الجمع والاخراج الفني والطباعة

لوجوس سنتر
تليفون / فاكس ٢٩٠٦١٦١
ص . ب . ٢٤٥٥ الحرية
هليوبوليس - القاهرة
Email : Logoscenter@ yahoo.com

رقم الإيداع : ٩٥١٤٥٦٢

الترقيم الدولى : 1 - 05 - 5607 - 977

ا صعب سؤال فى الاختبار البشرى :

لماذا سمح الله بأن يحدث هذا ؟

أ صعب شعور عندما نشعر بخيبة أمل كبيرة من نحو الله

ونسأل أين الله ؟

هل تخلى عنا ؟

أن أخطر سلاح يستخدمه إبليس ضدنا

عندما يشعر كل واحد منا بأن الله العطوف

قد تخلى عنه . وإنه ا صبح متروك

هذا الكتاب رسالة حب إلى المجروحين والمكتئبين

وكل من وقع فى الحيرة والارتباك

كذلك لابعاد الحيرة عن الذين لم يقعوا بعد فى براثن اليأس.

مجدى منير

ص.ب. ٢٤٥٥ الحرية

هليوبوليس – القاهرة

الفهرس

الفصل الأول

عندما يكون الله غير مفهوم

كان «تشاك فراى» وهو فى السابعة عشرة من عمره، شاباً متقد الذكاء وموهوباً فى دراسته وله العديد من الطموحات. فبعد أن تخرج من مدرسته الثانوية بأعلى التقديرات التحق بالكلية حيث استمر فى تفوقه الدراسى. وبمجرد حصوله على درجة البكالوريوس فى العلوم، قدم طلباً للالتحاق بإحدى كليات الطب. وقد كانت، ولا زالت، المنافسة شديدة للقبول فى هذه الكليات. وفى ذلك الوقت، كنت أعمل بالتدريس فى كلية الطب بجامعة جنوب كاليفورنيا، حيث كان يلتحق سنوياً ١٠٦ طالب فقط من بين ٦٠٠٠ متقدم. كان هذا هو الأسلوب المتبع للقبول فى كليات الطب وقتئذ. ورغم كل هذه التعقيدات فلقد نجح «تشاك» فى الالتحاق بكلية الطب جامعة أريزونا وبدأ أولى دوراته التدريبية فى شهر سبتمبر.

وأثناء هذه الدورة، كان «تشاك» يفكر فى دعوة الله فى حياته. وبدأ يشعر أنه يجب أن يتخلى عن التخصص فى أحد مجالات الطب المربحة، لصالح العمل المرسلى فى بلد أجنبى. وقد أصبح من الواضح أن هذا هو التخطيط الفعلى لمستقبله. ولكن قبل نهاية هذه السنة التدريبية الأولى، بدأ «تشاك» يشعر بأنه ليس على مايرام. فلقد بدأ يعانى من تعب غريب ومستمر. فحدد ميعاداً للفحص فى شهر مايو، وسرعان ما تم تشخيصه بأنه مصاب باللوكيميا الحادة. ومع حلول شهر نوفمبر كان «تشاك فراى» قد مات.

فكيف يمكن لوالدى «تشاك» عندئذ، وكيف يمكننا نحن الآن، أن نفهم ما الذى يقصده الله من هذا الحدث؟ لقد كان هذا الشاب يحب الرب يسوع المسيح من كل قلبه، وكانت كل رغبته هى أن يعمل مشيئته، فلماذا يموت فى ريعان شبابه على الرغم من كل الصلوات المستميتة التى رفعت من أجل شفائه من جانب أسرته التقية وأصدقائه المخلصين؟ لقد قال الرب بكل وضوح لهم جميعاً «لا»، ولكن لماذا؟

إن آلاف الأطباء الشباب يكملون تعليمهم كل سنة ويبدأون فى ممارسة مهنة الطب، وبعضهم لأهداف غير شريفة بالمرة. وأقلية قليلة جداً يختارون أن يقضوا حياتهم المهنية مع الفقراء والمعوزين فى هذا العالم. لقد كان «تشاك» من بين هذه الأقلية النادرة. فلو كان قد أتيح له أن يعيش، لكان من الممكن أن يعالج الآلاف من الناس المحتاجين الذين يتألمون ويموتون فى بؤس شديد. ولم يكن فقط مزمعاً أن يخدم احتياجاتهم المادية فحسب، بل أقصى شهوته كانت أن يقدم الإنجيل للذين لم يسمعوا أبداً عن أعظم قصة فى الوجود. لذلك، فإن موته لم يكن له معنى بالمرة. فإذا تأملنا معاً الحالات العديدة التى كان من الممكن أن يتلامس معها «تشاك» طوال حياته، بعضهم يعانى من السرطان، والبعض الآخر ينهشه السل، البعض أمراضه مولود بها، والبعض الآخر أصغر من أن يفهم آلامه. لماذا تحرم العناية الإلهية كل هؤلاء من خدمة هذا الشخص المكرس؟

ويوجد جانب آخر فى قصة «تشاك» يساعد على إكمال الصورة. فإن «تشاك» كان قد خطب فى شهر مارس من هذه السنة فتاة تدعى «كارين إرنست»، وهى أيضاً فتاة مؤمنة قد كرست حياتها ليسوع المسيح. وقد علمت بمرض «تشاك» بعد

خطبتهما بستة أسابيع، ولكنها اختارت أن يمضيا معاً فى التخطيط للزواج. وقد تزوجا فى شهر يوليو، قبل موته الأليم بأربعة شهور فقط. ثم التحقت «كارين» بكلية الطب جامعة أريزونا، وبعد تخرجها أصبحت طبيبة مرسلة فى سوازيلاند فى جنوب أفريقيا، وخدمت هناك حتى سنة ١٩٩٢ فى مستشفى تمولها الإرسالية. ولا بد أنها كانت تتساءل وسط كل هذه المعاناة: لماذا لم يسمح لزوجها الشاب أن يكمل خدمته معها فى نفس المجال؟ وأنا أيضاً أتساءل نفس السؤال.

إن أعظم اللاهوتيين فى عالمنا يمكنهم أن يتأملوا لمدة ٥٠ سنة فى اللغز المختص بموت «تشاك فراى»، ولكن على الأرجح أنهم لن يتوصلوا إلى تفسير مقنع. فإن غرض الله من وفاة هذا الشاب سر، وسيظل هكذا. لماذا بعد صلوات عديدة، تمكن «تشاك» من الالتحاق بكلية الطب إذا كان لن يعيش ليكمل دراسته؟ من أين جاءت الدعوة الإرسالية التى استجاب لها؟ لماذا توضع العديد من المواهب فى هذا الشاب إذا كان لن يستخدمها؟ ولماذا تقصر حياة هذا الطالب الناضج الأمين، بينما يعيش العديد من الأشرار والسكيرين والمدمنين أعماراً مديدة وهم عالة على المجتمع؟ إن هذه الأسئلة المزعجة من السهل طرحها ولكن من الصعب إجابتها، وتوجد غيرها أسئلة كثيرة.

وأيضاً لم يعلن الرب بعد الأسباب التى من أجلها سمح بحادث الطائرة الذى راح ضحيته أربعة من أعز أصدقائى فى سنة ١٩٨٧. لقد كانوا من أفضل المؤمنين الذين عرفتهم على الإطلاق. كان «هوجو شولكوبف» مقاولا وكان من أنجح الأشخاص فى مجلس إدارة Focus on the Family.

وكان «جورج كلادرك» مدير بنك ورجلا عظيماً بمعنى الكلمة. وكان «د. تريفور مابراى» جراحاً موهوباً، ونصف عملياته الجراحية كان يقوم بها مجاناً لمرضاه. نعم كان بمثابة لمسة حانية لكل شخص عنده احتياج مادي. أما «كريث دافيس» فقد كان واعظاً وكاتباً محبوباً من الآلاف. لقد كانوا أصدقاء مقربين يلتقون بانتظام لدراسة الكتاب المقدس ويشعرون معاً بالمسئولية تجاه ما يقرأون. كنت أحب هؤلاء الرجال الأربعة، وقد كنت معهم فى الليلة السابقة لهذه الرحلة الأخيرة، التى فيها سقطت طائرتهم ذات المحركين فى سلسلة جبال أبساروكا فى وايومنج، ولم ينج أحد. والآن فإن زوجاتهم وأولادهم الأعزاء قد أصبحوا متروكين للصراع والوحدة. لماذا؟ ما هو الهدف الذى يمكن أن يتحقق من موتهم المأسوى؟ لماذا يحرم ابنا «هوجو» وهما الأصغر من بين الأربعة أسر، من عطف وحكمة أبيهم أثناء سنوات النمو؟ لست أدرى، على الرغم من أن الرب قد أعطى زوجته «جايل» القوة والحكمة اللازمة لحمل العبء بمفردها.

وأمام كلمة «لماذا؟» أتذكر أيضاً أصدقائى الأعزاء «جيرى هوايت» وزوجته «ميرى». و «د. هوايت» هو رئيس هيئة الملاحين (النافيجيتور)، وهى هيئة مكرسة لمعرفة المسيح ولتعريف الآخرين به. و «د. هوايت» مع جميع أفراد أسرته هم من الأشخاص الممتازين الذين يحبون الرب ويسلكون بموجب تعاليمه. ولكنهم أيضاً قد نالوا نصيبهم من الألم. كان ابنهم «ستيف» يقود سيارة تاكسى لعدة شهور أثناء بحثه عن وظيفة فى الإذاعة. ولكنه لم يحقق حلمه أبداً. لقد قتله شخص مخبول فى ساعة متأخرة من إحدى الليالى فى مدينة كولورادو سبرنجز التى تشتهر بالهدوء. كان القاتل

مجرماً معروفاً ومدمناً للمخدرات، وله تاريخ طويل فى عالم الجريمة. وعند القبض عليه، علم البوليس أنه قد نادى على التاكسى بهدف تنفيذ جريمته فى الشخص الذى يقف له. كان من الممكن أن يستجيب أى سائق تاكسى آخر، ولكن «ستيف هوايت» هو الذى توقف له. كانت مجرد حادثة عنف عشوائية بدون أى معنى أو منطق. وقد حدثت مع عائلة تكرم الرب وتخدمه خدمة كاملة لسنوات عديدة.

وتأتى إلى ذهنى أيضاً حادثة الكنيسة التى فى دالاس، تكساس، والتى حطمها الإعصار منذ بضعة سنوات. فلقد هبط الإعصار فجأة من السماء واختار هذا المبنى فقط ليحطمه تماماً، ثم ارتفع كما جاء، ولم يتلف أى جزء من المبانى المحيطة. فلو كنت عضواً فى هذه الكنيسة، كيف يمكنك تفسير هذه الحادثة؟ ربما كان الرب غير راض على شيء ما فى هذه الكنيسة، ولكننى أشك فى أن هذه هى الطريقة التى بها يعبر الله عن عدم رضاه. لأنه لو كان الله يتعامل بهذا الأسلوب مع العصيان، فلابد أنه عاجلا أم آجلا ستتحول جميع الكنائس إلى أنقاض. إذاً كيف يمكننا أن نفسر سبب هذا الاختيار من جانب الإعصار؟ لن أحاول أن أجد تفسيراً. فإن كل ما أستطيع أن أقوله هو أنه فى بعض الأوقات تسير الأمور بطريقة معكوسة لأسباب لا يمكننا أبداً أن نفهمها!

وتوجد آلاف من القصص الأخرى عن الأحزان والآلام التى لا يمكن تفسيرها، فإنها تقدر أن تملأ أرفف أكبر مكتبة فى العالم، ويمكن لكل شخص على وجه الأرض أن يضيف المزيد من الأمثلة الخاصة به. فالحروب، والمجاعات، والأمراض، والكوارث الطبيعية، والموت قبل الأوان، هذه كلها أمور لا يمكن فهمها بالمنطق. ولكن المآسى الطبيعية الواسعة

النطاق تكون أحياناً أقل إزعاجاً للفرد من الظروف التى تواجه كل واحد منا شخصياً. فالسرطان، والفشل الكلوى، وأمراض القلب، والوفاة المفاجئة فى الأطفال، والشلل الدماغى، ومرض داون، وحالات الطلاق، والاغتصاب، والعقم، والترمل، وألم الوحدة، والرفض، والفشل! هذه وملايين غيرها من الأمور التى تسبب المعاناة للإنسان وتثير تساؤلات حتمية مزعجة للنفس. «لماذا سمح الله بأن يحدث لى هذا؟» هذا السؤال اجتهد مؤمنون كثيرون، وخطاة أيضاً، أن يجيبوا عليه؟ ولكن على عكس ما يعلم به المسيحيون فى بعض الدوائر، فإنه ليس من عادة الله أن يسرع بتفسير الأمور التى يفعلها.

وإذا كنت تعتقد أن الله ملزم بأن يفسر أفعاله لنا، فمن الأفضل أن تتأمل الأجزاء الكتابية التالية. كتب سليمان فى سفر الأمثال قائلا: «مجد الله إخفاء الأمر» (أم ٢٥:٢). ويقول إشعياء فى نبوته: «حقاً أنت إله محتجب» (إش ٤٥:١٥). ونقرأ فى سفر التثنية: «السرائر للرب إلهنا» (تث ٢٩:٢٩). ويعلن سفر الجامعة: «كما أنك لست تعلم ما هى طريق الريح ولا كيف العظام فى بطن الحبلى، كذلك لا تعلم أعمال الله الذى يصنع الجميع» (جا ١١:٥). ويعلمنا الرب فى سفر إشعياء قائلا: «لأن أفكارى ليست أفكاركم، ولا طرقكم طرقى، يقول الرب، لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم» (إش ٥٥:٨-٩).

من الواضح أن الكتاب المقدس يخبرنا بأننا لا نمتلك القدرة على استيعاب أفكار الله غير المحدودة ولا الطرق التى بها يتدخل فى حياتنا. وإنها لكبرياء إذا ظننا عكس ذلك!

فإن محاولتنا لتحليل قدرة الله الفائقة أشبه بمحاولة الأميبا لفهم تصرفات الإنسان. ورسالة رومية تشير إلى أن أحكام الله بعيدة عن الفحص، وطرقه غير قابلة للاستقصاء (رو ١١:٣٣). ونفس اللهجة نجدها فى رسالة كورنثوس: «لأنه من عرف فكر الرب فيعلمه» (١كو ٢:١٦). فمن الواضح أنه إذا لم يختر الله أن يوضح نفسه لنا، وهو الشيء الذى لا يفعله دائماً، فإن مقاصده وأغراضه تظل بعيدة عن متناول الإنسان المائت. ومن الناحية العملية فإن هذا يعنى أن العديد من أسئلتنا، وخاصة تلك التى تبدأ بكلمة «لماذا»، ستظل بلا إجابة فى الوقت الحالى.

وقد كان الرسول بولس يشير إلى قضية الأسئلة التى بلا إجابة عندما كتب قائلاً: «فإننا ننظر الآن فى مرآة فى لغز، لكن حينئذ وجهاً لوجه. الآن أعرف بعض المعرفة، لكن حينئذ سأعرف كما عرفت» (١كو ١٣:١٢). فإن ما يريد بولس أن يقوله هنا هو أننا لن نرى الصورة كاملة إلا عندما نلتقى فى الأبدية. وبالتالى، فيجب علينا أن نتعلم كيف نرضى الآن بالفهم الجزئى.

ولكن للأسف، فإن كثيرين من المؤمنين الشباب، والشيوخ أيضاً، لا يعرفون أنه تأتى أوقات فى حياة كل إنسان تكون فيها الأحداث غير قابلة للفهم، أو بمعنى آخر يكون الله فيها غير مفهوم. فإن هذا الجانب من الإيمان المسيحى لا يلقى منا التشجيع الكافى، إذ أننا نميل فى تعليمنا للمؤمنين الأحداث أن نقدم لهم الجوانب الجذابة فقط من ديانتنا والتى تبهر الذهن العلمانى. على سبيل المثال، فإن هيئة Campus Crusade for Christ (وهى هيئة تبشيرية جديرة بالاحترام وأقدرها شخصياً جداً) قامت بتوزيع ملايين النسخ من كتيب اسمه

«الحقائق الروحية الأربعة». والحقيقة الأولى فى هذه الحقائق الكتابية هى «أن الله يحبك ولديه خطة رائعة لحياتك». وهذه الحقيقة صحيحة بكل تأكيد، ولكنها تحمل معنى أن المؤمن سيكون دائماً فى استطاعته أن يدرك أبعاد هذه «الخطة الرائعة» وأنها ستكون مستساغة له. وهذا ليس دائماً صحيح.

فعند بعض الأشخاص، مثل «جونى اريكسون تادا»، كانت «الخطة الرائعة» تعنى الحياة على كرسى متحرك فى تعايش مع شلل رباعى. وبالنسبة لآخرين، فهى قد تعنى الموت المبكر، أو الفقر، أو الاحتقار من المجتمع. بالنسبة لإرميا النبى، كانت تعنى الطرح فى زنزانة مظلمة. وبالنسبة لشخصيات أخرى من الكتاب المقدس، كانت تعنى الحكم بالإعدام. ولكن فى أقسى الظروف، فإن خطة الله تظل «رائعة» لأن جميع الأشياء المتناغمة مع إرادته «تعمل معاً للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده» (رو ٨:٢٨).

ومع ذلك، فإنه ليس من الصعب أن نفهم كيف تنشأ الحيرة عند هذه النقطة، خاصة عند الشباب. ففى ربيع العمر، عندما تكون الصحة جيدة ولا تكون عواصف الأحزان والشدائد قد هبت بعد على عالمهم الصغير الهادىء، يكون من السهل نسبياً فهم الارتباط بين الأحداث، ويمكن للإنسان أن يؤمن يقيناً أن الأمور ستظل هكذا دائماً. هؤلاء الأشخاص بالتحديد هم الذين يتعرضون للارتباك الروحى إذا فاجأتهم الضيقات عند هذه النقطة.

أعرف جراحاً اسمه «د. ريتشارد سيلزر»، وهو فى نفس الوقت كاتب معروف وأحب جداً قراءة كتاباته. فهو يكتب أرقى وأصدق التعبيرات فى وصف مرضاه وفى وصف

المآسي الإنسانية التي يواجهونها. كتب في أحد كتبه «رسائل إلى طبيب شاب» قائلا: «أن معظمنا يبدو وكأنه محاط لفترة من الزمن بغشاء تخيلي يحميه من الخطر. ونحن نسير داخل هذا الغشاء وخلاله كل يوم بدون أن نشعر بوجوده. وكما أن جهاز المناعة يحمي جسم الإنسان من خطر البكتريا الخفي، كذلك فإن هذا الغشاء التخيلي يحمينا من الأمور التي تهدد حياتنا. وبالطبع، فإن ليس جميع الصغار عندهم هذه الحماية، لأن الأطفال يموتون بالسرطان، وبأمراض القلب، وغيرها. ولكن معظمهم يتمتعون بهذه الحماية دون أن يدروا. وفجأة، وبدون إنذار، ينقطع هذا الغشاء، ويتسلل الخطر إلى حياة الشخص أو إلى حياة أحد أحبائه. في هذه اللحظة بالتحديد، تتولد أزمة لاهوتية غير متوقعة».

إذاً ما الذي أقصده؟ هل أن أبينا السماوي لا يهمه ولا يعنيه أولاده وبناته غير المحصنين، أم أنه يسخر منا نحن المائتين ويضحك على المآسي التي تحل بنا؟ ليس هذا الكلام إلا تجديف صريح. فإن كل الصفات التي يقدمها لنا الكتاب المقدس تؤكد أن الله كلي المحبة والعطف، وأنه يسهر بكل حنان على أولاده ويقود خطوات الأمناء. وهو يقول عنا أننا «شعب مرعاه، وغنم يده (أي الذي تحت رعايته)» (مز ٩٥:٧). وهذا الحب العظيم جعله يرسل ابنه الوحيد ليموت كفدية عن خطايانا، لكي ننجو نحن من العقاب الذي نستحقه. وهو فعل ذلك لأنه «هكذا أحب العالم» (يو ٣:١٦).

ولقد عبر الرسول بولس عن هذه الفكرة قائلا: «فإني متيقن أنه لا موت، ولا حياة، ولا ملائكة، ولا رؤساء، ولا قوات، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة، ولا علو، ولا عمق، ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله في المسيح

يسوع ربنا» (رومية ٨:٣٨-٣٩). وقد نقل لنا إشعياء هذه الرسالة من قلب الآب مباشرة: «لا تخف لأنى معك، لا تتلفت لأنى إلهك. قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين برى» (إش ٤١:١٠). إذاً فالمسألة هنا ليست متعلقة بمحبة الله ورحمته. ومع ذلك، فالمشكلة لا تزال قائمة.

إن هدفى الأساسى عند هذه النقطة، والسبب الذى من أجله كتبت هذا الكتاب، هو من أجل إخوتى المؤمنين الذين يصارعون مع مواقف غير مفهومة. فمن خلال تعاملى مع الأسر التى تجتاز فى صعوبات متعددة، ابتداء من المشاحنات الزوجية ومشاكل المراهقين، وانتهاء بحالات المرض والموت، وجدت أن الصفة المشتركة فى الأشخاص الذين يمرون بازمات هى شعورهم العميق بالإحباط من جهة الله. وهذا يحدث بصفة خاصة عندما تبدو الأحداث غير منطقية وغير متوافقة مع الشىء الذى تعلموه أو عرفوه. وإذا لم ينقذهم الرب حالا من المواقف التى تعكر صفوهم، فإن الإحباط سرعان ما يتحول عندهم إلى غضب وإلى إحساس بالترك. وفى النهاية، يبدأ الشك يتطرق إلى النفس فتذبل الروح وتجف.

ويمكن أن يحدث هذا حتى مع الأطفال الصغار لأنهم معرضون للإحساس بأنهم مرفوضون من الله. وإننى أتذكر قصة ولد صغير اسمه «كريس» كان وجهه مشوهاً بسبب تعرضه لحروق. وقد أرسل إلى طبيبه النفسى يقول:

عزيزى د. جاردنر

إنه ولد كبير عمره ١٣ سنة، وهو يسمينى "سلحفاة". وأنا أعرف أنه يقول ذلك بسبب عملية التجميل التى فى وجهى. وأنا أعتقد أن

الله يبغضنى بسبب شفتى، وعندما أموت فإنه ربما يرسلنى إلى جهنم.

مع حبى: كريس.

فمن الواضح أن «كريس» استنتج أن تشوه وجهه هو دليل على رفض الله له. وهو استنتاج منطقى ومعقول فى نظر طفل: «لأنه إذا كان الله كلى القدرة وهو يعرف كل شىء، فلماذا يسمح لشىء بشع مثل هذا أن يحدث لى؟ لا بد أنه يبغضنى».

وللأسف، فإن «كريس» ليس وحده. فإن كثيرين غيره يصدقون نفس هذه الكذبة الشيطانية. وفى الواقع، فإن كل واحد منا سيأتى عليه وقت فيه يشعر بهذا الترك من الله. لماذا؟ لأن كل إنسان على مجرى حياته لابد أن تواجهه مواقف ويجد نفسه عاجزاً عن فهمها. هذا هو الوضع الطبيعى للبشر. ودعونى أوكد مرة أخرى: إنه من الخطأ أن نظن أننا سنكون دائماً فاهمين ما الذى يصنعه الله، أو ما هى العلاقة المباشرة بين آلامنا وبين خطته. فإننا عاجلا أم آجلا، لابد أن نصل فى يوم من الأيام إلى نقطة فيها يبدو لنا كما لو كان الله قد فقد السيطرة أو الاهتمام بأمور البشر. وهذه فكرة خادعة، ولكنها ذات تأثير خطير على سلامة الإنسان الروحية والعقلية. وفى الحقيقة، فإن الألم ليس فى حد ذاته هو مصدر الخطر، بل الحيرة والتشويش هما اللذان يحطمان الإيمان.

فالنفس البشرية قادرة على تحمل أعظم الشدائد، حتى مواجهة ألم الموت، ولكن بشرط أن تكون ملابسات القضية مفهومة. فإن الكثيرين من الشهداء والأسرى السياسيين وأبطال الحروب واجهوا الموت بكل شجاعة وثقة، وذلك لأنهم كانوا يفهمون قيمة التضحية التى يقومون بها وكانوا

مقتنعين بها. ولعلنا نذكر «ناثان هيل» فى لحظاته الأخيرة، عندما قال لقاتليه: «إن ما يؤسفنى هو أننى ليس لى إلا حياة واحدة لكى أقدمها لوطنى». فالجنود فى الحرب يموتون غالباً بكل شجاعة، بل إنهم أحياناً يلقون بأنفسهم على القنابل اليدوية المشتعلة لكى يحموا رفقائهم، أو يهجمون على مواقع المدافع الفتاكة من أجل إنجاز المهام العسكرية. وكأن لسان حالهم يقول: «إن الهدف الذى أخاطر بحياتى من أجله هو أكثر من منطقى».

ولعل كلمات «جيم إليوت»، وهو أحد خمسة مرسلين قد تم إعدامهم بالسيف فى إكوادور، هى أبلغ وصف لهذا المفهوم. فنحن نجد كلماته الأخيرة فى كتاب «عبر بوابات البهاء» للكاتبة «إليزابيث إليوت» حيث يقول: «ليس من الغباء أن يعطى الإنسان شيئاً لا يمكنه أن يحتفظ به لكى يربح شيئاً لا يمكنه أن يفقده». هذا المفهوم الكتابى يجعل من الاستشهاد انتصاراً مجيداً.

ولكن على العكس من ذلك، فإن المؤمنين الذين يقعون فى الحيرة والتشكك من جهة الله، لا يتمتعون بمثل هذا العزاء. فإن «فقدان المعنى» هو الذى يجعل حالتهم غير محتملة. وفى الواقع، فإن اكتئابهم بسبب التعرض لمرض مفاجىء أو بسبب الوفاة المأساوية لأحد أعزائهم، يفوق أحياناً الحزن الذى يشعر به غير المؤمنين الذين لم يتوقعوا شيئاً ولم ينالوا شيئاً. وفى حالة الارتباك هذه، من الشائع أن نسمع من أشخاص مؤمنين كلمات تدل على التوتر العنيف والغضب أو حتى التجديف. فإن حالة هذا الإنسان المتحير أشبه بحالة طفلة صغيرة يخبرها أبوها المطلق أنه سيأتى ليراها. فإذا لم يأت الأب يكون ألم الفتاة أكبر كثيراً مما لو لم يكن قد أخبرها من الأصل بأنه سيأتى.

فكلمة السر هنا هى كلمة "التوقع". فإن التوقع هو الذى يهيىء الطريق إلى التشكك. فليس هناك مأساة فى الاختبار البشرى أعظم من أن يبنى الإنسان حياته بأكملها على مفهوم لاهوتى معين، ثم يرى هذا المفهوم وهو ينهار فى لحظة ألم أو ضيق مفاجىء. فالشخص يواجه فى هذه الحالة أزمة تزعزع الأساسات. ومثل «كريس» الصغير فإنه قد يعانى أيضاً من الإحساس بالرفض، إذ أن الله الذى كان يحبه ويعبده ويخدمه أصبح فجأة إلهاً صامتاً وبعيداً وغير مبال فى أكثر الأوقات حرجاً. ولكن هل يحدث ذلك أيضاً مع الأمناء؟ نعم، وإن كنا لا نميل عادة إلى الاعتراف بذلك فى مجتمعنا المسيحى.

أليس هذا هو ما حدث بالضبط مع أيوب؟ فإن هذا الرجل التقى لم يرتكب خطأ، ولكنه تعرض لسلسلة من الخسائر المروعة والمتتالية خلال بضعة ساعات فقط. لقد سمعت العديد من العظات عن حياة هذا الشخص المميز، ولكن الواعظ كان فى معظم الأحيان يتحاشى أن يتعرض للسبب الرئيسى الذى جعل أيوب يصاب بأشد الإحباط (وهو عجزه عن أن يجد الله). هذه هى النقطة الرئيسية فى القصة. فإن أيوب فقد كل شىء، فقد الأولاد والمال والعبيد والجاه والأصدقاء. ولكن جميع هذه المآسى مع بشاعتها، لم تسبب له القدر الأعظم من التوتر، إذ خر أيوب على الأرض وسجد قائلا: «عرياناً خرجت من بطن أمى وعرياناً أعود إلى هناك. الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً» (أيوب ١: ٢٠-٢١).

ثم سمح الرب للشيطان بأن يؤذى أيوب جسدياً، فضربه «بقرح ردىء من باطن قدمه إلى هامته» (أيوب ٢: ٧). واهتاجت امرأة أيوب وحرضت زوجها على أن يلعن الله

ويموت. فأجابها أيوب قائلا: «تتكلمين كلاماً كإحدى الجاهلات. أالخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل؟» ويضيف الكتاب قائلا: «في كل هذا لم يخطىء أيوب بشفتيه» (٢: ١٠). حقاً ما أعظمه رجل إيمان! فحتى الموت لم يقدر أن يزعزع ثقته، إذ يقول «هوذا يقتلني، لا أنتظر شيئاً. فقط أزكي طريقي قدامه» (١٣: ١٥).

ومع ذلك فلقد وصل أيوب بعد ذلك إلى نقطة يأس. فإن هذا البطل الذي استطاع أن يحتمل المرض، والموت، والخسارة الفادحة، وقف مغلوباً على أمره أمام موقف كان فوق طاقة احتماله. هذا الموقف، لشدة العجب، كان نابعاً من فشله في أن يجد الله. فلقد مر بفترة كان فيها الله القدير محتجباً عنه، بل والأكثر من ذلك أنه لم يكن يكلمه. وقد عبر أيوب عن شدة كربه بهذه الكلمات:

"اليوم أيضاً شكواي تمرد، ضربتي أثقل من تنهدي. من يعطيني أن أجده فآتي إلى كرسيه! أحسن الدعوى أمامه وأملأ فمي حججاً، فأعرف الأقوال التي بها يجيبني وأفهم ما يقوله لي. أبكثرة قوة تخاصمني؟ كلا، ولكنه كان ينتبه إلي. هنالك كان يحاجه المستقيم، وكنت أنجو إلى الأبد من قاضي. هأنذا أذهب شرقاً فليس هو هناك، وغرباً فلا أشعر به، شمالا حيث عمله فلا أنظره، يتعطف الجنوب فلا أراه» (أيوب ٢٣: ٢-٩).

فهل يمكننا أن نفترض أن هذا الفشل في إيجاد الله والتلامس معه في أوقات المحنة الشخصية هو اختبار يخص أيوب وحده؟ كلا، فإنني أعتقد أن هذا يحدث مع كثيرين، بل ربما قد حدث مع معظمنا عند نقطة معينة في حياتنا.

يخبرنا الكتاب المقدس قائلا: «لم تصبكم تجربة إلا بشرية (أى ما هو معتاد عند البشر)» (١كو ١٠:١٣). فإننا جميعاً نجتاز بتجارب مشابهة. فلا بد أن الملك داود كان يشعر بنفس مشاعر أيوب حين سأل الرب بشغف عظيم قائلا: «إلى متى يارب تنسانى كل النسيان؟ إلى متى تحجب وجهك عنى؟» (مز ١:١٣). ثم فى مزمور ٧٧، عبر داود مرة أخرى عن كرب نفسه قائلا: «هل إلى الدهور يرفض الرب ولا يعود للرضا بعد؟ هل انتهت إلى الأبد رحمته؟ انقطعت كلمته إلى دور فدور؟» (ع ٧،٨). ونقرأ فى ٢أخ ٣٢:٣١ أن «الله ترك (حزقيا) ليجربه ليعلم كل ما فى قلبه». ويسوع نفسه سأل عن السبب الذى من أجله تركه الله فى ساعاته الختامية فوق الصليب، ولعل هذا هو أوضح مثال لنوعية الاختبار الذى أحاول وصفه هنا.

إننى مقتنع بأن هذه الأمثلة وغيرها من الأمثلة الكتابية قد كتبت لكى تساعدنا على فهم إحدى الظواهر الروحية البالغة الأهمية. فمن الواضح أن الرب يسمح لمعظم المؤمنين أن يجتازوا فى أودية مظلمة روحياً ومعنوياً بهدف اختبار إيمانهم فى بوتقة النار. لماذا؟ لأن الإيمان يأتى على رأس قائمة الأولويات فى نظر الله. وقد قال أنه «بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه» (عب ١١:٦). وما هو الإيمان؟ «إنه الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى» (عب ١١:١). فإن هذا الإصرار على الإيمان مع غياب الأدلة، ومع بقاء الأسئلة بدون إجابة، هذا الإيمان هو محور علاقتنا مع الله. ولن يفعل الله شيئاً أبداً لكى يلغى حاجتنا إلى الإيمان، بل إنه فى الواقع سيقودنا بصفة خاصة فى أوقات الامتحان لكى يزرع فينا هذا الإيمان ويعلمنا الاعتماد عليه (عب ١١:٦-٧).

ولكن هذه الإجابة اللاهوتية ما زالت غير قادرة على تخفيف الألم والمعاناة التى نشعر بها عندما نجتاز فى الطرق الموحشة. فمعظمنا لا يعرف كيف يتعامل مع الآلام مثل أيوب وداود. فعندما ترتفع حرارة النيران ويزداد الارتباك، يتعرض بعض المؤمنين لأزمات روحية مريعة. فإنهم «يفقدون الله»، إذ تعلو الشكوك وتحجب حضوره، ويتحول الواقع إلى يأس. ويكون السبب الأساسى للإحباط هو معرفتنا بأن الله قد خلق الكون كله بكلمة من فمه، وأنه كلى القدرة والمعرفة، يستطيع أن يخلص، ويستطيع أن يشفى. فلماذا لا يفعل؟ وهذا الإحساس بالترك يمثل اختباراً رهيباً بالنسبة للشخص الذى قد تأصل كيانه كله فى التعاليم المسيحية. وهنا يأتى الشيطان فى زيارة قصيرة ليهمس قائلا: «إنه ليس هنا! إنك وحدك!».

فما الذى يفعله مثل هذا الشخص عندما يعجز عن فهم الله؟ إلى من يعترف بأفكاره المزعجة، بل وأحياناً المهرطقة؟ ممن يطلب المشورة؟ ماذا يقول لأسرته عندما يتعرض إيمانه للاهتزاز العنيف؟ إلى أين يذهب للبحث عن قيم جديدة ومعتقدات جديدة؟ وخلال بحثه عن شيء أكثر ثباتاً يمكنه التمسك به، يكتشف ذلك الشخص أنه لا يوجد اسم آخر، ولا إله آخر، يمكنه الالتجاء إليه. وفى رسالة يعقوب ١:٨ يشير إلى مثل هذا الشخص ويصفه بأنه «رجل ذو رأيين هو متقلقل فى جميع طرقه». إنه أشقى وأتعس جميع الناس!

هذا الشخص يذكرنى بالنبات المعترش الذى كان ينمو خلف المنزل الذى نمتلكه، شيرلى وأنا، فى جنوب كاليفورنيا. وقد كانت هذه النبتة طموحة ولديها خطة سرية لغزو العالم! وفى طريقها كانت توجد شجرة بلوط عتيقة عمرها ١٥٠

سنة وقد كنت حريصاً جداً على حماية هذه الشجرة. وكل بضعة شهور كنت أنظر من النافذة الخلفية فألاحظ أن النبات المعترش قد هاجم البلوطة من جديد. فها هو يشق طريقه حول الجزع وحول الفروع العلوية. فإذا استمر الوضع لابد أن شجرة البلوط ستنهار أمام غزو النبات المفترس!

وقد كان الحل بسيطاً للغاية. فبدلا من جذب النبات من حول غصن الشجرة، مما يعرض لحاء البلوطة للأذى، قمت بعمل قطع سريع بالقرب من قاعدة النبات المعترش، ثم مضيت إلى حال سبيلي. ومع أنه لم يتغير أى شيء حسب الظاهر، إلا أن الوحش الأخضر كان قد أصيب إصابة قاتلة. وفى اليوم التالى، كان ورق النبات المعترش يبدو قاتماً، وبعد يومين أو ثلاثة تغير لون الأوراق قليلا عند الحافة، وسرعان ما تحول لونها إلى اللون البنى مع حدوث بقع سوداء بالقرب من المركز. ثم بدأت الأوراق تتساقط تاركة مجرد عرق جاف ممتداً حول الجزع. وأخيراً سقط هذا العرق وظلت البلوطة شامخة. فلقد انتهت أسطورة الطموح الأعمى.

هل ترون وجه الشبه؟ إن المؤمنين الذين يفقدون الله فى فترات الارتباك الروحى يشبهون هذا النبات المعترش الذى تم قطعه من أصله. فإنهم يحرمون أنفسهم من الرعاية والقوة. قد يبدون فى البداية أنهم متماسكون ولكن جرحهم فى الواقع هو جرح قاتل، وسرعان ما سيذبلون فى حرارة الشمس. فإنهم ينقطعون عن الكنيسة ويفارقون الكتاب المقدس والصلاة. والبعض يتجاوزون الحدود ويبدأون فى عمل أشياء لم يفكروا فيها من قبل. ولكنهم لا يجدون سلاماً فى الداخل. فإنه فى الحقيقة ليس هناك بين البشر أتعس من الشخص الذى يشعر بالاغتراب عن الله بسبب أنه لم يعد يفهمه أو يثق فيه.

وقد تكلم يسوع عن هذه العلاقة فى يوحنا ١٥:٥-٦ عندما قال: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذى يثبت فى وأنا فيه هذا يأتى بثمر كثير، لأنكم بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً. إن كان أحد لا يثبت فى يطرح خارجاً كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه فى النار فيحترق».

فإذا كنت من بين هؤلاء الناس الذين قد انفصلوا عن الكرمة بسبب التشويش والارتباك، فلقد كتبت هذا الكتاب خصيصاً لأجلك. إننى أعرف أنك متألم. إننى أفهم تماماً كيف عصف بك الألم عند موت ابنك أو عند خيانة زوجك أو عند انتقال زوجتك المحبوبة لتكون مع يسوع. أنت لم تجد تفسيراً للزلزال المدمر، أو الحريق، أو الإعصار الرهيب، أو الأمطار الرعدية غير المتوقعة التى دمرت محاصيلك. وقد قالت شركات التأمين أن هذا «قضاء الله وقدره»، وقد كانت هذه التسمية من أهم أسباب ألمك. وتوجد أمثلة لا نهائية. فإننى أتذكر شاباً أعرفه كان مقتنعاً بأن الرب سيجعله يتزوج الفتاة التى أحبها حباً جماً. فلقد كان يظن أنه لن يستطيع أن يعيش بدونها. ويوم زفافها إلى رجل آخر، تزعزع إيمانه من الأعماق.

وأتذكر أيضاً تلك المرأة التى اتصلت بى تليفونياً فى سنة ١٩٩١ لتخبرنى أن ابنها البالغ من العمر ٢٨ سنة قد قتل فى حرب الخليج. كان فى طائرة هليكوبتر تم إسقاطها فى مكان ما فى العراق. لقد كان ابنها الوحيد وكان مؤمناً حقيقياً مولوداً من الله. لقد عاد الـ ٦٠٠,٠٠٠ محارب المشتركون فى هذه الحرب جميعهم سالمين باستثناء بضعة أفراد معدودين، ولكن هذا الشاب التقى كان واحداً منهم. ان قلبى يتألم حقاً مع أمه الثكلى.

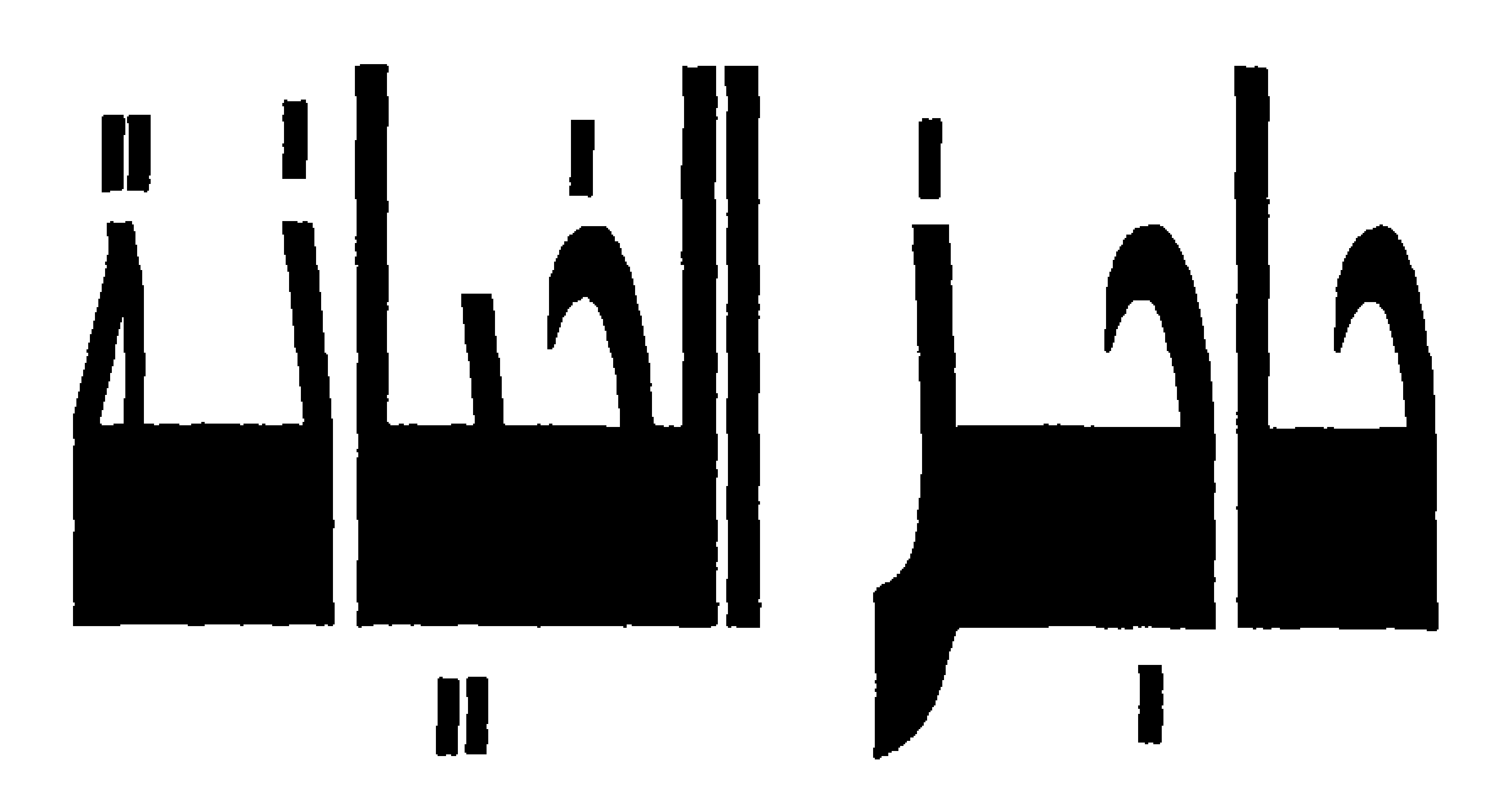
والخطر الأكبر الذى يواجه الأشخاص الذين يختبرون مثل هذه المآسى، هو أن الشيطان يستخدم ألمهم لكى يجعلهم يشعرون بأن الله متربص بهم. ويا له من فخ مميت! فعندما يبدأ الشخص يشعر أن الله القدير يبغضه ولا يهتم به، فإن الدمار الكامل يصبح على الأبواب.

فإلى القلوب الجريحة، والنفوس النازفة المتلهفة إلى كلمة تشجيع، دعونى أؤكد لكم أنكم تستطيعون أن تثقوا فى رب السموات والأرض. فإنه يوجد أمان وراحة فى حكمة الأقوال الأزلية. هذا ما سنناقشه بالتفصيل فى الفصول التالية، وستكتشفون أن الله حقاً جدير بالثقة حتى عندما يكون غير مفهوم. ويمكنكم أن تتأكدوا من شىء واحد: إن يهوه الله، ملك الملوك ورب الأرباب، لا يذرع طرقات السماء جيئة وذهاباً بحثاً عن حل لمشاكل حياتك! فلقد علق الكون كله فى الفضاء، وهو يستطيع أن يتعامل بسهولة مع الأثقال التى تعيى كاهلك، إنه يعتنى بك كل العناية. وهو يحدد لنا نقطة البداية فى قوله «كفوا واعلموا إنى أنا الله» (مزمور ٤٦:١٠).

نحن نعلم
أن كل الأشياء تعمل
معا للخير للذين يحبون الله
الذين هم مدعوون
حسب قصده

رو ٨:٨ ٢

الفصـــل الثاني



سمعت منذ عدة سنوات هذه القصة: «يحكى أن رجلا كان يقود شاحنة فى طريق جبلى ضيق. وكان عن يمينه منحدر شاهق بعمق حوالى ٥٠٠ قدم. وبينما كان السائق يدور فى أحد المنحنيات، اختلت فجأة عجلة القيادة فى يده، وانحرفت العربة فى اتجاه الحافة، فسقطت من فوق الجبل، وتهشمت مشتعلة عند القاع. ومع أن الرجل المرتعب طار من العربة أثناء سقوطها، إلا أنه استطاع أن يتشبث بشجرة قريبة من حافة المنحدر. وهكذا كان ممسكاً بغصن ضعيف، ومتدلياً فوق الهاوية السحيقة. وبعد أن حاول عدة مرات أن يسحب نفسه إلى أعلى، أطلق صيحة يائسة قائلا: «ألا يوجد أحد هنا؟»

وبعد ثوانى قليلة تردد صوت الرب عاصفاً عبر الجبل قائلا: «نعم، أنا هنا... ماذا تريد؟»

أضاف الرجل مستعطفاً: «أرجوك أن تنقذنى! فليس فى استطاعتى أن أصمد أكثر من ذلك!»

وبعد برهة أخرى عصيبة، أجاب الصوت: «حسناً، سوف أنقذك. ولكنك يجب أولا أن تترك الغصن الذى أنت ممسك به، وثق أننى سأتلقفك. ارخ قبضتك الآن، وثق أن يدى ستكون من تحتك».

فما كان من الرجل إلا أن ألقى نظرة من فوق كتفه إلى الشاحنة المشتعلة فى أسفل الوادى، ثم نادى قائلا: «ألا يوجد هنا أى شخص آخر؟»

هل حدث أن وجدت نفسك فى مثل هذه الورطة؟ هل سبق لك أن طلبت الله فى أحد المواقف الحرجة، فطلب منك أن تثق فيه من جهة حياتك؟ هل حدث أنك بعد أن سمعت إجابته كانت لديك الرغبة فى أن تنادى قائلا: «ألا يوجد هنا شخص آخر؟». هذه الحالة، كما سبق أن أشرنا، ليست حالة نادرة فى الطريق المسيحى. فإننا نظن أننا نعرف ما الذى نحتاج إليه فى لحظات الأزمة، ولكن الله غالباً ما يكون له رأى آخر.

بعد سنوات عديدة من الاختبار المستمر لاستجابة الصلاة، قد يستحسن الرب ألا يمنحنا طلبة معينة قد نظن أنها فى منتهى الأهمية. وفى لحظات معدودة، ينهار العالم من حولنا، ويبدأ الذعر يطارد نفوسنا، بينما تكون الحياة والموت فى الميزان. ويبدأ القلب يخفق معبراً عن القلق الداخلى: «أين الله؟ هل لديه علم بما يحدث؟ هل هو مهتم بالأمر؟ لماذا تحولت السماء إلى القتام والصمت؟ ما الذى فعلته لكى أستحق هذا الترك؟ ألم أخدمه بقلب كامل؟ ما الذى ينبغى أن أفعله لكى أستعيد رضاه؟». ثم، مع تراكم الخوف والإحباط، تنسحب الروح الإنسانية وتنكمش فى تشكك وارتباك.

كنت أتمنى أن أجد الكلمات الدقيقة التى تشرح هذا الاختبار فى كامل أبعاده. فإننى فى الحقيقة، من واقع عملى لمدة ٢٦ سنة فى مجال المشورة، لم أجد فى الحياة حالة مؤلمة أكثر من حالة الإيمان المحطم. فإن هذه الحالة فى

الواقع تنشأ من جوف الجحيم. وقد قال «الدكتور ر.ت. كندال»، وهو الخادم الموهوب فى كنيسة وستمنستر فى لندن، أن هذه الحالة تقود صاحبها إلى ما يسمى «حاجز الخيانة». وفى رأيه، أن جميع المؤمنين بدون استثناء يجتازون فى وقت من الأوقات فى مرحلة فيها يبدو الله وكأنه يخذلهم. وقد يحدث هذا الاختبار بعد إيمانهم بفترة قصيرة. فربما يفقد المؤمن الحديث وظيفته، أو قد يمرض ابنه، أو قد يفشل فى عمله. وربما بعد أن يخدم الله بأمانة لسنوات عديدة، تبدأ الحياة فجأة تتبعثر. فتفقد جميع الأشياء معناها، وتبدو الأمور غير عادلة بالمرة. ويكون رد الفعل الطبيعى هو هذا: «يارب، هل هذه هى الطريقة التى بها تعامل خاصتك؟ لقد كنت أظن أنك ستعتنى بى، ولكن يبدو أننى كنت مخطئاً. لن أستطيع فيما بعد أن أحب إلهاً كهذا». ياله من سوء فهم رهيب.

والكتاب المقدس ملىء بالأمثلة على هذا الاختبار الإنسانى المحير. فإننا نراه فى خروج ٥، حيث يأمر الله موسى بأن يطلب من فرعون أن يطلق بنى إسرائيل. ففعل موسى كما أمره الرب. فما كان من فرعون إلا أن استشاط غضباً وزاد فى تعذيبه للشعب، فأصبح يضربهم ويستخدم العنف معهم ليرغمهم على المزيد من العمل. وقد أرسل الشعب التماساً للحاكم لكى يرحمهم قليلا، ولكن فرعون لم يكن فى حالة تقبل المساومة، فاتهمهم بالكسل وأمرهم بالعودة إلى أعمالهم وإلا... فغادر الرجال القصر فى ضيق وكرب شديدين، وذهبوا مباشرة إلى موسى وهارون. وقالوا لهما: «ينظر الرب إليكما ويقضى! لأنكما أنتنتما رائحتنا فى عينى فرعون وفى عيون عبيده حتى تعطيا سيفاً فى أيديهم ليقتلونا» (خروج ٥:٢١).

وقد كان من الطبيعى أن يشعر موسى بأن الله قد وضعه فى مأزق ثم تخلى عنه. ولم يكن رد فعله مختلفاً عن ردود أفعالنا نحن فى مثل هذه المواقف. فلقد قال للرب: «ياسيد، لماذا أسأت إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتنى؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك، أساء إلى هذا الشعب، وأنت لم تخلص شعبك» (خروج ٥:٢٢،٢٣).

ويمكننا اليوم أن نرى كيف أن موسى أساء فهم الأشياء التى كان الله يعملها. ولكن من منا يستطيع أن يلومه. فقد كان يبدو أنه قد وقع ضحية لخدعة قاسية. ولحسن الحظ فلقد تمسك موسى بإيمانه حتى بدأ يفهم الخطة. إن معظمنا لا يستطيعون أن يتصرفوا بنفس الحكمة. فإننا نحاول أن نخرج من المأزق بأى ثمن قبل أن تتضح الصورة الكاملة. ولكننا للأسف نظل بعد ذلك لفترة طويلة نعانى من الألم والإحباط. وقد قال الدكتور كندال أن أكثر من ٩٠٪ منا يفشلون فى اختراق «حاجز الخيانة» هذا بعد إحساسهم بالترك من الله، فتكون النتيجة أن إيمانهم يعاق بسبب اختبار مرير لا يستطيعون نسيانه بسهولة.

وما لاحظه الدكتور كندال يتفق مع ما لاحظته أنا شخصياً. فإن أناساً كثيرين ممن يرغبون فى خدمة الرب يقعون فى فخ كذبة بشعة تبعدهم عن مانح الحياة. إن الشيطان كما نعلم هو «أبو الكذاب» (يو ٨:٤٤)، وهو أيضاً «أسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو» (١بط ٥:٨). إن هدفه المحدد هو أن يفشلنا وأن يشوه الحق. فهو يظهر دائماً فى أعظم لحظات الإحباط لكى يهمس بأفكاره الخبيثة ويزيد من عذاب المؤمن المجروح.

ولفائدة الذين من بينكم يتعرضون لمثل هذا الهجوم القاسى على إيمانهم أريد أن أشارككم ببعض الاختبارات المماثلة فى حياة المؤمنين الآخرين. وكما سبق أن أشرت فإنه من المهم أن تعرف أنك لست وحدك. إن الألم والقنوط الذى يقودك إلى التساؤل «لماذا أنا؟» ليس بالأمر الغريب. فإنه لم يتم اختيارك أنت بالذات للحزن، ولكن على ما يبدو أنه من المحتم على معظمنا أن نصطدم بهذه الصخرة عينها. فمنذ القديم تألم رجال ونساء بسبب ظروف قاسية لا تخضع لأى قانون من قوانين العقل أو المنطق. إن هذا لابد أن يحدث معنا جميعاً عاجلا أو آجلا. وقد اجتاز الملايين فى مثل هذا الاختبار. وعلى عكس ما سيقوله لك بعض المؤمنين، فإن تبعية يسوع المسيح ليست شهادة ضمان أكيدة ضد هذه العواصف.

انظر على سبيل المثال حياة وموت «الدكتور بول كارلسون». ففى سنة ١٩٦١ التحق د. كارلسون بهيئة للإغاثة لكى يعمل كطبيب مرسل إلى الكونغو البلجيكى. وكان مقدراً لمهمته أن تمتد فقط إلى ستة شهور. ولكن الأشياء التى رآها قد غيرت مجرى حياته. فبعد رجوعه إلى عيادته الطبية المزدهرة فى شاطىء «ريدوندو» فى كاليفورنيا، لم يستطع أن ينسى ذلك الشعب البائس. وقد قال لأحد زملائه: «لو أمكنك فقط أن ترى الاحتياج هناك، لما استطعت أن تبلع طعامك». وسرعان ما عاد الدكتور كارلسون إلى أفريقيا مصطحباً أسرته معه. وأسس عيادة طبية مؤقتة، وكان أحياناً يعمل على ضوء الكشافات، ويذهب إلى الزيارات المنزلية على دراجته البخارية. وقد انخفض مرتبه إلى ٣٢٢٠ دولار فى السنة، ولكن المسائل المالية لم تكن تعنيه، فلقد كان يسير نحو هدف آخر.

ولكن بعد مرور سنتين، وقع الدكتور كارلسون رهينة أثناء أحد الصراعات الدموية بين الأحزاب الثورية المتطاحنة فى الكونغو البلجيكى. فلقد كان ضمن زمرة صغيرة من الأمريكيين الذين وقعوا فى الأسر بالقرب من منطقة القتال. وقد كان لديهم فرصة للهروب بأن يتسلقوا أحد الأسوار ثم ينزلوا بأمان على الجانب الآخر. وقد وصل الدكتور كارلسون بالفعل إلى أعلى السور، وكان بينه وبين الحرية جزء من الثانية عندما اخترق جسده وابل من الرصاص، فسقط إلى الخلف فى الفناء ومات. كان قتل الدكتور كارلسون قتلا عشوائياً بلا معنى، من جانب ثوار لم يكن لهم أى مصلحة فى قتله.

وقد علقت مجلة التايم على مقتل ذلك الطبيب قائلة:

"لقد كان لمقتل الدكتور كارلسون ضمن المذبحة التى تعرض لها حوالى مائة آخرون من البيض وآلاف من السود، معنى مأساوى معين. فلقد كان رمزاً لجميع الرجال البيض، وهم كثيرون، الذين لا يريدون شيئاً من أفريقيا سوى أن تتاح لهم الفرصة أن يساعدوها. لم يكن الدكتور كارلسون قديساً، ولا شهيداً بإرادته، ولكنه كان طبيباً ماهراً. ومن منطلق إيمانه المسيحى القوى وإحساسه بوحدة البشرية، ذهب إلى الكونغو ليعالج المرضى".

إن ولاء الدكتور بول إيرل كارلسون للبشرية قد كلفه حياته.

ويبقى لنا الآن التساؤل: «لماذا، يارب؟ لماذا؟ ألم يكن فى إمكانك أن تجعل الرجل الذى أطلق الرصاص يتأخر

للحظة واحدة؟ فلو أن ذبابة صغيرة كانت قد وقفت على أنفه، أو قليلا من العرق قد تساقط فى عينيه، لكان قد تغير ذلك المصير المأسوى. ولكن لم يحدث شيء من مثل هذا. وبذلك انتهت حياة رجل صالح، تاركاً وراءه زوجة محبة وطفلين.

وماذا عن التجربة التى مر بها أحد أصدقائى وهو داريل جوستافسون وزوجته كلاريتا؟ لقد ظلا عقيمين لعدة سنوات، على الرغم من جميع الفحوصات الطبية والأساليب العلاجية المكثفة. وقد كانا يصليان باستمرار طالبين من الله أن يمنحهما طفلا، ولكن السماء كانت صامتة، فظل الرحم عقيماً. ثم فى أحد الأيام تحقق الحلم، فلقد اكتشفت كلاريتا لشدة فرحها أنها حامل. لقد تكلم الله أخيراً. وبعد سبعة شهور ولدت طفلا ذكراً سليماً، وسموه «هارون» على اسم أخى موسى. وقد كان هذا الطفل مصدر فرح وفخر كبيرين لهما. ولكن عندما بلغ هارون الثالثة من عمره، اكتشف والداه أنه مصاب بنوع خبيث جداً من أنواع السرطان. وتلا ذلك عشرة شهور من العلاج الكيماوى المؤلم، والعلاج بالإشعاع. وعلى الرغم من جميع المحاولات لإيقاف المرض، إلا أن حالة الطفل استمرت فى التدهور. وقد ظل أباه وأمه يتذبذبان بين الأمل واليأس، وهى حالة لا يفهمها إلا الآباء الذين مروا بمثل هذه التجربة. وعلى الرغم من الصلوات العديدة والدموع الغزيرة إلا أن الطفل «هارون» ذهب ليكون مع الرب فى سنة ١٩٩٢، وهو فى سن الرابعة. وهكذا رحل عنهما الطفل الذى طال انتظاره، والذى كان داريل وكلاريتا يسميانه «ملاك الله الصغير» أو «يقطينتنا الصغيرة». وقد ظل إيمان تلك العائلة قوياً على الرغم من أنهم حتى الآن لم يجدوا الإجابة على تساؤلاتهم.

ان قلبى يتألم من أجل هؤلاء، ومن أجل جميع الآباء والأمهات الذين يفقدون طفلا عزيزاً. وفى الواقع فإننى بصفة مستمرة أسمع عن آباء يجتازون فى محن مشابهة. وتحضرنى الآن بصفة خاصة حالة هذه الأسرة التى علمت بمحنتها من الأب الذى أرسل إلى كلمة كتبها فى ذكرى طفلته الصغيرة «بريستول». لقد كتب قائلا:

حبيبتى بريستول،

قبل أن تولدى صليت من أجلك. وقد عرفت فى قلبى أنك ستكونين ملاكاً صغيراً. وهكذا كنت فعلا. عندما ولدت فى يوم عيد ميلادى، ٧ أبريل، كان من الواضح أنك هدية خاصة من الرب. ولكن كم أصبحت بعد ذلك فعلا أعمق هدية بالنسبة لى. فأكثر من كونك أول مولود من لحمى ودمى - ويا له من فرح لا يوصف، وأكثر من جمالك الرائع الذى يشع من خديك المتوردين، وأكثر من أى شىء آخر فى الوجود لقد علمتينى محبة الله. بريستول، لقد علمتينى كيف أحب.

لقد أحببتك عندما كنت جميلة وجذابة، عندما كنت تتدحرجين لتجلسى، وعندما كنت تنطقين بكلماتك الأولى. لقد أحببتك عندما لفحنى الألم أمام الحقيقة المؤلمة أنه يوجد شىء ليس على ما يرام، وأن نموك ليس طبيعياً تماماً، وبعد ذلك عندما فهمنا أن الأمر أخطر من ذلك. لقد أحببتك عندما طفنا على المستشفيات والعيادات والأطباء بحثاً عن تشخيص يعطينا

بعض الأمل. وبالطبع فلقد كنا دائماً نصلى، ونصلى، ونصلى من أجلك. لقد أحببتك عندما سحبوا كمية أكثر من اللازم من السائل النخاعى، فصرخت. لقد أحببتك عندما كنت تبكين وتتألمين، عندما كنت أنا ووالدتك وأخواتك نسير بك لعدة ساعات أثناء الليل حتى تنعسين. لقد أحببتك والدموع تملأ عينى، عندما كنت فى غير وعى تعضين أصابعك أو شفتيك عن غير قصد، وعندما كانت عيناك تتقاطعان ثم تغيب عنهما الرؤية.

لقد أحببتك بلا شك عندما أصبحت عاجزة عن الكلام، على الرغم من اشتياقى الشديد إلى صوتك! لقد أحببتك عندما بدأ الانحناء فى العمود الفقرى يلوى جسدك، وأحببتك عندما وضعنا أنبوباً فى معدتك لكى تستطيعى أن تتناولى طعامك، فلقد كان الطعام يدخل إلى قصبتك الهوائية حتى عندما كنا نطعمك بالملعقة قليلا قليلا على مدار ساعتين فى الوجبة الواحدة. ولم أكف عن حبك عندما كانت ساقاك المنحنيتان لا تتيح لنا أن نستبدل حفاضاتك بسهولة - عدد لا نهائى من الحفاضات - عشر سنوات من الحفاضات. بريستول، لقد أحببتك حتى عندما لم تقدرى أن تردى إلى مسمعى الكلمات التى طالما اشتقت إلى سماعها: "بابا، إنى أحبك". بريستول، لقد أحببتك عندما كنت قريباً من الله، وعندما كان يبدو هو بعيداً جداً، عندما كنت ممتلئاً من الإيمان، وأيضاً عندما كنت غاضباً منه.

والسبب في أنني أحببتك، يا صغيرتي بريستول، على الرغم من جميع هذه الصعوبات، هو أن الله قد وضع هذا الحب في قلبي. إن هذه هي الصفة العجيبة في محبة الله، وهي أنه يحبنا حتى عندما نكون مصابين بالعمى أو الصمم أو التشوه، سواء في أجسادنا أو في أرواحنا. إن الله يحبنا حتى عندما نكون غير قادرين أن نقول له أننا أيضاً نحبه.

عزيزتي بريستول، الآن أنت تتمتعين بالحرية! وإنني أتوق إلى ذلك اليوم، حسب وعود الله، عندما نجتمع معاً مرة أخرى مع الرب في صحة تامة وفي فرح كامل. إنني مبتهج حقاً أنك قد حصلت على إكليلك أولاً، وسنلحق بك في يوم ما، في وقته.

قبل أن تولدي صليت من أجلك. وقد عرفت في قلبي أنك ستكونين ملاكاً صغيراً. وهكذا كنت فعلاً.

مع حبي؛ بابا

ومع أنني لم ألتق أبداً بهذا الأب، إلا أنني أشعر شخصياً بكل العاطفة التي في قلبه. فإن الحقيقة هي أعمق من ذلك بكثير! وما زلت عند قراءة هذه الكلمات لا أستطيع أن أغالب دموعي. فلقد كانت لي نفس المشاعر تجاه ابني وابنتي منذ يوم ولادتهم. ومع ذلك فلم أكن أستطيع أن أتصور حجم العذاب الذي سببته محنة العشر سنوات هذه التي وصفها هذا الأب في خطابه. فإن هذا النوع من المآسي ليس فقط مجرد كابوس عاطفي، ولكنه يمكن أن يتحول إلى المنجم الروحي الذي سبق وأشرت إليه.

ومرة أخرى، فإن هذه الأمثلة للآلام المحطمة للقلب، تبرهن على أن رجال الله المصلين، يواجهون أحياناً نفس الكوارث التى تواجه غير المؤمنين. وإذا أنكرنا هذه الحقيقة فإننا نخلق ألماً أكبر وحيرة أعمق عند الذين لم يستعدوا للتعامل مع هذا النوع من الاختبارات. لذلك يجب علينا أن نعترف بهذا الواقع غير المفرح، ويجب أن نحصن اخوتنا وأخواتنا ضد «حاجز الخيانة». يجب علينا أن نعلمهم ألا يعتمدوا على قدرتهم الشخصية فى فهم الظروف الحياتية التى بلا تفسير. ويجب أن نتذكر أن الكتاب يحذرنا قائلا: «على فهمك لا تعتمد» (أم ٣:٥). وبالطبع فإنه ليس محظوراً علينا أن نحاول أن نفهم، فلقد صرفت أنا شخصياً عمراً بأكمله محاولا فهم بعض الأمور الصعبة فى الحياة، وهذا ما قادنى إلى كتابة هذا الكتاب. ولكن المطلوب منا بصفة خاصة هو ألا «نعتمد» على قدرتنا فى إيجاد معنى للأحداث المختلفة ووضعها فى إطارها النهائى. فإن هذا يعنى أننا سنحاول بأى طريقة أن نجد الإجابة، وإلا فسوف نطرح إيماننا جانباً إذا لم نحصل على إجابة مقنعة. إنه يعنى أننا سنضغط على الله لكى يوضح لنا وجهة نظره، وإلا...! وهنا سيبدأ كل شىء ينهار.

وبالطبع، فليس عندى أجوبة مناسبة تجيب على تساؤلات والدى «هارون»، أو السيدة «كارلسون»، أو الدكتور «كارن فراى». وليس لدى تفسيرات دقيقة أقدمها إلى والد «بريستول» المتألم، ولا إلى والدى «ستيف هوايت». بل إننى فى الواقع أجد أن بعض التفسيرات التافهة التى يحاول بعض الهواة أن يقدموها تدعو إلى الاشمئزاز. كأن يقولوا مثلا: «لقد كان الله يريد أن يضع الوردة الصغيرة «بريستول» فى

حديقته السماوية». هراء! فأى أب محب يرضى أن يمزق قلب أسرة من أجل غرض أنانى مثل هذا! كلا. فإنه من الأفضل أن نعترف بأننا لا نعرف إلا القليل جداً بحيث لا يمكننا أن نفسر كل الآلام الموجودة فى عالمنا الساقط. وأننا لابد أن نؤجل هذا الفهم إلى مجيء الرب القدير الذى وعد أن يسوى جميع الحسابات وينهى جميع المظالم.

إذا كنت قد بدأت تنزلق إلى القنوط والكآبة، فمن المهم جداً أن تلقى بنظرة جديدة على الكتاب المقدس لكى تعرف أن التجارب والآلام هى من مكونات الحياة البشرية. فجميع كتبة الوحى المقدس، وجميع عمالقة الإيمان اجتازوا فى آلام مشابهة. انظر مثلا إلى اختبار يوسف، وهو أحد الآباء فى العهد القديم. فلقد ظلت حياته كلها ممزقة، إلى أن جاء يوم لقائه المجيد بأسرته بعد سنوات عديدة. لقد كان مكروهاً من إخوته الذين فكروا فى قتله قبل أن يبيعوه كعبد. وأثناء وجوده فى مصر، اتهموه باطلا بأنه قد حاول اغتصاب امرأة فوطيفار، فألقوا به فى السجن وكان مهدداً بالإعدام. وليس لدينا أى إشارة إلى أن الله قد شرح ليوسف ما الذى كان يفعله خلال هذه السنين العديدة المؤلمة، ولا كيف أن الأمور ستؤول فى النهاية للصالح. ولكن كان متوقعاً منه، كما هو متوقع أيضاً منك ومنى، أن يعيش أيامه يوماً بيوم مكتفياً بما لديه من فهم غير كامل. والشيء الذى جعل الله يسر من يوسف هو أمانته حتى عندما لم تكن الأمور مفهومة.

انظر أيضاً إلى قصة إيليا فى ١ ملوك ١٧. فى العدد الثالث نقرأ أن الله قال له «انطلق من هنا واتجه نحو المشرق واختبيء عند نهر كريث، الذى هو مقابل الأردن. فتشرب من النهر، وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك». وقد كانت

هذه أنباء سارة بالنسبة لإيليا لأنه كان يوجد جفاف شديد فى الأرض فى ذلك الوقت. فهو بذلك على الأقل سوف ينجو من الموت عطشاً. ولكن بعد ذلك نقرأ فى عدد ٧: «وكان بعد مدة من الزمان أن النهر يبس، لأنه لم يكن مطر فى الأرض». ما أعجبها حادثة! ولعلك تتوقع أن إيليا قد تساءل قائلا: «يارب، لقد أرسلتنى الى هنا، ووعدتنى بأن ترسل لى الطعام والشراب. فلماذا جعلت النهر يجف؟» إنه سؤال منطقى. فهل ياترى قد جف نبع بركات الله فى حياتك؟

ودعونا ننتقل إلى العهد الجديد وننظر الى حياة التلاميذ وسائر القادة المسيحيين الأوائل. فيوحنا المعمدان، على سبيل المثال، الذى قال عنه يسوع أنه لم يولد من النساء من هو أعظم منه، وجد نفسه وقد ألقاه هيرودس فى أعماق السجن. وهنا استطاعت امرأة شريرة اسمها هيروديا أن تقطع رأسه للانتقام منه لأنه أدان سلوكها المشين. ولا نجد فى الكتاب المقدس ما يدل على أن ملاكاً قد زار يوحنا فى سجنه لكى يشرح له معنى هذا الاضطهاد. فذلك الرجل التقى العظيم الذى اختاره الله لكى يمهد الطريق أمام يسوع، قد اجتاز فى نفس التجارب المحيرة التى نمر بها. ولعله من المعزى لنا أن نعرف أن يوحنا قد تجاوب مع التجربة بطريقة بشرية للغاية. فلقد أرسل سراً رسالة إلى يسوع من سجنه يقول فيها: «أنت هو الآت أم ننتظر آخر؟» (مت ١١:٣). فهل شعرت فى وقت ما أنك تريد أن تسأل هذا السؤال؟

انظر إلى حادثة استشهاد اسطفانوس الذى رجموه حتى الموت لأنه نادى باسم المسيح. وانظر الى التلميذ يعقوب الذى لم يخصص له فى سفر أعمال الرسل إلا عدد واحد. يخبرنا سفر الأعمال أن الملك هيرودس أغريباس «قتل يعقوب

أخا يوحنا بالسيف» (أعمال ١٢:٢). ويخبرنا التاريخ أن عشرة من الاثنى عشر تلميذ قد تعرضوا أيضاً للقتل (باستثناء يهوذا الذى شنق نفسه، ويوحنا الذى ذهب إلى المنفى). ونحن نعتقد أيضاً أن بولس الذى تعرض للاضطهاد والرجم والجلد بالسياط، قد قطعوا أيضاً رأسه فى سجن روما. والنصف الثانى من الأصحاح ١١ من رسالة العبرانيين يحكى لنا عن بعض الذين تألموا من أجل اسم المسيح:

"وآخرون عذبوا ولم يقبلو النجاة لكى ينالوا قيامة أفضل. وآخرون تجربوا فى هزء وجلد ثم فى قيود أيضاً وحبس. رجموا، نشروا، جربوا، ماتوا قتلا بالسيف. طافوا فى جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكروبين مذلين، وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم. تائهين فى برارى وجبال ومغاير وشقوق الأرض. فهؤلاء كلهم مشهوداً لهم بالإيمان لم ينالوا المواعيد" (عب ١١:٣٥-٣٩).

اقرأ هذا العدد الأخير مرة أخرى ولاحظ أن هؤلاء القديسين كانوا يعيشون فى انتظار وعد لم يتحقق حتى يوم مماتهم. فإنهم لم يحصلوا أبداً على الفهم الكامل. ولكن كان لديهم فقط الإيمان ليسندهم ويثبتهم في وقت محنتهم. ويقول «الشرح التطبيقى للكتاب المقدس على الحياة» Life Application Bible Commentary عن هذا الأصحاح «هذه الأعداد تلخص حياة رجال ونساء عظماء فى الإيمان. البعض حققوا انتصارات مذهلة، حتى فى مواجهة الموت. ولكن البعض الآخر احتملوا المعاملة القاسية، والتعذيب، والقتل. إذاً فالإيمان القوى بالله لا يضمن لنا الحياة السعيدة

الخالية من المتاعب. بل على العكس فإن إيماننا غالباً ما يضمن لنا الاضطهاد من العالم بصورة أو بأخرى. وأثناء وجودنا على الأرض قد لا نفهم أبداً الهدف من آلامنا، ولكننا نعرف أن الله سيحفظ وعوده لنا». هذه هى النقطة الأساسية.

وربما قليلون منا مدعوون للتضحية بحياتهم كما كان يحدث فى الكنيسة الأولى، إلا أن الأمثلة المعاصرة لا زالت موجودة. ولنحاول أن نشرح ذلك: يحكى لنا «القس بيل ميبلز» قصة حول هذا المعنى فى كتابه «Too Busy Not To Pray». يقول:

منذ سنتين وجه لى أحد القادة المسيحيين فى الهند اسمه "بيسو" الدعوة للذهاب إلى جنوب الهند مع أحد أعضاء كنيستى. وهناك التقينا بعدد من الأشخاص من مختلف أنحاء الولايات المتحدة، وقالوا لنا أن الله سوف يستخدمنا لتقديم المسيح إلى الهندوسيين وسائر الناس الملحدين هناك، وشعرنا جميعاً أننا مدعوون من الله للذهاب، ولكن لم يكن أحد منا يعرف ما الذى ينتظرنا.

ولدى وصولنا، استقبلنا "بيسو" وأخذنا إلى منزله. وعلى مدار الأيام القليلة التالية، أخبرنا عن خدمته.

كان والد "بيسو"، وهو قائد ومبشر نشيط، قد بدأ إرساليته فى إحدى المقاطعات التى يحكمها الهندوس. وفى يوم من الأيام جاء قائد هندوسى وطلب من والد "بيسو" أن يصلى معه. وفى حماسته للصلاة معه، على أمل أن يقوده

للمسيح، أخذه إلى غرفة منعزلة، وجثا على ركبتيه معه، وأغمض عينيه وبدأ يصلى. وبينما هو يصلى أخرج الرجل الهندوسى مطواة من وسط ثيابه وطعنه بها عدة طعنات.

وسمع "بيسو" أنات أبيه فأسرع إليه، وأخذه بين ذراعيه، بينما كانت دماؤه تتدفق على أرضية الكوخ، وبعد ثلاثة أيام مات. وهو على فراش الموت قال لابنه: "أرجوك أن تقول لهذا الرجل أنى قد سامحته. اعتن بوالدتك، وواصل هذه الخدمة. اعمل أى شىء تشعر أنه لازم لربح الناس للمسيح".

يالها من قصة معبرة وموبخة لنا! إنها تجعلنى أشعر بالخجل من شكواى من المشاكل التافهة والإحباطات التى صادفتنى عبر السنين. ربما فى يوم من الأيام، سيطلب منى الرب مثل هذه التضحية من أجل المسيح. وفى هذه الحالة، فإننى أصلى أن يمنحنى الله الشجاعة لقبول أى شىء يطلبه منى. هناك كثيرون قد كرسوا حياتهم لخدمة السيد بهذه الطريقة.

فمن أين إذاً أتينا بمفهوم أن المسيحية هى قطعة من الحلوى؟ ما هو أساس عقيدة «اذكر اسم الشىء، وطالب به» «name it, claim it» التى تنادى بأن الله سوف يكتسح من أمامنا جميع التجارب وجميع الضيقات؟ فعلى العكس تماماً، لقد أخبر يسوع تلاميذه بأنه ستصادفهم آلام. قال لهم: «قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فى سلام. فى العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يوحنا ١٦:٣٣). وكتب بولس قائلا: «ازددت فرحاً جداً فى جميع ضيقاتنا، لأننا لما أتينا إلى

مكدونية لم يكن لجسدنا شيء من الراحة بل كنا مكتئبين في كل شيء من خارج خصومات، من داخل مخاوف» (٢كورنثوس ٧:٤-٥). وحسم بطرس قضية الصعوبات في الحياة المسيحية بقوله: «أيها الأحباء لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب، بل كما اشتركتم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين» (١بطرس ٤:١٢-١٣). ولاحظ في جميع هذه الاقتباسات الارتباط الوثيق بين الفرح والألم.

هذا هو التوقع الحتمي الذي يقدمه لنا كتبة الوحي المقدس، ومع ذلك فعلى ما يبدو أننا مصممون على كتابة نصوص أخرى، وهذا يجعلنا بلا شك فريسة لخداع الشيطان.

إن ما يقلقني حقاً هو أن مؤمنين كثيرين يشعرون بأن الله ملزم بأن يمنحهم رحلة هادئة أو على الأقل تفسيراً كاملا (وربما أيضاً اعتذاراً) عن جميع الصعوبات التي تصادفهم. في حين أننا ينبغي ألا ننسى أن الله، قبل كل شيء، هو الله. إنه كلي الجلال والقداسة والقدرة. ليس له أن يعطي حساباً لأحد. إنه ليس الجن الذي يخرج من الزجاجة ليشبع شهواتنا. وهو ليس العبد الذي يطيع أوامرنا، بل نحن عبيده. والهدف الأساسي من وجودنا هو أن نمجده ونكرمه. ومع ذلك، فإنه أحياناً يصنع المعجزات العظيمة من أجلنا. وأحياناً يسر بأن يفسر لنا معاملاته في حياتنا. أحياناً يكون حضوره واضحاً كما لو كنا نلتقي معه وجهاً لوجه. ولكن في أوقات أخرى عندما يكون كل شيء غير مفهوم، وعندما نشعر أن الأوضاع التي نجتازها «غير عادلة»، وعندما نشعر أننا نجلس بمفردنا تماماً في غرفة انتظار الله، فإنه يقول لنا بكل بساطة «ضع ثقتك في!».

هل هذا يعنى أنه قد حكم علينا بالاكتئاب وبالترك فريسة لظروف الحياة؟ بالطبع لا. فلقد قال بولس إننا «أعظم من منتصرين». وكتب إلى أهل فيلبى قائلا:

"افرحوا فى الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا. ليكن حلمكم معروفاً عند جميع الناس. الرب قريب. لا تهتموا بشىء بل فى كل شىء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله. وسلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم فى المسيح يسوع" (فيلبى ٤: ٤ - ٧)

من الواضح، أن هذا لغز. فمن ناحية يخبرنا الكتاب المقدس أنه ستصادفنا آلام وصعوبات وتجارب ربما قد تكلفنا حياتنا، ومن ناحية أخرى يشجعنا على أن نكون فرحين وشاكرين ومبتهجين. فكيف يمكن الجمع بين هذه الأفكار المتناقضة؟ كيف يمكننا أن نكون منتصرين ونحن واقعون تحت ضغوط رهيبة؟ كيف يمكننا أن نكون فى أمان ونحن محاطون بكل أنواع المخاوف؟ إن هذا سر، وهو على حد قول بولس «يفوق كل عقل».

فى الفصل التالى، سنناقش القواعد التى تقودنا إلى هذا السلام الذهنى العميق فى وسط العاصفة. وهو متاح لحياتك أنت أيضاً.

الفصـــل الثـالـث

معاملات الله لها معنى حتى عندما تبدو بلا معنى

لقد انشغل تفكيرى على مدار سنوات عديدة بالمواقف التى يكون الله فيها غير مفهوم. وقد اصطدم ذهنى بأول «لماذا» ضخمة فى حياتى وأنا فى نهاية فترة المراهقة. فى ذلك الحين كنت أواجه موقفاً يحتاج إلى طاقة أكبر مما امتلك. ومنذ أن سلمت قلبى ليسوع المسيح، وقد مضى الآن أكثر ٥٠ سنة فلا زلت أعلن ولائى لهذا السيد بكل عرق فى كيانى، بل إن اقتناعى اليوم هو أقوى وأعمق كثيراً من أى وقت مضى.

وطوال هذه المدة كانت لى الفرصة أن أدرس كلمة الله وأحتك بخبرة الحياة، مما أتاح لى أن أستخرج بعض المفاهيم المناسبة التى يمكن أن تساعدنا على فهم الفترات التى فيها يتعرض إيماننا لأقسى أنواع التحدى. وأعتقد أننى قد وصلت إلى فهم أوضح عن من هو الله وما هى طرقه فى التعامل معنا، وذلك من أربع زوايا محددة أذكرها فيما يلى.

أولا: أن الله موجود ومتداخل فى جميع أمور حياتنا حتى عندما يبدو وكأنه غائب أو غير مبال:

عندما كنت طفلا، كنت أستمع إلى أحد البرامج الإذاعية التى تثير الخيال. وفى مرة سمعت قصة رجل كان محكوم عليه بالسجن الانفرادى فى سجن مظلم. وكان الشىء الوحيد

الذى يشغل به ذهنه فى هذا السجن هو أن يلعب بواسطة «بلية»، إذ كان يقضى الساعات وهو يقذفها فى اتجاه الحائط، ثم يصغى إليها وهى ترتد عن الحائط وتتدحرج داخل الغرفة، ثم يتحسس طريقه فى الظلام إلى أن يعثر على لعبته الثمينة.

وفى يوم من الأيام ألقى السجين ببليته إلى أعلى، ولكنها لم ترتد إلى أسفل مرة أخرى. وساد الصمت فى وسط الظلام. فانزعج الرجل بشدة من حادثة اختفاء البلية ولم يستطع أن يجد تفسيراً لهذه الواقعة. وفى النهاية، أصيب الرجل بلوثة عقلية ومات.

وعندما أتى مسئولو السجن لرفع جثة الرجل، لفت نظر أحد الحراس وجود بلية ممسكة فى نسيج ضخم للعنكبوت بالركن العلوى من الغرفة. فتعجب قائلا: كيف يمكن أن تصعد بلية إلى هنا!

وكما نرى من قصة هذا السجين المسكين، فإن الحواس البشرية تطرح أحياناً أسئلة يعجز الذهن عن الإجابة عليها. ولكن هذا لا ينفى أن الأجوبة الصحيحة موجودة دائماً. وبالنسبة لنا نحن أتباع يسوع المسيح فإنه يكفينا أن نفهم أننا لا ينبغى أن نعتمد أكثر من اللازم على إدراكنا ولا على قدرتنا فى إيجاد العلاقة بين جزئيات الصورة، خاصة إذا كانت الصورة مختصة بالله القدير!

فالإدراك البشرى هو أداة غير دقيقة وهو غير موثوق به ومعرض جداً للانخداع، والأكثر منه عواطفنا. فلقد كتبت كتاباً منذ بضع سنوات بعنوان: «العواطف: هل يمكن الاعتماد عليها؟» وخصصت ما يقرب من ٢٠٠ صفحة للإجابة على هذا

السؤال بالنفى. كلا، لا يمكننا أن نعتمد على مشاعرنا ورغباتنا لتوجيه حياتنا وللحكم على الأمور التى تحيط بنا. فإن العواطف دائماً متحيزة، ومتذبذبة، وغير جديرة بالثقة. فهى تتأثر بالهرمونات، خاصة فى فترة المراهقة. وهى أيضاً تتأرجح بصورة مرعبة بين الصباح الباكر، عندما نكون مستريحين، وبين المساء، عندما نكون مرهقين. وأحد الأدلة على النضج العاطفى هو عندما نكون قادرين (وأيضاً راغبين) فى أن نتحكم فى مشاعرنا المتقلبة ونخضع تصرفاتنا للفكر والإرادة. (فهل كان الأمر يستدعى حقاً ٢٠٠ صفحة لكى أقول هذا؟)

فإذا كانت المشاعر والحواس مشكوك فيها بهذا القدر، فيجب أن نكون حريصين جداً فى قبول ما تمليه علينا من جهة الله. ولكن للأسف، فإن مؤمنين كثيرين لا يدركون خطورة هذا الأمر كمصدر للارتباك والانخداع. فإنه من الشائع أن يقبل الناس ما تصوره لهم مشاعرهم من جهة الله. فى حين أن ما يشعرون به لا يزيد عن كونه مرآة لحالتهم الذهنية فى ذلك الوقت. وبالإضافة إلى ذلك فإنه توجد علاقة وثيقة بين الذهن والجسد والروح، وكل واحد من هؤلاء معرض للعدوى بأمراض الآخر. فعلى سبيل المثال، إذا كان الشخص مكتئباً، فإن هذا لا يؤثر فقط على كيانه العاطفى والمادى، بل أيضاً على حياته الروحية. وقد يستنتج قائلا: «إن الله لا يحبنى، فإننى لا أشعر برضاه من نحوى». ومن ناحية أخرى، فعندما يعرف شخص أنه مصاب بمرض خطير فإن أول شىء يقوله هو: «لماذا فعل الله معى هكذا؟». فهذه الأجزاء الثلاثة مرتبطة مع بعضها ارتباطاً وثيقاً، وهى تضعف قدرتنا على الحكم بموضوعية.

هذا المفهوم يشكل أهمية كبيرة عندما نأتى إلى تقييم علاقتنا مع الله. فحتى لو كان الله يبدو بعيداً جداً وغير مبال بأمورنا، فإنه فى الواقع قريب جداً إلى حد أننا نستطيع أن نلمسه. وأروع تصوير لهذا الحضور غير المرئى نجده فى لوقا ٢٤: ١٣-١٤ عندما كان اثنان من تلاميذ يسوع يسيران فى اتجاه قرية اسمها عمواس، تبعد سبعة أميال عن أورشليم. وكانوا منذ ثلاثة أيام قد رأوا سيدهم مصلوباً بصورة بشعة، فكانوا فى غاية الاكتئاب. كانت كل آمالهم قد ماتت فوق هذا الصليب الرومانى. وكل الأشياء العظيمة التى كان يسوع قد نادى بها وعملها أصبحت الآن تبدو غير صحيحة. لقد تكلم بسلطان عجيب ولكنه الآن ميت ومدفون فى قبر مستعار. لقد قال أنه ابن الله، ولكنهم سمعوه يصرخ فى ساعاته الأخيرة قائلا: «إلهى إلهى لماذا تركتنى؟» (متى ٢٧: ٤٦). لذلك كان التلاميذ واقعين فى حيرة ليس لها مثيل. فما هو إذاً معنى الوقت الذى قضوه مع ذلك الشخص الذى قال عن نفسه أنه المسيح؟

ولكن الشيء الوحيد الذى خفى عن إدراكهما هو أن يسوع نفسه كان يسير معهما على نفس الطريق المترب فى هذه اللحظة عينها، وأنهما كانا على وشك الحصول على أعظم أخبار يمكن لأذن بشرية أن تسمعها، أخبار كانت ستعمل ثورة فى حياتهم وتقلب العالم كله رأساً على عقب. ولكن فى تلك اللحظة، كان كل ما يرونه أمامهم هو مجرد مجموعة من الحقائق لا يوجد بينها أى تناغم أو انسجام. لقد كانوا فى حقيقة الأمر يعانون من مشكلة فى الإدراك.

أثناء عملى مع العائلات المسيحية التى تجتاز فى تجارب، فإننى أجدهم يصارعون بنفس الطريقة مثل التلاميذ. فبينما هم

يسيرون منحصرين فى تفكيرهم العميق، لا يجدون أى مؤشر يدل على أن يسوع موجود فى عالمهم. ولأنهم لا «يشعرون» بوجوده، فإنهم لا يستطيعون أن يصدقوا أنه يبالى بهم. فالواقع الذى أمامهم ليس له معنى، ولذلك فإنهم لا يتصورون أنه يمكن أن يوجد تفسير معقول للأشياء التى تحدث. وحيث أن صلواتهم لا تجلب لهم راحة فورية، لذلك فإنهم يفترضون أنها لم تكن مسموعة. ولكن فى هذا كله هم مخطئون. فإن اقتناعى الشديد فى مثل هذه الأحوال أن الخطأ الذى قد وقعوا فيه هو أنهم قد وضعوا ثقة كبيرة فيما يشعرون به، وثقة قليلة فى وعد الله القائل أنه «سيملأ كل احتياجنا بحسب غناه فى المجد فى المسيح يسوع» (فى ٤: ١٩).

فإذا كنت تجد نفسك اليوم سائراً فى الطريق المترب المتجه إلى عمواس، وكانت ظروف الحياة قد تركتك حائراً وكئيباً، فعندى كلمة مشورة لك. **لا تفترض أبداً أن صمت الله أو سكوته الظاهرى هو دليل على أنه لا يبالى بك**. ودعنى أكررها لك مرة أخرى. إن إحساسك بأن الله غائب عن المشهد، هذا لا يعنى أى شىء على الإطلاق! نعم لا شىء بالمرة! فإن كلمته جديرة بالثقة أكثر بما لا يقاس من مشاعرنا. قال مرة «القس روبين ولش» وهو كاتب وخادم للكلمة: «مع الله، حتى عندما لا يحدث شىء فإنه يكون هناك شىء حادث». هذا صحيح. فإن الرب يعمل بطريقته الخاصة الفريدة حتى عندما تبدو صلواتنا وكأن صداها يتردد فى الكون الفسيح.

علينا إذاً أن نؤسس حياتنا على سلطان الكلمة المكتوبة وليس على المشاعر المتغيرة. فلقد وعد بأنه لن يتركنا أبداً (متى ٢٨: ٢٠). وقال «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم» (متى ١٨: ٢٠). إنه «الصديق الألزق

من الأخ» (أمثال ١٨: ٢٤). ويؤكد لنا الكتاب أن «عينى الرب على الأبرار وأذنيه إلى طلبتهم» (١بطرس ٣: ١٢). وقد قال داود:

"أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك، وإن فرشت فى الهاوية فها أنت. إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر، فهناك أيضاً تهدينى يدك وتمسكنى يمينك" (مزمور ١٣٩: ٧-١٠).

هذه الوعود والإعلانات تظل حقيقية حتى عندما لا تكون لدينا أى أحاسيس روحية. فتمسك بهذا الحق ولا ترخه أبداً!

ثانياً: أن توقيتات الله مضبوطة، حتى عندما يبدو أنه قد تأخر تأخيراً مأساوياً:

إن أحد العوامل المدمرة جداً للإيمان هو عامل التوقيت عندما لا نجده مضبوطاً مع أفكارنا المسبقة. فإننا نعيش فى عالم سريع الإيقاع حيث وصل بنا الحال إلى توقع استجابة فورية لكل رغبة أو احتياج. قهوة فورية! وبطاطس فورية! ونقود فورية من ماكينة النقد! علاج فورى للتعب العضلى ولآلام الظهر! فلقد أصبح من حقنا أن نجعل العالم يقفز لتحقيق طلباتنا فى التو واللحظة. ولكن الله لا يعمل بهذه الطريقة. إنه لا يتعجل أبداً. بل إنه فى الواقع يكون أحياناً أبطأ كثيراً مما ينبغى فى حل المشكلات التى نضعها أمامه، وغالباً ما يكون بطء الرب كافياً لكى يجعل المؤمن القلق يستسلم ويتحرك نحو حلول أخرى.

ولكن قبل أن نستسلم دعونا أولا نلقى نظرة أخرى على قصة مريم ومرثا وأخيهما لعازر المذكورة فى يوحنا ١١. كانت هذه الأسرة الصغيرة من أقرب الناس ليسوع أثناء مدة خدمته على الأرض. يقول فى ع ٥: «كان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر». وقد كان من الطبيعى، نظراً لهذه المحبة، أن يتوقعوا منه بعض الخدمات، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بحالة طارئة تهدد بالموت. وهذا ما حدث بالفعل عندما تعرض لعازر لمرض خطير. فلقد قامت الأختان بالتصرف البديهى فى مثل هذه الأحوال، إذ أرسلتا حالا فى طلب يسوع قائلتين له: «ياسيد هوذا الذى تحبه مريض» (ع ٣). وقد كان لهما كل الحق فى أن يتوقعا من يسوع أن يلبى الدعوة فى الحال.

وظلت مريم ومرثا تنتظران وتراقبان الطريق فى انتظار اللحظة التى يأتى فيها يسوع، ولكنه لم يأت. وامتدت الساعات إلى أيام مليئة بالقلق، ويسوع ليس له اى أثر. وفى هذه الأثناء ازدادت حالة لعازر سوءاً حتى أنه أوشك على الموت. فأين إذاً يسوع؟ ألم تصله الرسالة؟ ألم يدرك خطورة المرض؟ ألم يبال؟ وبينما الأختان تجلسان بجوار أخيهما المريض، فإذا به يغمض عينيه ويسلم الروح.

وانسحقت الأختان من الحزن. ولابد أنهما كانتا أيضاً تشعران بالإحباط الشديد تجاه يسوع. فإنه بكل تأكيد موجود فى مكان ما يصنع المعجزات لأناس غرباء تماماً، يفتح أعين العميان ويشفى المفلوجين، بينما كانت هناك حاجة شديدة إليه هنا، ومع ذلك فإنه لم يكلف نفسه عناء الحضور. ويمكننى أن أتخيل مريم ومرثا تتهامسان معاً قائلتين: «لا يمكننى أن أفهم هذا. كنت أظن أنه يحبنا. لماذا تخلى عنا بهذه الصورة؟» ولفوا لعازر فى الأكفان، وساروا به فى جنازة صغيرة يكسوها

الحزن العميق. ولم يحضر يسوع إلى الجنازة. وأخيراً قامت الأختان بوداع أخيهما المحبوب ووضعتا جسده فى القبر.

كانت مريم ومرثا تحبان يسوع من كل القلب، ولكن كان من الطبيعى أن يظهر عليهما الضيق عندما حضر يسوع بعد أربعة أيام كاملة. ولعلهما قد حاولتا أن تقولا شيئاً مثل هذا: «أين كنت ياسيد؟ لقد حاولنا أن نخبرك بأن حبيبك يحتضر، ولكننا لم نستطع أن نصل إليك. والآن، ها قد أتيت بعد فوات الأوان. كان من الممكن أن تنقذه، ولكن على ما يبدو أنك كنت مشغولا بأمور أخرى أهم». ولكن كلمات مريم كانت بالطبع أكثر تهذيباً، فلقد قالت له: «لو كنت ههنا لم يمت أخى» (يوحنا ١١:٢١). وبينما هى تتكلم كانت تبكى، فتأثر الرب «وانزعج بالروح واضطرب» (ع ٣٣).

ونقرأ بعد ذلك كيف أن يسوع أجرى واحدة من أعظم معجزاته إذ أقام لعازر من الأموات. وكما نرى، فإنه لم يكن هناك فى الواقع أى تأخير من جانب السيد. ولكن هذا ما كان يبدو فقط بحسب الظاهر. لقد أتى فى اللحظة المضبوطة المحددة بدقة لإتمام مقاصد الله، وهذه هى عادته دائماً.

ودعونى أقول إن ما حدث هنا فى بيت عنيا هو حادثة متكررة فى الحياة المسيحية. ألم تلاحظ أن يسوع يصل غالباً متأخراً أربعة أيام عن المتوقع؟ فهو يصل بعد أن نكون قد بكينا وقلقنا وذرعنا الطرقات جيئة وذهاباً، بعد أن نكون بذلنا كل جهودنا فى الفحوصات الطبية. فلو كان قد أتى فى الوقت المناسب لكان قد وفر علينا الكثير من التوتر الذى حدث فى غيابه. ولكن من المهم جداً أن نعرف أن الله فى الواقع لا يتأخر أبداً، وكل ما فى الأمر هو أن جدوله الزمنى مختلف عن جدولنا، وهو فى معظم الأحيان أبطأ منا!

دعونى أصور لكم هذا المفهوم من تجربتى الشخصية. ففى سنة ١٩٨٥ طلب منى النائب العام للولايات المتحدة «إدوين ميسى» أن أساهم فى حملته ضد الدعارة. وقد كانت هذه المهمة بلا شك من أكثر المهام الشاقة والبغيضة التى وكلت إلى فى حياتى. فعلى مدى ١٨ شهر، حملت على كاهلى أنا وعشرة أعضاء آخرين مسئولية تدعو إلى الغثيان وتثير الاشمئزاز. خلال هذه الفترة سافرنا كثيراً وفحصنا أكثر المجلات والكتب والأفلام وشرائط الفيديو انحطاطاً فى العالم كله. وحيث أن الولايات المتحدة هى منبع الدعارة على مستوى العالم كله، فلقد غرقنا فى هذه البذاءات لفترة بدت وكأنها لانهائية. والأكثر من ذلك فإن تجار الدعارة قد تعقبوا حملتنا كما تتعقب مجموعة من الذئاب قطيعاً من الحملان. وقد فعلوا كل ما يستطيعون لكى يجلبوا علينا الخزى والعار.

ولا زلت أذكر كيف كنت أجلس يومياً على مسمع من الجماهير وسط مختلف أنواع الكاميرات وآلات تصوير الفيديو المصوبة إلى وجهى. كنت أستطيع أن أرى صورتى المنعكسة على عدساتهم بالساعات. وكان المصورون ينتظرون أن تبدر منى أى حركة محرجة كأن أفعل شكلا عجيباً بوجهى أو أضع إصبعى بالقرب من أنفى. وفى أحد الأيام بينما كنت أنهض من مكانى استعداداً لفترة الراحة، التفت إلى الخلف ففاجأنى أحد المصورين بلقطة لى من على بعد بضعة سنتيمترات فقط. كانت هناك بصفة مستمرة ميكروفونات بالقرب من مكانى على المائدة لتسجيل كل كلمة أو ملحوظة أتفوه بها. وكانوا يقلدون تعليقاتى بأسلوب تهكمى وينشرونها فى جميع منشوراتهم البذيئة. وقد قامت مجلة «هوستلر» بوضع صورتى على جسم حمار، ولقبتنى باسم «حمار الشهر

ـــــــــ». لقد كان النائب العام صريحاً معنا من البداية ولم يقل لنا أبداً أنها ستكون مهمة سهلة.

وقد كانت هذه الأساليب الاستفزازية مجرد مضايقات مؤقتة، ولكن المحاربات الحقيقية جاءت فيما بعد. فقبل أن نصدر تقريرنا النهائى بفترة قصيرة، كانت ثلاث منظمات وهى البلاى بوى Playboy، والبنتهاوس Penthouse، والأمريكان ماجازين American Magazine، قد رفعت ضدنا دعوى قضائية قيمتها ٢٠ مليون دولار. وكانت الدعوى موجهة ضد جميع أعضاء الحملة، بالإضافة إلى مديرها التنفيذى «ألان سيرز»، والنائب العام «إدوين ميسى». وكانت التهمة عبارة عن جزئية ملفقة فى القانون قال عنها محامونا أنها بلا قيمة. وقد طمأننا النواب فى هيئة العدل بأن القضية ليست ذات أهمية وأنها ستنتهى سريعاً، ولكن الواقع أثبت غير ذلك.

وقد أسندت القضية إلى القاضى «جون جاريت بن» وهو واحد من أبرز القضاة الليبراليين فى النورث إيست. وعلى غير المتوقع فلقد استمرت ملفات القضية مفتوحة أمامه لأكثر من سنتين، قبل أن يبت فيها. وفى النهاية جاء الحكم لصالحنا، وفى الحال استأنف الأطراف الآخرون القضية فأمضينا سنة أخرى فى الجحيم. وهذه المرة كانت أيضاً لصالحنا، ولكن أعقبها استئناف آخر. وعلى مدار ست سنوات ظلت هذه القضية معلقة فوق رؤوسنا، إلى أن وصلت أخيراً إلى لجنة القضاء الأعلى فى بداية سنة ١٩٩٢ والتى استطاعت أخيراً أن تغلق الملف. وكانت هذه هى المكافأة التى حصل عليها ١١ مواطن بسبب خدمة قدموها لوطنهم بدون مقابل!

ورجوعاً إلى موضوعنا، فلقد كنت أصلى أنا وشيرلى منذ بداية هذه القضية فى سنة ١٩٨٦. ونظراً لمسئولياتى العديدة فى برنامج Focus on the Family فقد كنت فى أشد الحاجة للخروج من هذا التشتيت. وطلبنا من الرب أن يرفع عنا هذه «الكأس»، ولكنه لم يعطنا أى إجابة فورية. وهكذا استمرت القضية فى مسارها واستنزفت قدراً كبيراً من إمكانياتنا المادية والمعنوية. وبعد ست سنوات، ظهر يسوع أخيراً فى المشهد، وانتهت القضية. ولكن السؤال الذى كان يحيرنى حقاً هو لماذا أتى يسوع «متأخراً أربعة أيام»؟ هل هناك أى فائدة ترجى من التردد بهذه الصورة على المحاكم؟ نعم، إنى متأكد أن هناك فائدة، لأنى أعرف أن أى صلاة لا بد أن لها إجابة إما بالإيجاب أو بالنفى. وانى أؤمن أيضاً بحرفية الوعد بأن «كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده» (رومية ٨:٢٨). ومع ذلك فإنى لا زلت لا أفهم لماذا سمح الرب لنا بست سنوات من الوقت والجهد الضائع لإنهاء هذا التكدير. ولكن ما حاجتى لأن أعرف الإجابة على هذا السؤال؟ هل هذا يعنينى فى شىء؟ كلا، لا يهمنى أن أعرف لماذا سمح الرب باستمرار القضية، طالما أنى أعرف أنه يحبنى وأنه لا يمكن أن يقع فى أى خطأ من جانبه. فلماذا لا أكتفى بالثقة فى حمايته؟

من دراستى للكتاب المقدس ومن اختبارى الشخصى كما فى الحالة المذكورة هنا، وصلت إلى الاستنتاج بأن حسابات الوقت والطاقة عند الله مختلفة تماماً عن حساباتنا نحن. فإن معظمنا فى المجتمعات الغربية نميل إلى استخدام كل دقيقة فى حياتنا لتحقيق هدف نافع. ولكن الرب يسمح أحياناً بأن تتبدد بعض السنين من حياتنا، أو هكذا يبدو، بدون أن يكون لها أى

عائد. فمن الصعب أن نفهم، على سبيل المثال، لماذا تعامل الرب مع داود الصغير بهذه الطريقة. فهذا الفتى الراعى قد اختاره الرب من وسط جميع فتيان أورشليم ليصير ملكاً بعد شاول. حتى يسى أبيه لم يصدق كيف أن الرب يتخطى أولاده السبعة جميعاً ليختار داود الصغير. يالها من بداية رائعة بالنسبة لفتى صغير يرعى الأغنام.

ولكن هيا ننظر للأمر من زاوية أخرى. فلقد سمح الله لشاول أن يطرد داود إلى البرية حيث قضى ١٤ سنة من عمره هارباً من وجه شاول. وبحسب المنظور البشرى، فإن سنوات الهروب هذه تمثل خسارة كبيرة مفقودة من سنى شباب داود. فلقد كان من الممكن أن يذهب إلى دورة تدريبية يتعلم فيها فن قيادة الشعوب أو أن يقوم بأى إنجازات مفيدة أخرى، بدلا من الجلوس فى المخابىء فى انتظار أن يظهر شاول وعصابته فى أى لحظة. ولكن من الواضح أن الله يعمل بحسب برنامجه المنظم الخاص. وحتى يسوع، الذى عاش ٣٢ سنة على الأرض، فلقد قضى ثلاث سنوات منها فقط فى الخدمة الجهارية! فتخيل كم سيكون عدد المرضى الذين ينالوا الشفاء وكم ستكون الحقائق الإلهية التى سيقدمها للناس، لو كان قد أضيف إلى مدة خدمته عشرة أو عشرين سنة أخرى.

كذلك تأمل فى عدد المواهب البشرية التى «أهدرت» عبر القرون، بسبب الموت المبكر أو العجز الذى أصاب أصحابها. «وولف جانج موزارت»، على سبيل المثال، كان مقدراً له أن يصبح أعظم عقل موسيقى فى تاريخ البشرية. فقد ألف أولى سيمفونياته فى سن الخامسة وأنجز كماً هائلا من الأعمال الموسيقية الرائعة. ولكنه مات مفلساً فى سن الخامسة والثلاثين، بعد أن عجز عن لفت الانتباه إلى أى من

مقطوعاته. وكان أثمن ما يمتلك عند موته كمان يقدر ثمنه بحوالى دولارين. وقد دفن فى قبر عادى مع عامة الشعب، ولم يحضر أحد لتشييع جنازته. فهل يمكن أن نقول إذاً أن الحياة عادلة؟

ومع أنه ليس عندى أى دليل على أن موزارت كان مؤمناً، إلا أننى مازلت متحيراً فى قصد الرب من وفاته المبكرة. فتخيل فقط الموسيقى التى كان يمكن لموزارت أن يكتبها لو أتيح له أن يعيش ٢٠ أو ٣٠ سنة أخرى. أما كان فى استطاعتنا الآن أن نستمتع بأجمل السيمفونيات التى لم تكتب أبداً والتى كانت ستخرج من هذا العقل العبقرى؟ وماذا عن «لودفيج فان بيتهوفن» الذى بدأ يفقد سمعه قبل أن يصل إلى سن الثلاثين؟ وتأمل فى القادة المسيحيين العظماء مثل أوزولد تشمبرز الذى مات فى سن ٤٣، وديتريش بونهوفر الذى أعدمه الحكم النازى وهو فى سن ٣٩، وبيتر مارشال الذى مات فى سن ٤٧، وغيرهم. فلماذا يضع الله مثل هذه المواهب الفريدة فى أناس مثل هؤلاء طالما أن حياتهم سوف تقصر بالموت؟ لست أعرف.

وعلى الجانب الآخر من هذا السؤال نجد الأشخاص الذين تمتعوا بحياة طويلة على الرغم من عدم أمانتهم لله. فى ٢ملوك ٢١، على سبيل المثال، نقرأ عن واحد اسمه منسى، وهو ابن ملك تقى اسمه حزقيا. ومنسى هذا يعتبر أشر ملك على الإطلاق من بين الملوك الذين ملكوا على أورشليم. وقد جلس منسى على العرش وهو فى سن الثانية عشرة، «وعمل الشر فى عينى الرب» (ع ٢). فلقد بنى المذابح للإله الكاذب المسمى بالبعل، ووضع أصناماً من الخشب فى هيكل الرب. وقد أسلم ابنه للموت حرقاً، واستعمل السحر وتحضير

الأرواح، واستشار العرافين «وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لإغاظته» (ع ٦). «وأضلهم منسى ليعملوا ما هو أقبح من الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل» (ع ٩). وأخيراً، نقرأ أن «منسى سفك أيضاً دماً بريئاً كثيراً جداً حتى ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب فضلا عن خطيته التى بها جعل يهوذا يخطىء بعمل الشر فى عينى الرب» (ع ١٦). وبسبب هذا الشر العظيم، وقع قضاء الرب على الأجيال التالية، ولكن ليس على منسى. فلقد ملك منسى لمدة ٥٥ سنة، ثم «اضطجع مع آبائه ودفن فى بستان عزا». وبذلك انتهت قصته.

وليس عندى شك فى أن منسى سينال جزاء عادلا رهيباً فى يوم القضاء، ولكن ألا يبدو من العجيب أن الله يتركه لمدة ٥٥ سنة يقتل الأبرياء، ويقدم أولاده محرقة للأوثان، ويجدف على اسم الرب، فى حين أن واحداً مثل عزا يضربه الله بالموت فى الحال بسبب خطأ سهو واحد إذ مد يده وأمسك بتابوت الله لئلا يقع (٢صموئيل ٦:٦-٧). وفى العهد الجديد، نرى أن حنانيا وسفيرة ينالان عقوبة الموت لأنهما كذبا بخصوص العطية التى تبرعا بها للمؤمنين (أعمال ٥:١-١١). أليس هذا أمر محير؟

فما الذى يمكن أن نستنتجه من هذه التناقضات الظاهرية، غير أن «الله هو الله» وهو ليس ملزماً بأن يقدم لنا تفسيراً لأعماله. ومع ذلك يمكننا أن نقول بثقة أنه وإن كانت خططه ومقاصده مختلفة تماماً عن خططنا نحن، إلا أنه كلى العدل وتوقيتاته دائماً دقيقة. فهو يتدخل فى اللحظة المناسبة تماماً لصالحنا.

ثالثاً: إننا نحن البشر لنا ثمن غال جداً فى نظر الله، وذلك لأسباب لا يمكن شرحها:

من أعجب الحقائق فى الكتاب المقدس هى حقيقة أن الله يعرف كل واحد منا شخصياً، وأنه يفكر فينا نهاراً وليلا. فإنه فى الواقع لا توجد طريقة لفهم جميع المعانى المتضمنة فى هذا الحب من جانب ملك الملوك ورب الأرباب. فهو كلى القدرة وكلى المعرفة، وكلى الجلال والقداسة من الأزل وإلى الأبد. فما الذى يدفعه إذاً إلى أن يعتنى بنا، ويهتم باحتياجاتنا وبسلامتنا وبمخاوفنا؟ لقد ناقشنا الحالات التى فيها يكون الله غير مفهوم. فى حين أن اهتمامه بنا نحن البشر المائتين هو فى الواقع الشىء الذى لا يمكن فهمه على الإطلاق.

وقد وجد أيوب أيضاً صعوبة فى فهم السبب الذى يجعل الخالق يهتم بالبشر. فتساءل قائلا: «ما هو الإنسان حتى تعتبره وحتى تضع عليه قلبك، وتتعهده كل صباح...؟» (أيوب ٧:١٧-١٨). ونفس السؤال حير داود أيضاً عندما كتب قائلا: «من هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده؟» (مزمور ٨:٤). ثم فى مزمور ١٣٩ يقول: «يارب قد اختبرتنى وعرفتنى. أنت عرفت جلوسى وقيامى. فهمت فكرى من بعيد. مسلكى ومربضى ذريت وكل طرقى عرفت. لأنه ليس كلمة فى لسانى إلا وأنت يارب عرفتها كلها» (الأعداد ١-٤). ياله من مفهوم محير حقاً!

وليس فقط أن الله يعتنى بكل واحد منا، بل إنه يصف نفسه عبر الكتاب المقدس كله بأنه أبونا. فنقرأ فى لوقا ١١:١٣ هذه الكلمات: «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحرى الآب الذى من

السماء يعطى الروح القدس للذين يسألونه». ويقول مزمور ١٢:١٠٢ «كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه». ومن ناحية أخرى فإنه يشبه نفسه أيضاً بالأم «كإنسان تعزيه أمه هكذا أعزيكم أنا» (إشعياء ١٢:٦٦).

وبحكم كونى أباً لابنين، هما الآن بالغين، فإننى أستطيع أن أفهم هذه التشبيهات الأبوية، وأستطيع أن أتخيل ما الذى يشعره الله من جهتنا. فإننى أنا وزوجتى شيرلى على أتم استعداد أن نضحى بحياتنا من أجل أبنينا «دانى» و «رايان» فى أى لحظة إذا لزم الأمر. ونحن نصلى من أجلهما يومياً، ولا يغيبان أبداً عن أفكارنا. وعندما يصيبهما ألم ما فإننا نكون حقاً فى منتهى الضعف أمام آلامهما. ألا نتوقع إذاً أن تكون محبة الله لأسرته الكبيرة أعظم بكثير من المحبة التى نشعر بها نحن «الأشرار» تجاه أبنائنا الذين من لحمنا ودمنا؟ هذا هو ما تعلمه لنا كلمة الله.

وقد حدثت حادثة أثناء الطفولة المبكرة لابننا «رايان» صورت لى ذلك الحب العميق الذى لنا فى قلب أبينا السماوى. فلقد أصيب ابننا «رايان» وهو فى الثالثة من عمره بالتهاب شديد فى أذنه جعل النعاس يطير من عينه (ومن عيوننا نحن أيضاً) طوال الليل. وفى الصباح حملت شيرلى الولد وأخذته إلى طبيب الأطفال. وكان هذا الطبيب متقدماً فى السن ولم يكن عنده الصبر الكافى للتعامل مع طفل كثير الحركة. وبالإضافة إلى ذلك فلم يكن له أيضاً الصبر الكافى مع الوالدين.

وبعد أن قام بفحص «رايان» قال الطبيب لشيرلى أن الالتهاب ملتصق بطبلة الأذن، ولا وسيلة لعلاجه سوى بأن ينتزع القشرة ويخلعها بواسطة ملقط دقيق. وقد أبلغنا بأن هذه العملية ستكون مؤلمة، وطلب من شيرلى أن تثبت الطفل

جيداً فوق المنضدة. وقد اضطربت شيرلى بسبب هذا التصريح، بالإضافة إلى أن الولد استطاع أيضاً أن يفهم المقصود فزاد من حركته. ومع ذلك فلقد عملت شيرلى ما بوسعها لتثبيت الولد فوق المنضدة بقدر الإمكان، ولكن بمجرد أن أدخل الطبيب الأداة اللعينة فى أذنه حتى انفلت الولد وأخذ يصرخ بأعلى صوته. فغضب الطبيب وقال لشيرلى إذا كنت لا تستطيعين أن تنفذى التعليمات فاذهبى وأحضرى زوجك. وقد كنت قريباً من المكان فدخلت بسرعة إلى غرفة الفحص، وبعد أن استمعت لجميع التعليمات المطلوبة، استجمعت قواى وجثمت بكل وزنى وحجمى الضخم فوق الطفل المسكين. لقد كانت هذه واحدة من أصعب اللحظات فى حياتى كأب.

ومما زاد من صعوبة الموقف أنه كانت توجد مرآة أفقية مثبتة فى منضدة الكشف، وكانت هذه المرآة تتيح لابنى أن ينظر إلى مباشرة وهو يصرخ ويستعيث. وإننى متأكد أننى كنت فى هذه اللحظة أكثر كرباً من طفلى المرتعب. وإذ لم أستطع أن أحتمل، أرخيت قبضتى عن الولد لثوان قليلة فانهال على الطبيب بنفس القدر من التوبيخ الذى نالته شيرلى منذ قليل. وأخيراً انتهت المهمة الصعبة بشكل أو بآخر وعدنا إلى المنزل.

وفيما بعد حاولت أن أسترجع ما كنت أشعر به عندما كان ابنى «رايان» يتألم بشدة. فالشىء الذى كان يؤلمنى حقاً هو ذلك التعبير الذى كان على وجهه. فعلى الرغم من أنه كان يصرخ ولا يستطيع أن يتكلم، إلا أنه كان يكلمنى بعينيه الزرقاء الكبيرة قائلا: «بابا! لماذا تعمل معى هكذا؟ كنت أظن أنك تحبنى. لم يخطر على بالى أبداً أنك تستطيع أن تفعل شيئاً مثل هذا! كيف أمكنك....؟ أرجوك، أرجوك، لا تؤلمنى هكذا!»

ولم تكن هناك وسيلة لكى أشرح لابنى أن ألمه كان ضرورياً لأجل صالحه، وأننى ما فعلت هذا إلا لكى أساعده، وأن المحبة وحدها هى التى تدفعنى إلى تثبيته هكذا فوق المنضدة. كيف أستطيع أن أخبره عن مشاعر الشفقة التى كنت أشعر بها من نحوه فى هذه اللحظة؟ لقد كنت أتمنى، لو أمكن، أن آخذ مكانه بكل سرور فوق المنضدة. ولكن بحسب تفكيره القاصر لم أكن فى نظره سوى خائن لأننى تخليت عنه بكل قسوة فى وقت شدته.

وفيما بعد أدركت أنه توجد أوقات يشعر الله فيها بألمنا الرهيب بل إنه أيضاً يتألم معنا.

رابعاً: إن يديك أقصر من أن تلاكم مع الله. فلا تحاول أن تفعل ذلك أبداً:

منذ عدة سنوات كان هناك عرض مسرحى فى برودواى عنوانه «إن يديك أقصر من أن تلاكم مع الله». ومع أننى لم أر المسرحية إلا أننى متفق مع المفهوم المتضمن فى هذا العنوان. فإن جهاز التفكير الإنسانى هو فى الواقع قاصر جداً وغير مؤهل بالمرة لأن يجادل مع الخالق. ولكن مؤيدى حركة «العصر الجديد» New Age لا يؤمنون بذلك. فإنهم يقولون أن كل واحد منا يمكن أن يصبح إلهاً فى نطاقه الشخصى وذلك بالتركيز فى قطعة من البللور وبأن يجلسوا القرفصاء إلى أن تخدر أصابع قدميهم. فيا له من ادعاء!

وفى عظة رائعة مسجلة للمؤلف «فرانك بيريتى»، أشار إلى الطقوس الغريبة التى يقوم بها أنصار «العصر الجديد» فى

رحلتهم نحو الإلوهية. وقد طلب منا فرانك أن نتخيل شيرلى ماكلين (والتى أصبحت مؤخراً الكاهنة العليا للساحرات) وهى جالسة على شاطىء منعزل فى مكان ما. ويقول: «اصغ باهتمام وستسمعها تتكلم مع الأرض أو القمر أو إلى شخص ما. ستجدها ترسم دوائر على الرمل بإصبع قدمها وتقول بصوت حاد «إننى إلهة! إننى إلهة!»».

كلا، نحن البشر ليس فينا أى شيء يؤهلنا لكى نصبح آلهة، ولا حتى آلهة صغيرة. ومع أننا نبذل مجهودات جبارة لكى نفهم أنفسنا، إلا أننا لم نتعلم بعد كيف نعيش فى وئام مع بعضنا، ولا كيف نتغلب على الشيء الذى يجعلنا نشعر بالضجر. إن أفضل العلماء والأطباء المتخصصين فى علم النفس لا زالوا يعتقدون أن الإنسان فى أساسه يميل للخير، وأنه يتعلم الشر فقط من المجتمع. لو كان هذا صحيحاً فلا بد أنه يوجد مجتمع واحد على الأقل فى مكان ما على وجه الأرض لم تظهر فيه بعد الأنانية والعنف وعدم الأمانة. ولكن تاريخ البشرية على مر العصور عبر آلاف السنين كان تاريخاً حافلاً بالحروب والقتل والطمع والاستغلال. وأصبح «السلام» هو تلك اللحظة القصيرة بين الحروب حين يتوقف المتحاربون عن القتال لتعبئة أسلحتهم. وقد قال أفلاطون «لا يرى نهاية الحروب سوى الموتى فقط». وقد ثبتت صحة هذه المقولة على مدار ٢٥٠٠ سنة. ويمكنك أن تلاحظ هذا أيضاً فى أولادك. فكيف يمكن أن يخفى على كل من ربى ولداً أن التمرد والأنانية والعدوانية هى صفات لا تحتاج أن يزرعها أحد، بل تظهر فى الطفل كشيء طبيعى جداً. إذاً فهذه الصفة الأساسية فى الطبيعة الإنسانية قد غابت عن أذهان المتخصصين الذين لديهم التأهيل الكافى لملاحظتها.

وبالمثل فإن معظم آرائنا ومعتقداتنا الأخرى هى أيضاً مشوبة بالأخطاء. فإن العديد من المراجع العلمية التى صدرت منذ ٧٥ سنة هى اليوم أقرب إلى كتب النوادر والفكاهات. فلقد كان الأطباء حينئذ يقومون بفصد الدم لسحب السموم من الجسم. بل إننى عندما كنت فى المدرسة الثانوية كانوا يعلمونا أن عدد الكروموسومات فى الإنسان ٤٨ كروموسوم (الآن ثبت أنها ٤٦)، وأن مرض «داون» ينتج من بعض التأثيرات الوراثية (فى حين أنه ينتج عن تشوه الجينات). وبالطبع فإننا قد استفدنا الكثير من ثورة البحث والاستكشاف العلمى، وأنا لا أقلل من قيمة هذا المجهود، ولكنى أريد فقط أن أقول أن الاعتقادات التى كانت شائعة فى عصور مضت، ثبت يقيناً أنها خاطئة.

وهذه هى النقطة التى أشرت إليها سابقاً: فإذا كان الذكاء والإدراك البشرى لا يمكن الاعتماد عليه فى الحكم على أمور الحياة اليومية، التى يمكن رؤيتها ولمسها وسماعها وتذوقها وشمها، فكم بالحرى فيما يختص بالله خالق الكون غير المحدود؟ فإن كل المجهودات التى نحاول بها تحجيمه واستيعابه لا بد أن تبوء بالفشل. ومع ذلك فإن كبرياء الإنسان المذهلة كثيراً ما تجعله يحاول أن يتحدى حكمة الله وقدرته.

يحكى عن القائد البريطانى «برنارد مونتجومرى»، والذى كانت الذات لديه متضخمة بطريقة غير عادية، أنه كان يلقى خطاباً فى أحد الأيام وأشار إلى حوار جرى بين موسى وبين الله. فقال مونتجومرى: «كما نصح الله موسى، وأعتقد أنه كان محقاً فى ذلك...». وكأن الله سوف يشعر بالفخر عندما يسمع أن مونتجومرى موافق على النصيحة التى قدمها

لموسى. وتوجد أمثلة أخرى كثيرة على كبرياء الإنسان وإن كانت ليست مضحكة بنفس الدرجة، مثل الفكرة القائلة بأن الخليقة ظهرت من تلقاء نفسها بمرور الزمن، بدون حاجة الى تصميم ولا الى مصمم. فلا بد أن الله يتعجب من غباء مثل هذه الفكرة. ولست أعرف ما الذى يمكن أن يشعر به الله تجاه هيئة القضاء الأعلى فى الولايات المتحدة التى حكمت بأن الوصايا العشرة لا يصح وضعها على لوحة فى المدارس العامة.

وقد حاول أيوب أن يستجوب الله فأتته الإجابة التاريخية التى لا تنسى. ولنلاحظ بصفة خاصة العبارة الأولى التى تفوه بها الرب:

"من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة؟ اشدد الآن حقويك كرجل. فإنى أسألك فتعلمنى. أين كنت حين أسست الأرض؟ أخبر إن كان عندك فهم. من وضع قياسها؟ لأنك تعلم! أو من مد عليها مطماراً؟ على أى شىء قرت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها - عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله؟" (أيوب ٣٨: ٢ - ٧).

واستمر الله فى الكلام الى أن عاد أيوب إلى صوابه، عندئذ أضاف الرب قائلا: «هل يخاصم القدير موبخه؟ أم المحاج الله يجاوبه؟» (أيوب ٤٠: ٢). وفهم أيوب مغزى السؤال. فأجاب قائلا: «ها أنا حقير فماذا أجاوبك؟ وضعت يدى على فمى. مرة تكلمت فلا أجيب، مرتين فلا أزيد» (أيوب ٤٠: ٤-٥).

لقد صادفت فى حياتى مرات قلائل فيها وقعت فى نفس خطأ أيوب، إذ طلبت من الله أن يعطينى إجابة. وإحدى هذه المرات لا زالت مصدراً للإزعاج بالنسبة لى حتى هذا اليوم. فلقد كان هناك شيء أريد من الله أن يحققه لى، وكنت أعتقد أننى فى أشد الاحتياج إليه. وكان هذا الأمر يبدو متفقاً مع كلمة الله، فصممت على الحصول على إجابة لصلاتى. وكنت أصلى يومياً طوال عدة أسابيع متوسلا إلى الله أن يمنحنى هذه الطلبة التى كانت تبدو لى أساسية للغاية. وقد كنت ساقطاً على وجهى فعلا أمام الرب طوال فترة التضرع هذه. ومع ذلك، فلقد كانت إجابته الواضحة «لا»! ولم يشأ أن يقدم لى أى تفسير أو اعتذار عن هذه الإجابة، بل بكل بساطة أغلق الباب. وفى البداية شعرت بالألم، وبعدها شعرت بالغضب. كنت أود أن أقول للرب: «هل يكلفك شيئاً لو أنك خصصت لحظات قليلة من برنامجك المزدحم لكى تستمع إلى صراخ عبدك؟» وبالطبع فإننى لم أنطق بهذه الكلمات ولكن هذا هو ما كنت أشعر به. كنت فى الواقع أشعر بأننى متروك.

ومرت سنتان على هذه الحادثة فيها تغيرت ظروفى تغييراً جوهرياً. وبدأ الأمر الذى صليت لأجله يأخذ صورة مختلفة تماماً. وتأكدت أخيراً أنه لو كان الله قد منحنى طلبتى فى ذلك الحين لكنت قد أصبحت إنساناً تعيساً جداً. فلقد كان يحبنى إلى الحد أنه قد أحبط خططى فى الوقت الذى كنت فيه أسعى وراء طرقى الشخصية.

وآخرون عاشوا وندموا على الأشياء التى طلبوها لأنفسهم. لقد صادفت فتاة مراهقة وقعت بجنون فى حب فتى مراهق وكانت تتوسل إلى الله لكى يحول عواطفه نحوها. ولكن الله تجاهل هذه الطلبة. وبعد خمسة وثلاثين سنة عندما التقى

طريقهما مرة أخرى كانت صدمة هائلة بالنسبة لها أن ترى كيف أن كل الصفات الرائعة التى عهدتها فيه من قبل قد تبدلت تماماً إلى العكس. فتذكرت الصلاة الطائشة التى قدمتها إلى الله فى صباها، وهمست بصوت منخفض قائلة: «يارب إنى أشكرك».

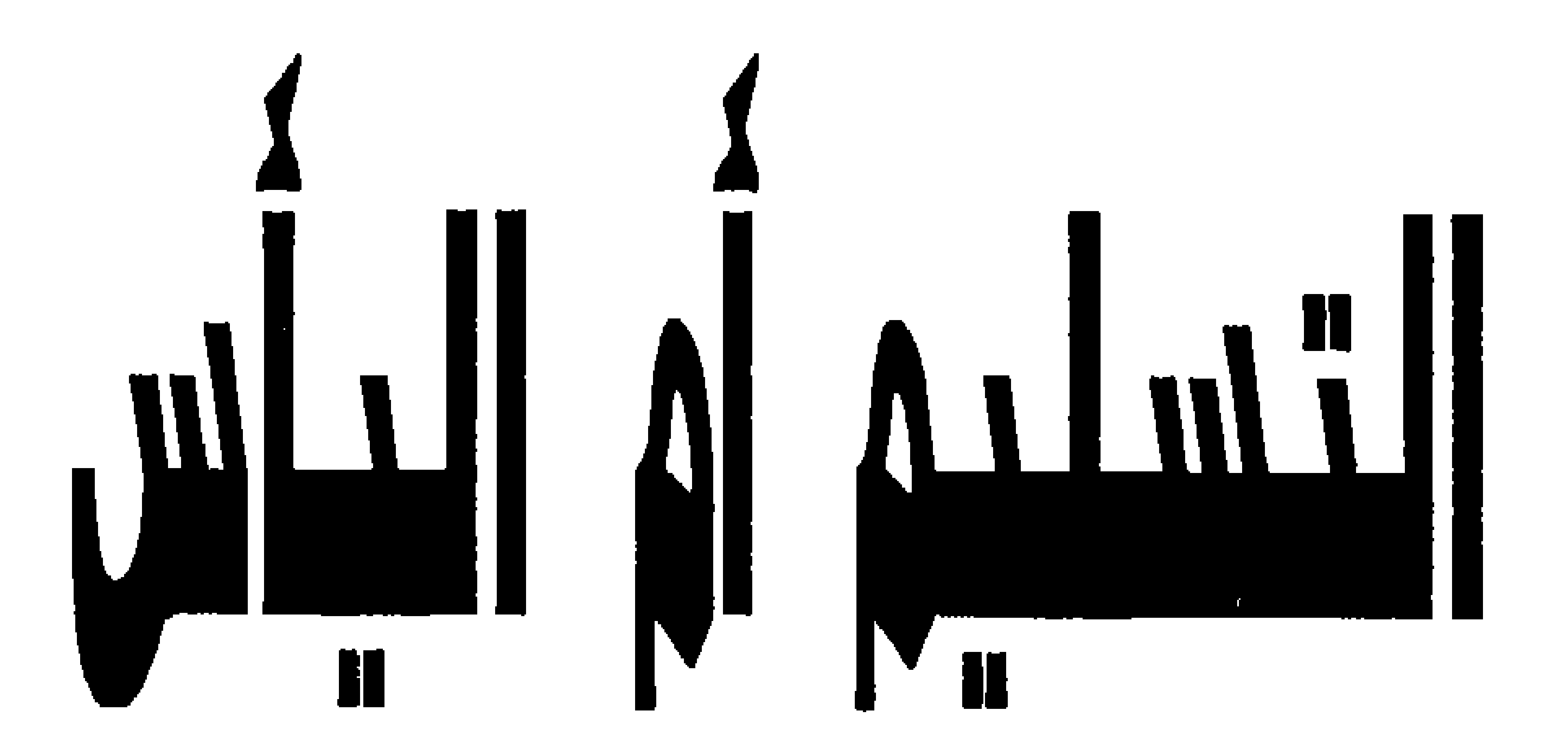
وبالطبع فإن الإحباطات الروحية التى تصادفنا لا تنتهى دائماً بأن نفهم من جانبنا ما الذى كان يقصده الله من ورائها، فنتعجب قائلين «آه يارب، الآن عرفت ما الذى كنت تفعله!». كلا فإن الكثير منها نحتاج أن نضعه فى ملف بعنوان «أمور غير مفهومة» ونتركه هناك. وفى هذه الحالات يجب أن نكون شاكرين الله لأنه عمل الأصلح لنا بغض النظر عما إذا كان هذا يتفق أو يتعارض مع رغباتنا. فإن أى أب حكيم لابد وأن يقول أحياناً «لا» لأبنائه.

ما قصدت أن أوضحه فى هذه المناقشة هو أن نظرتنا لله محدودة جداً، وأننا نحن البشر المائتين لا نستطيع ولا فى الخيال أن نرسم صورة سليمة عن قدرته وحكمته. فإنه فى الواقع يفوق خيالنا. لذلك فإننا لا نستطيع أن نستهين بذاك الذى قد كتب عنه:

"مبارك أنت أيها الرب إله إسرائيل أبينا من الأزل وإلى الأبد. لك يارب العظمة والجبروت والجلال والبهاء والمجد لأن لك كل ما فى السماء والأرض، لك يارب الملك وقد ارتفعت رأساً على الجميع، والغنى والكرامة من لدنك وأنت تتسلط على الجميع وبيدك القوة والجبروت وبيدك تعظيم وتشديد الجميع. والآن ياإلهنا نحمدك ونسبح اسمك الجليل" (أخبار الأيام ٢٩: ١٠-١٣).

فإذا فهمنا حقاً جلال ذلك الإله وعمق محبته من نحونا، فلا بد أننا سنتقبل برضى تلك المرات التى فيها يخذل منطقنا وذكاءنا البشرى. وفى الواقع، يجب علينا أن نتوقع حدوث بعض الاختبارات المحيرة أثناء مسيرتنا. فلنرحب بهذه الاختبارات على اعتبار أنها فرص من خلالها ينمو إيماننا. ولا تدع نفسك أبداً تقع فى «حاجز الخيانة» فإنه أكفأ أداة يستخدمها الشيطان ضدنا. وبدلا من ذلك تمسك بإيمانك بشدة ولا ترخه تحت أى ظرف من الظروف، لأنه بدونه لا يمكن إرضاء الله، ثم أسرع نحو الغرض. فهذا هو الأسلوب الحكيم الوحيد، أما جميع الأساليب الأخرى فهى مجازفات حمقاء، لأن ذراعيك أقصر من أن تلاكم مع الله.

الفصـــل الرابـع



ربما أوضح مثال فى هذا الموضوع هو ما حدث فى حياة أبينا إبراهيم، منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة. وسنركز اهتمامنا على قضية عقم زوجته سارة. ظلت سارة عقيمة طوال فترة شبابها، وقد أدى هذا بالطبع إلى كثير من الحزن والضيق. ولكن عندما بلغ إبراهيم الخامسة والسبعين من عمره، بدأ يتلقى وعوداً من الله بأنه سيكون أباً لأمة كبيرة، وأن فيه ستتبارك جميع قبائل الأرض (تكوين ١٢:٢-٣). كانت هذه الأخبار أكثر من رائعة بالنسبة لرجل ليس له وريث وامرأته تتوق إلى الأمومة.

ولكن بعد تلقى هذا الوعد، انقضت فترة طويلة من الصمت الكامل بخصوص هذا الموضوع. وأخيراً، التقى الرب مع إبراهيم مرة أخرى، وقال له: «جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضاً يعد» (تكوين ١٣:١٥-١٦).

كانت هذه كلمات غريبة على أذنى رجل ظلت امرأته ٤٠ سنة تتمنى أن يكون لها ولد. ومع ذلك فلقد صدق إبراهيم الوعد وانتظر تحقيقه بكل صبر. ولم يأت الولد. ومضت سنوات أخرى قبل أن يؤكد الرب الأمر لعبده للمرة الثالثة. وفى هذه المناسبة أظهر إبراهيم حيرته المتزايدة

بخصوص هذا الأمر فقال: «أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيماً؟» (تكوين ١٥:٢).

لقد كان سؤالا مقبولا من رجل متقدم فى السن مثل إبراهيم. وكانت إجابة الله له هى أنه أخذه فى الخلاء وقال له: «انظر إلى السماء وعد النجوم ان استطعت أن تعدها. وقال له: هكذا يكون نسلك» (تكوين ١٥:٥).

وبعد هذه الوعود المباركة استمرت سارة فى عقمها، ثم حلت فترة جديدة من الصمت. ويمكننا عند هذه النقطة أن نقول أن المشكلة التى كان إبراهيم يواجهها هى حالة نموذجية «للتناقض فى الأمور الإلهية». فالرب لم يتمم وعده ولم يفسر سبب تأخيره. الوقائع ليست متكاملة، والصورة تبدو متضاربة. سارة متقدمة فى السن وقد انتهى منذ زمن بعيد أملها فى الأمومة. ومع ذلك يخبرنا الكتاب أن إبراهيم «آمن بالرب فحسبه له براً» (تكوين ١٥:٦).

وبعد ذلك تأتى واحدة من أجمل وأشهر القصص فى الكتاب المقدس. فلقد حبلت سارة بالفعل وهى فى التسعين من عمرها وكان ابراهيم ابن مائة عام. وسرعان ما أصبح لهما ابن وسمياه اسحق (معناه «ضحك»). يالها من لحظة مفرحة لكليهما. لقد صنع الله معجزة رائعة كما وعد تماماً، وأصبح لإبراهيم وريث. ولكن لم تنته القصة عند هذا الحد.

فبعد سنوات قليلة عندما أصبح اسحق شاباً، حدثت واحدة من أعجب الحوادث فى الكتاب المقدس. لقد طلب الله من إبراهيم أن يقدم له الابن الذى طال انتظاره! يالها من رسالة محيرة ومؤلمة! كيف يمكن لذلك الشيخ أن يفهم هذه المعاملات التى يعملها الله؟ ألم يكن اسحق هذا هو المفتاح

لجميع وعود الله العجيبة؟ فلو مات اسحق من أين سيأتى النسل الكثير، والملوك الكثيرين (ومن بينهم المسيح)، والأمة العظيمة التى بها تتبارك جميع قبائل الأرض، والامتلاك لأرض الموعد، والعهد الدائم مع الله؟ إن هذه النبوات جميعها مرتبطة ارتباطاً مباشراً باسحق، الذى كان ينبغى أن يموت.

ولكن هكذا فقط كانت تبدو الأمور بحسب الحواس البشرية. **ففي الحقيقة، لم تكن الوعود المعطاة لإبراهيم تعتمد على اسحق بالمرة، ولكنها كانت تعتمد بالكامل على الله.** فإن الله لا يمكن أن تحده الحدود البشرية، بل إن كل شىء خاضع لسلطانه الكامل. كان هناك مخطط إلهى سابق يتم تنفيذه من أجل البشرية كلها. فإن الولادة المعجزية لإسحق كانت ترمز لولادة المسيح. والأمر بتقديم اسحق على المذبح يشير إلى «الخروف الذى ذبح» (رؤيا ١٣: ٨). وحمل اسحق للحطب الذى سيستخدم لإيقاد النار التى ستلتهم جسده، كان يخبر عن الحادثة التى حدثت بعد ٢٠٠٠ سنة من هذا التاريخ عندما حمل يسوع صليبه بنفسه متجهاً إلى الجلجثة. وارتضاء اسحق بأن يحتمل الموت كان رمزاً لخضوع المسيح لأبيه وعدم مقاومته لقاتليه. بل إن بعض اللاهوتيين يعتقدون أن ذبيحة اسحق كانت لا بد أن تتم فى نفس مكان صلب المسيح. وهكذا فإن كل جزئية فى القصة كان لها قيمة نبوية. وبالطبع فإن إبراهيم لم يفهم شيئاً من هذه الخطة. وعلى الرغم من حيرته وكربه الشديد، إلا أن ذلك الرجل التقى كان على أتم استعداد أن يقدم ابنه ذبيحة لولا تدخل الملاك فى اللحظة الأخيرة.

وفى جزء من أجمل الأجزاء فى الكتاب المقدس، نجد ملخصاً لهذا الاختبار ولكن بمنظور العهد الجديد. يقول

الرسول بولس عن إبراهيم بعد ٢٠٠٠ سنة تقريباً من هذه الحادثة:

"وإذ لم يكن ضعيفاً فى الإيمان لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتاً إذ كان ابن نحو مئة سنة ولا مماتية مستودع سارة، ولا بعدم إيمان ارتاب فى وعد الله بل تقوى بالإيمان معطياً مجداً لله. وتيقن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضاً. لذلك أيضاً حسب له براً" (رومية ٤: ١٩-٢٢).

وبمعنى آخر، فإن إبراهيم قد صدق الله حتى عندما كانت معاملاته غير مفهومة. كانت الحقائق تقول بوضوح أنه من المستحيل أن يتحقق هذا الأمر. كان الرب يعطى وعوداً مجردة لمدة تقرب من ٢٥ سنة، ولم تبدر أى بادرة لتحقيقها. كانت الأسئلة الحائرة والتناقضات المؤلمة تتراقص أمامه فى الهواء. ومع كل هذا لم يقع ابراهيم فى الارتياب بعدم إيمان. لماذا؟ لأنه كان متيقناً أن الله يستطيع أن يتخطى المنطق والواقع. ولهذا السبب فلقد سمى «أبو المؤمنين».

هذا فيما يختص بإبراهيم وزوجته سارة. ولكن ماذا عنى وعنك فى وقتنا الحاضر؟ هل يوجد درس للبشرية يمكن استخلاصه من هذه الحادثة التاريخية؟ بالطبع، يوجد! فلابد أن تأتى لحظة فى حياتك فيها تجد أن الأحداث تقود لليأس. وربما قد أتت هذه اللحظة بالفعل. فى هذه الأوقات لن تجد للأمور أى تفسير منطقى، وسيبدو وكأن الله يناقض نفسه. وتفاصيل هذا الاختبار تختلف من شخص إلى آخر، ولكن لا بد من حدوث الأزمة بصورة أو بأخرى. فالإيمان لا بد أن يمتحن. والسؤال هنا هو: كيف سنتعامل مع هذا الموقف عند

حدوثه؟ هل سنضعف ونهرب؟ هل سنرتاب فى عدم إيمان؟ هل «سنلعن الله ونموت» كما أشارت زوجة أيوب عليه؟ أتمنى ألا يحدث أى شىء من هذا! وإذا كنا مستعدين من الآن لمواجهة هذا الاختبار، فأعتقد أننا سنقدر أن نحصن أنفسنا ضد هجمات العدو فى تلك الساعة.

لقد نال صديقى «روبرت فرنون» منذ وقت قصير نصيبه من هذا الاختبار الحتمى. وبوب هذا هو الرئيس المساعد السابق لقسم شرطة لوس أنجلوس، وقد خدم فى هذه الوظيفة بكل أمانة لمدة ٢٧ سنة. ومع ذلك فلقد تعرض قرب انتهاء مدة خدمته لشتى أنواع الافتراءات والضغوط لكى يستقيل بسبب معتقداته المسيحية المحافظة. وبعد عدة محاولات فاشلة من جانب وسائل الإعلام للوشاية به فى قسم الشرطة، بدأ مقاوموه يفتشون فى حياته الخاصة لعلهم يجدون شيئاً يضايقونه به. وسرعان ما وجدوا ضالتهم المنشودة. فلقد حصل أحدهم على شريط تسجيلى لعظة ألقاها بوب فى كنيسته منذ ١٤ سنة. واستناداً على بعض تعليقاته على الحياة الأسرية، بعد تحويرها حسب رغبتهم، أباحوا لأنفسهم حق التحرى عن عمله فى قسم الشرطة. وقد كان ذلك انتهاكاً صريحاً لحقوقه المهنية. لأنه بأى حق يمكن أن يحاكم شخص لتعبيره عن آرائه الدينية داخل كنيسته؟ ولا زالت هذه المسألة مطروحة حتى الآن أمام القضاء، وإن كان من الواضح أن نظرة القضاء هى أيضاً متحيزة إلى حد كبير.

لم تكن هناك أى تهمة على الإطلاق ضد «فرنون» مختصة بالتقصير أو الإهمال فى عمله. ومع ذلك فلقد تم عمل تحريات موسعة للبحث فيما إذا كانت أراؤه الدينية تؤثر على عمله. وقد تم إخلاء سبيله فى النهاية، ولكن مكانته كانت قد

تزعزعت إلى حد كبير بسبب هذه القضية حتى أنه شعر بضرورة الاستقالة. وإنى أعرف «فرنون» شخصياً ويمكننى أن أقول بكل تأكيد أنه قد طرد من وظيفته بعد ٢٧ سنة من الخدمة الأمينة والمخلصة، لا لسبب إلا لإيمانه.

وتتيح لنا تجربة «فرنون» الفرصة لدراسة حالة نموذجية من حالات «امتحان الإيمان». ففى هذه القصة تتوافر جميع العناصر الأساسية لهذه الحالة: أولا، موقف يدعو إلى الضيق الشديد، ثانياً، وجود عنصر الظلم (لماذا أنا؟)، ثالثاً: إله صامت كان يمكن أن يتدخل ولكنه لم يفعل، ثم ملايين الأسئلة الحائرة الأخرى التى بلا إجابة. فهل سبق أن اختبرت موقفاً مشابهاً؟

وقد أتيح لبوب منذ وقت قصير أن يتكلم فى الكنيسة مخاطباً فريق العاملين فى Focus on the Family. فاختار أن يتكلم عن مشكلته الشخصية. وأعتقد أنك ستجد فائدة كبيرة فى كلامه، خاصة إذا كنت تجتاز الآن فى اختبار شخصى مشابه. وهذا ما قاله لواء الشرطة المتقاعد لفريقنا:

عندما صار واضحاً أن رئيس الشرطة "داريل جيتس" على وشك أن يستقيل من منصبه، ظهرت مقالة فى مجلة لوس أنجلوس، تقول: "الذين يتعجلون استقالة داريل جيتس يجب أن يعرفوا من هو الشخص الذى سيأخذ مكانه. إنه روبرت فرنون، ذلك الشخص الذى يتبنى معتقدات دينية غريبة". ثم ذكروا ثلاثة أشياء منقولة عن عظة كنت قد ألقيتها منذ ١٤ سنة. وإنى لا زلت متمسكاً بما قلته، ولست أقدم اعتذاراً عنه. فهى مفاهيم مستقاة من كلمة الله. ولكن المجلة حورت تعليقاتى الأصلية وقالت: "أولا، إنه

يؤمن بأن الشذوذ الجنسي خطية". وهذا صحيح. "وثانياً، إنه يؤمن بأن النساء يجب أن يخضعن للرجال". وهذا ليس صحيحاً. فإني كنت قد أشرت إلى ما يقوله الكتاب عن الخضوع المتبادل في العلاقة بين الزوجين. ثالثاً، قامت المجلة بتحوير ما قلته عن تأديب الأولاد. فقد كنت أتكلم عن حالة أب لم يحفظ وعده تجاه ابنه فأغاظه. وأمام عناد الولد وتمرده قال الأب: "إذا كان بين يديك شخص عنيد، فيجب أن تكسره، ولكي تكسره يجب أن تضربه". كنت أنقل كلام الأب، وليس رأيي الشخصي. ثم قلت: "من الذي أخطأ في هذه الحالة؟ بالطبع الأب وليس الابن".

ومع ذلك فقد نسبت لي المجلة كلام الأب وقالت إن هذا هو رأي "فرنون" في تربية الأولاد. لقد سجلوا الشريط بطريقة معينة بحيث يظهر فقط صوتي موصياً بأن نضرب الأولاد إلى أن ينكسروا. ثم أعطوا هذه النسخة إلى وسائل الإعلام التي تداولتها في كل مكان. لقد كانت حقاً حيلة بارعة.

ونتيجة لذلك وصلت سمعتي إلى التراب. وكنت مضطراً بعد ذلك أن أستقيل من عملي في قسم الشرطة في لوس أنجلوس، ولم أستطع أن أحصل على عمل في أي قسم شرطة آخر. وقد قدمت مؤخراً طلباً للعمل في شمال دنفر ولكنهم رفضوا مقابلتي من الأصل. وكما ترون فلقد أصبحت في نظرهم متطرفاً دينياً أؤمن بالخرافات. لقد فهمت الآن ما الذي كان يقصده سليمان حين قال: "الصيت أفضل من الغنى العظيم، والنعمة الصالحة أفضل من الفضة والذهب" (أمثال ٢٢: ١).

والأكثر من ذلك فإن بعض أصدقائى المؤمنين سمعوا التسجيل فى الإذاعة فقالوا لى: "نعم يابوب، نحن نعرف أنك أنكرت ذلك، ولكننا سمعناك حقاً تقول أنه ينبغى أن نضرب الأولاد حتى ينكسروا". وقد حاولت أن أشرح لهم الأمر، ولكنهم فى بعض الأحيان كانوا يرفضون أن يفهموا. وأريد أن أعترف لكم بشىء، فإنى لم أشعر فقط بالاكتئاب بسبب هذا الموقف، بل كنت أيضاً غاضباً من الله. وفى ذلك كنت مخطئاً.

وأثناء هذه الفترة عشت تجربة ساعدتنى على فهم بعض الأشياء. فلقد قررت أنا وابنى أن نقطع مسار نهر كولورادو فى طوف خشبى. وقد كانت رحلة مثيرة حقاً. أقلعنا مع ١٨ من الأصدقاء من مكان يدعى "ليز فيرى". وبينما نحن نركب مركبتنا استعداداً لرحلة تستغرق ٨ أيام، قال واحد من بيننا "الآن نحن متعاهدون". وقد كنا كذلك فعلاً. ومع حلول اليوم الثالث كان بعضنا قد بدأ يضجر، ولكن لم يكن هناك مفر، فعلى الجانبين مرتفعات وليس أمامنا سوى القارب أو قاع النهر! فكان لابد من أن نستمر. هذه هى الطريقة التى بها يتعامل الله معنا عندما نمر بأزمنة صعبة. فلا تحاول أن تفكر فى وسيلة للخروج من الضيقة، بل استمر ملتزماً بتعهدك وستخرج من الأزمة فى الوقت المناسب.

وقد صادفتنا بعض الدوامات العنيفة والأماكن الخطيرة فى مسار النهر. على سبيل المثال عند شلالات "لافا" هبطنا بارتفاع ٣٧ قدماً فى مسافة قدرها ٧٥ قدم. وعندما كنا نقترب من مثل هذه الأماكن كان قائد الطوف، واسمه "روبين"، يقول لنا: "الآن سنغوص غوصة جميلة"، وهو يعنى أننا الآن

سوف نموت! وأخيراً وصلنا إلى شلالات "كرميت" والتي كانت تعتبر أصعب نقطة في مسار النهر. وفجأة، في لحظة دخولنا إلى المنطقة المنحدرة، بدا كما لو كان "روبين" قد فقد التحكم في القارب تماماً. فلقد انحرف القارب جانباً بشكل مرعب، حتى أني فكرت للحظة أن أقفز من فوقه. كنت مقتنعاً حقاً أننا سنموت. ثم سمعت المحرك يزأر بقوة في مؤخرة القارب، فأيقنت أن روبين قد انحرف جانباً لقصد معين. ورأيت صخرة ضخمة مسننة قد سقطت من الجنبات الشاهقة إلى وسط النهر، وقد أراد روبين أن يتفاداها. ففعل ذلك بكل قوة بحيث يدور القارب حول الصخرة القاتلة. فلو كنت قد قفزت من القارب لكنت من المؤكد قد غرقت أو تحطمت فوق الصخرة المسننة.

وأقول للذين من بينكم يهبطون اليوم فوق الشلالات، لا تحاولوا أن تقفزوا من القارب! إن الله يعرف تماماً ما الذى يفعله. وهو لقصد معين يجعل قاربكم ينحرف بعنف. حتى وإن كانت سمعتك قد هدمت، وإن كان الاكتئاب قد أصابك، وإن كنت لا تعرف ما الذى ينبغي أن تفعله، فاصغ باهتمام وسوف تسمع صوت ذلك الشخص الذى قال لداود مراراً وتكراراً "سلم للرب طريقك واتكل عليه".

فمن تجربتي الشخصية في رحلة النهر، ومن قراءتي لمزمور ٣٧، تعلمت ألا أضجر. وقد اعترفت له بخطية الغضب، وقلت له: "أنت يارب تعرف ما الذى تفعله، حتى وإن كان القارب يبدو منفلت الزمام، إلا أنى سأثق فيك، وسأبتهج بك. لقد سلمت طريقي لك. والآن يمكنني أن أستريح في جميع

ظروفى". ولكن بعد ذلك كان على أن أتعلم أصعب الدروس على الإطلاق. فبينما كنت أقرأ مع زوجتى باقى المزامير، لفتت أنظارنا كلمة تتكرر كثيراً، وهى كلمة "انتظر".

"كلا يارب، لا أريد أن أنتظر. أريد خلاصاً اليوم. أرجوك أن تنتقم من الذين أساءوا إلى". ولكنه قال: "كفوا واعلموا إنى أنا الله" (مزمور ٤٦: ١٠). ثم قادنى إلى الأعداد الأربعة الأخيرة من مزمور ٣٧، حيث يقول:

"لاحظ الكامل وانظر المستقيم فإن العقب لإنسان السلامة. أما الأشرار فيبادون جميعاً. عقب الأشرار ينقطع. أما خلاص الصديقين فمن قبل الرب حصنهم فى زمان الضيق، ويعينهم الرب وينجيهم، ينقذهم من الأشرار ويخلصهم لأنهم احتموا به" (مزمور ٣٧: ٣٧ - ٤٠).

هذه الكلمات من القائد فرنون تعكس قدراً كبيراً من النضوج والإيمان فيما يختص بالظلم والألم الواقع عليه هو وزوجته «إستر». وقد ذكرت قصته هنا لأن مؤمنين كثيرين يجتازون فى ظروف مشابهة. فهل أنت واحد منهم؟ هل انزلق قاربك اليوم منجرفاً بشكل مرعب؟ هل انحدر بسرعة مع الشلالات متجهاً نحو الصخور المخيفة فى وسط النهر؟ هل فكرت أن تقفز من القارب محاولا النجاة بمفردك؟ هذا هو بالضبط الشىء الذى يريدك الشيطان أن تفعله. إنه يريدك أن تترك الله، الذى يبدو وكأنه قد فقد زمام أمورك. ولكنى أنصحك بألا تبتعد عن حمايته. فإن القبطان يعرف عمله جيداً. هناك مقاصد لا يمكنك أن تدركها أو تفهمها. قد لا تفهمها

أبداً، على الأقل فى هذه الحياة، ولكنك لا ينبغى أن تطرح إيمانك، لأنه قبل كل شىء «هو الإيقان بأمور لا ترى» (عبرانيين ١١:١).

وقبل أن نترك هذا الموضوع أريد أن أذكر مثالا آخر «لامتحان الإيمان» وهو جدير بالتأمل. لقد حدث هذا الاختبار مع أسرة «الدكتور جيم كونواى» وزوجته «سالى»، وهو اختبار يمثل اختبار الملايين غيرهم فى كل أنحاء العالم. وفى الوقت الذى كان فيه القائد فرنون يعانى من الظلم والمضايقات فى مجال العمل، فإن أسرة «كونواى» كانت تجتاز فى امتحان أصعب. كانت المشكلة مختصة بمرض يعرض حياة ابنتهم للخطر. ولندع «الدكتور كونواى» يحكى لنا القصة بنفسه، كما سمعناها منه فى إذاعة Focus on the Family:

"عندما بلغت ابنتنا "بيكى" الخامسة عشرة من عمرها، بدأت تشكو من بعض المتاعب فى إحدى ركبتيها. وعلى مدار سنة ونصف منذ ذلك التاريخ خضعت لمختلف الفحوصات الطبية والاختبارات المعملية والأشعات المقطعية، بالإضافة إلى عمليتين جراحيتين لأخذ عينة من الورم الذى اكتشفه الأطباء. وانتظرنا عدة أسابيع قبل أن تأتى تقارير المعامل الباثولوجية من جميع أنحاء الولايات المتحدة حيث كانوا يدرسون طبيعة هذا الورم الغريب. وأخيراً، فى إحدى الأمسيات حضر الطبيب المعالج إلى منزلنا ونقل لنا خبراً مؤلماً للغاية. قال إن "بيكى" مصابة بمرض خبيث وأنه لا بد من بتر الساق. ولكم أن تتخيلوا كيف وقع ذلك الخبر وقوع الصاعقة على أنا وسالى، حتى أننى رفضت أن أصدق ذلك، وقررت أن أمنع هذه العملية بأن أصلى إلى الله حتى أحصل منه على وعد بالشفاء.

وقلت لابنتى: "لا يا بيكى، لن تبتر ساقك. فإنى أثق أن الله سوف يجرى معجزة. لقد قال لنا أن نأتى إليه فى وقت الضيق. وإنى متأكد تماماً أنه سينقذك من هذه العملية".

وخصصت كنيستنا يوماً كاملا للصوم والصلاة من أجل هذا الأمر. وكان آلاف الأشخاص فى جميع أنحاء الولايات المتحدة يصلون من أجل شفاء "بيكى".

وفى صباح يوم العملية، قلت للطبيب الجراح: "دكتور سكوت، قبل أن تبدأ العملية أرجوك أن تتأكد هل الورم لا يزال موجوداً. فإنى متأكد أن الله سوف يتدخل فى الأمر".

ودخل الطبيب إلى غرفة العمليات ولم يرجع فى الحال كما تخيلت. ومضت خمسة وأربعون دقيقة، ولا زلت أنا وزوجتى وابنتاى الأخرتين ننتظر فى غرفة الانتظار. ومضت ساعة، ثم ساعتين. وبدأت أتيقن أن هناك عملا مطولا يتم فى الداخل. ثم خرج الطبيب وأخبرنا أنه قد تم بتر ساق "بيكى". وانهرت تماماً. وفقدت الله! وفى شدة غضبى كنت أضرب على جدران المستشفى قائلا: "أين أنت يا الله؟ أين أنت؟"

وأصبت بحالة من الذهول واتجهت دون أن أدرى إلى المشرحة فى الطابق السفلى من المستشفى. فقد كنت أشعر أن هذا هو مكانى، بين الأموات. لقد كنت أصارع مع مشكلة أكبر من مشكلة بتر ساق ابنتى، وهو أنى كنت أريد أن أفهم ما هو المغزى الروحى لهذه الحادثة. لم يكن فى استطاعتى أن أفهم لماذا سمح الله بذلك. فلو كنت أعمل سباكاً

وليس راعياً لكنيسة، لكنت قد ذهبت فى اليوم التالى إلى عملى بدون أن يؤثر ارتباكى الروحى على تثبيت المواسير. ولكن عملى كان يتطلب منى أن أقف أمام الناس وأعلمهم مبادىء الإنجيل. فماذا سأقول لهم الآن؟

ولو كنت واحداً من القسوس الليبراليين الذين لا يؤمنون بصدق حرفية الكتاب المقدس، لأمكننى أن أطالع بعض المراجع وبعد ذلك أقدم للرعية كلاماً ليس له معنى. ولكنى كنت راعياً لكنيسة تؤمن بالكتاب المقدس. وأسلوبى فى التعليم كان يتمثل فى سرد الكلمة، ومراجعتها آية آية، ثم استخلاص المعانى منها. فكيف سيمكننى أن أعود إلى كنيستى لأخبرهم بأن الله قد جعل ابنتى تفقد ساقها؟ لقد كانت هذه لحظة رهيبة فى حياتى.

وفيما أنا جالس فى ذلك اليوم خارج المشرحة، وجدنى أحد الأصدقاء وأسرع إلى نجدتى. لقد كان مرسلا من الله لى! إنه "ديك فوث" وهو راعى لإحدى الكنائس، وقد وقف بجانبى، وبكى معى، وصلى لأجلى. قال لى: "إنى لست منزعجاً من أجل بيكى، ولكن من أجلك أنت. يوجد ألفان شخص فى كنيستك، وعدة آلاف آخرين من أماكن أخرى يصلون لأجلك. لابد أن تجتاز هذه المحنة". واستمر هو واثنان آخران يتناوبون الاهتمام بى. لم يتركونى لحظة واحدة منفرداً، بل كانوا يدعونى أتكلم وأعبر عن إحباطى وغضبى.

لم يوجهوا لى أى نوع من الإدانة على الرغم من غضبى تجاه الله. فى لحظة من اللحظات قلت: "أعتقد أن الله كان مشغولا بإيجاد مكان انتظار

لسيارة إحدى الأخوات حتى أنه لم يجد الوقت لإنقاذ ساق ابنتى!". وكان "ديك" يستمع لى ثم يقول: "هل يوجد شىء آخر تريد أن تقوله؟" كنت مطمئناً من جهة هؤلاء الرفقاء، فلم أكن خائفاً من أن يلقوا باللوم على، ولا من أن يفقدوا الثقة بالله إذا قلت شيئاً معثراً. لم يكن هناك ما يستدعى أن أضبط نفسى أمامهم قائلا: "يجب أن أحافظ على مظهرى كرجل دين، يجب أن أبدو منضبطاً". لقد أتاحوا لى أن أتعامل مع الألم بطريقة طبيعية.

إن مؤمنين كثيرين لا يعرفون ما الذى ينبغى أن يفعلوه عندما يجدون شخصاً فى مثل هذا الكرب الرهيب. بعضهم يقول: "سوف أصلى من أجلك"، وهذا معناه "إنى لست مستعداً أن أستمع إليك"، وهى طريقة مهذبة بها يعتذر الشخص عن حمل أثقال الآخر على كتفه. وفى الواقع فإنه فيما يختص بحمل بعضنا أثقال بعض، فإن الناس العلمانيين يفعلون ذلك بصورة أفضل منا. فإنهم يعرفون أهمية التعبير عن المرارة والسخط، بينما نحن المؤمنون نعتقد أننا يجب أن نحتفظ بها فى داخلنا. يخبرنا داود فى مزموره أن "أولئك صرخوا والرب سمع ومن كل شدائدهم أنقذهم" (مزمور ٣٤: ١٧).

وفى المرحلة اللاحقة كان أشد ما يضايقنى هو التفسيرات الضحلة والتعليقات التافهة التى كان الناس يحاولون بها "أن يعزونى". فلقد كانوا يؤلموننى حقاً عندما يقتبسون لى من رومية ٨: ٢٨ "كل الأشياء تعمل معاً للخير" وكأنهم قد أباحوا لنفسهم الحق فى أن يجددوا ألمى. كنت أود أن أقول لهم: "هيا، يمكنك أن تقول لى ذلك بعد أن تبتر ساق ابنتك. اذهب الآن

وعندما تجتاز فى شىء مثل هذا يمكنك أن تعود لتتكلم معى". وللأسف فإننا فى المسيحية قد اعتدنا على كلمات التعزية حتى أنها فقدت معناها وقيمتها. بل إن بعض الأشخاص فى تلك الأيام كانوا يقولون لى: "هسس! لا تتكلم هكذا. فماذا لو سمعك الله؟"

وكأن الله لم يكن يعرف ما الذى أفكر فيه أو ما الذى أعانى منه! كلا إن الله يعرف محنتى، ويفهم مشاعرى! لقد نشأت محبتى لابنتى عنده هو أساساً، إذاً من أكون أنا لكى أحاول أن أخدعه وأخفى عنه ألمى النفسى؟

أتذكر شخصاً قابلنى فى أحد المطاعم بعد أيام قليلة من عملية ابنتى. كان يجلس إلى المائدة، وعندما رآنى أمسك بمعطفى وقال لى: "جيم، أعتقد أن الله قد سمح بذلك لكى يعمل نهضة فى كنيستنا!".

فقلت له: "وما الذى سيعمله إذاً لكى يعمل نهضة أخرى عندما تنتهى هذه؟ هل سيقطع ساقها الأخرى؟ ثم ذراعها وذراعها الأخرى؟ لو كان هذا المقصود فلست أظن أن "بيكى" لديها ما يكفى لاستمرار النهضة الروحية فى أى كنيسة".

احترس إذاً! فإنك عندما تلجأ إلى تقديم إجابات سقيمة مثل هذه، فأنت تنكر على الشخص المتألم إنسانيته، وتهين الإله الذى يحب المتألمين ويعطف عليهم. ولست أدعى أنى قد عرفت السبب الذى لأجله كان لابد أن تفقد "بيكى" ساقها، ولكنى أعرف أن جميع هذه الأسباب التى قدمها لى الآخرون لم تكن صحيحة.

ولعل أهم شيء تعلمته من هذه القصة بجملتها هو هذا: أني أيقنت تماماً أنه لا يوجد أمامي سوى اختيارين لا ثالث لهما. إما أن أستمر في غضبي من الله وأسير في طريق اليأس الذي كنت على وشك الدخول فيه فعلا، أو أن أعترف بأن الله هو الله، فأقول له: "لست أعرف ما هو المغزى من هذه الأحداث، ولست أفهم ما هي الأسباب التي أدت إلى ذلك. ولكني قررت أن أقبل حقيقة أنك أنت الله وأنا خادمك وليس العكس". وبذلك تنتهي القضية.

بهذا الاختيار وحده استطعت أن أتغلب على الموقف. ورغم أني أعترف بعد كل هذه السنين أنه لا زالت هناك أشياء تؤلمني. فلا زلت أشعر بانقباض في معدتي عندما أرى ابنتي وهي تقفز على ساق واحدة، ولكني وصلت إلى التسليم بأن الله له هدف أسمى وأني لست أفهم هذا الهدف. وإني مستعد أن أنتظر الأبدية كلها، إذا لزم الأمر، لكي أحصل على إجابة أسئلتي. فإني مثل أيوب يمكنني الآن أن أقول: "هوذا يقتلني، لا أنتظر شيئاً. فقط أزكي طريقي قدامه" (أيوب ١٣:١٥). فإما اليأس، وإما قبول سلطان الله. هذه هي البدائل الوحيدة المتاحة.

دعوني أقولها مرة أخرى: إما اليأس، وإما الله. لا يوجد بديل ثالث. وقد اخترت أنا وأسرتي أن نتمسك بالله.

شكراً لك يا دكتور جيم كونواي، وشكراً لزوجتك سالي ولابنتك بيكي، لمشاركتكم لنا أعمق لحظات ألمكم. فإننا في مجتمعنا المسيحي، نادراً ما نجد مثل هذا الصدق

والحساسية فى التعبير عن النفس. إنى واثق أن الله سيستمر يستخدم اختباركم لتشديد إيمان الذين يجلسون اليوم منفردين، رمزياً، فى المشرحة، عندما تتعرض جميع آمالهم وتوقعاتهم للهجوم العنيف من قوات الجحيم، وعندما تتزعزع جميع الأسس الفلسفية واللاهوتية التى يستندون عليها. فماذا يفعلون؟

توجد إجابة واحدة فقط، وهى الإجابة التى توصل إليها الدكتور جيم كونواى فى أشد لحظات الضيق: **لا تطلب تفسيرات. لا تعتمد على فهمك. لا تطرح إيمانك جانباً. ولكن اختر بإرادتك أن تثق فى الله، لأنه لا يوجد بديل آخر سواه، غير اليأس.**

انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض

مز ٣٧: ٣٤

الفصل الخامس

سينجينا وينقذنا، ولكن إن لم يفعل..

علينا أن نسرع الآن بمناقشة مجموعة من الأسئلة الحساسة والتى تتعلق بكل ما ناقشناه حتى هذه النقطة: ما هو دور الله فى جميع هذه المواقف المحيرة، بل وأيضاً المخيبة للآمال؟ أين كان الله وسط التحديات التى صادفت القائد بوب وإستر فرنون، أو الدكتور جيم وسالى كونواى، أو داريل وكلاريتا جوستافسون، أو الدكتور جيرى ومارى هوايت، أو الدكتور تشاك وكارين فراى، وجميع الآخرين الذين سمعنا عنهم؟ وبمعنى أدق، هل الله يسمع ويستجيب لصلوات أولاده؟

إن نسبة كبيرة مذهلة من الأمريكيين تؤمن إيماناً عميقاً بفاعلية الصلاة. وفى بحث قامت بها مجلة النيوزويك تحت عنوان «التحدث مع الله» (٦ يناير ١٩٩٢)، أشارت إلى أن ٧٨ فى المائة من الأمريكيين يصلون مرة فى الأسبوع، وأن ٥٧ فى المائة يصلون على الأقل مرة فى اليوم، ٩١ فى المائة من النساء يصلون أحياناً، وكذلك ٨٥ فى المائة من الرجال. وهذه النسبة تشتمل على ٩٤ فى المائة من الزنوج و ٨٧ فى المائة من البيض.

ويعلق المحرر قائلا: «بعض هذه الصلوات تنبع من الاحتياج الشديد، فنادراً ما تجد أناساً ملحدين فى عنابر السرطان، أو فى طوابير البطالة. ولكن حتى فى أوساط أمريكا المادية التى لا تؤمن إلا بالإنسان، فهناك جوع إلى العلاقة الشخصية مع الله، وهذا الجوع لا تشبعه إلا الصلاة».

ويستنتج في النهاية قائلا: «حتى في الجامعة، حيث تتبلور كل أفكار الإلحاد، قد وجدت الصلاة أيضاً مسكناً لها». يقول «ديفيد روزنهان» أستاذ القانون وعلم النفس في جامعة ستانفورد: «كان من النادر جداً منذ ٢٠ سنة أن تجد ممارسة دينية حية وقوية في الحرم الجامعي، ولكن الآن توجد هنا اجتماعات صلاة يحضرها بانتظام بين ٢٠٠ و ٥٠٠ طالب».

وبالطبع فإني لست من السذاجة بحيث أصدق أن جميع هؤلاء الأمريكان المصلين يبحثون عن علاقة خضوع حقيقي لله الحي. فبالنسبة للبعض، لا تختلف الصلاة كثيراً عن الممارسات الغيبية مثل التنجيم وغيرها من المعتقدات الغريبة. ومع ذلك، فإن تقبل الأمور الروحية هو أمر مشجع جداً لنا نحن الذين طال اشتياقنا لحدوث نهضة في بلادنا.

ولكن ما هو معنى الصلاة في نظرك؟ هل حقاً كما يقول يعقوب ٥:١٦ «أن صلاة البار تقتدر كثيراً في فعلها»؟ هل كان يسوع يخاطبنا نحن عندما قال: «اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم» (متى ٧:٧)؟

من جهتي أنا شخصياً فقد رتبت حياتي على أساس الإيمان بصدق هذه الوعود. فهي أقوال الله التي سجلها بأمانة كتبة الوحي المقدس. وأساس إيماننا نحن المسيحيين مؤسس في الكلمة المقدسة، حيث الرسالة واضحة وأكيدة. تأمل هذه الآيات:

"اطلبوا الرب وعزه، التمسوا وجهه دائماً" (أخبار الأيام ١٦:١١).

"ذبيحة الأشرار مكرهة الرب وصلاة المستقيمين مرضاته" (أمثال ١٥:٨).

"وقال لهم أيضاً مثلا فى أنه ينبغى أن يصلى كل حين ولا يمل" (لوقا ١٨:١).

"وكذلك الروح أيضاً يعين ضعفاتنا لأننا لسنا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغى ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها" (رومية ٨:٢٦).

"لا تهتموا بشىء بل فى كل شىء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله" (فيلبى ٤:٦).

"واظبوا على الصلاة ساهرين فيها بالشكر" (كولوسى ٤:٢).

"صلوا بلا انقطاع، اشكروا فى كل شىء، لأن هذه هى مشيئة الله فى المسيح يسوع من جهتكم" (اتسالونيكى ٥:١٧-١٨).

"فأريد أن يصلى الرجال فى كل مكان رافعين أيادى طاهرة بدون غضب ولا جدال" (اتى ٢:٨).

من الواضح أن الصلاة ليست فقط شيئاً مرضياً عند الله، بل إنها وصية صريحة منه، فهو يريدنا أن ندخل فى هذه العلاقة الشخصية معه. وياله من امتياز عظيم! هل فكرت مرة أن تتأمل في هذه العطية الثمينة التى وهبها لنا الله القدير؟ أنت لا تحتاج أن تأخذ ميعاداً مسبقاً منه، ولا أن تتفاوض أولا مع سكرتيرته أو مديره الإدارى. إنه لا يؤجل أبداً ميعادنا لوقت لاحق بسبب ازدحام جدوله.

بل على العكس فإنه يدعونا لكى ندخل بثقة إلى محضره فى أى وقت من أوقات الليل أو النهار. وهو يسمع أضعف صرخة من شخص مريض أو وحيد أو محتقر من العالم. هو

يعرف ويحب كل واحد منا على الرغم من ضعفاتنا وسقطاتنا. حقاً إن دعوة الله لنا لكى نصلى هى من أجمل التعبيرات عن محبة الخالق الفائقة وعطفه المنقطع النظير على البشرية كلها. إن هذا المفهوم منسوج فى نسيج حياتى وفى حياة أسرتى منذ الطفولة المبكرة.

كنت فى سنة ١٩٥٧ طالباً فى الكلية. وفى إحدى الأمسيات جاءتنى من أهلى مكالمة تليفونية تبعث على القلق والضيق. فلقد أخبرتنى والدتى أن والدى قد أصيب بقرحة غريبة الشكل فى يده اليمنى، وبعد مراقبتها لفترة من الزمن أيقنوا أنها لا تتحسن. وأخيراً ذهبوا لاستشارة أخصائى فى الأمراض الجلدية، وقد رجعوا للتو من عنده. لقد تم تشخيص حالة أبى، وكان وقتئذ فى السادسة والأربعين من عمره، أنها سرطان بالخلايا البشرية، وهو نوع من أنواع سرطان الجلد القابل للشفاء فى مراحله الأولى على الرغم من خطورته فى حالة ما إذا أهمل علاجه. ولم يكن الطبيب مطمئناً، وقال لهم أن الفحص الميكروسكوبى أظهر خلايا «ناضجة تماماً» ولم يكن فى استطاعته أن يؤكد هل انتشرت الخلايا السرطانية فى أجزاء أخرى من الجسم أم لا.

وقرر الطبيب أن يستخدم الإشعاع للعلاج لمدة ستة أسابيع، من المفترض بعدها أن تبدأ القرحة فى التحسن. وإذا تم التحكم فى المرض موضعياً فمن المنتظر أن تختفى القرحة تماماً بعد خمسة أسابيع أخرى. ولكن فى حالة عدم الشفاء، سنضطر أن نلجأ إلى إجراءات أصعب وربما يحتاج الأمر إلى بتر الذراع. وقد كان أبى فناناً وكان التهديد بفقد ذراعه (أو حياته) من الأشياء التى تزعجنا جميعاً إلى أقصى درجة. وبدأنا نصلى من أجله.

وبعد أربعة أسابيع من إتمام العلاج بالإشعاع، كانت القرحة لا تزال فى مكانها، لم يحدث بها أى تحسن. وتزايد التوتر مع تزايد التقارير الطبية غير المشجعة (وإنى متأكد أن الحيرة كانت ستكون اليوم أقل مما فى الخمسينات). وبدأ الطبيب يدرس احتمال إجراء العملية الجراحية.

وكان هذا مؤشراً لتكثيف الصلاة. فذهب والدى إلى القادة فى الكنيسة وطلب منهم أن يدهنوه بزيت ويطلبوا من الله بصورة محددة أن يشفى السرطان. وقد تمت هذه الخدمة القصيرة قبل نهاية الأسبوع الخامس بيومين اثنين، وهى المدة التى حددها الطبيب لكى يتم بعدها اتخاذ تصرف آخر. وبعد يومين بالضبط، شفيت القرحة تماماً ولم تعد للظهور مرة أخرى.

هذه مجرد حالة واحدة من الحالات العديدة لاستجابة الصلاة التى شاهدتها أثناء فترة طفولتى وصباى. فإن الحالات فى هذه الفترة يمكن أن تملأ هذا الكتاب حرفياً، وذلك لأننا كنا أسرة تؤمن بالصلاة. وتحضرنى الآن قصص أخرى كثيرة. أتذكر فى إحدى المرات عندما قدم أبى كل المبلغ المدون فى دفتر شيكاته إلى أحد القسوس إذ كان أطفاله فى حاجة إلى أحذية وملابس دافئة. وكان أبى عطوفاً جداً على أى شخص يعانى من مشكلة مادية. وبالطبع، فإننا بعد أيام قليلة أصبحنا بلا نقود، فاتجهنا مباشرة إلى الله. ولا زلت أتذكر كلمات أبى وهو يصلى بعد أن جمعنا من حوله.

قال: «الآن يارب، أنت قلت أننا إذا أكرمناك فى أوقات رحبنا فإنك ستكون أميناً معنا فى أوقات الضيق. والآن أنت تعلم أننا نحتاج الى عون منك لتخطى هذه الأزمة».

وأقول لكم بكل أمانة أنه فى اليوم التالى للصلاة وصلنا بالبريد شيك قيمته ١٢٠٠ دولار. وقد نما إيمانى بقفزات سريعة أثناء هذه السنوات التى شكلت حياتى، لأنى رأيت الله يستجيب لأسرة مستندة عليه. وقد حدث ذلك مئات المرات.

لم تنشأ زوجتى شيرلى فى بيت مسيحى، وقد كانت خبراتها مختلفة تماماً عن خبراتى. كان والدها سكيراً، وكان يسىء معاملة أسرته، وينطق باسم الله فقط أثناء توجيه اللعنات والشتائم. ولم تكن والدة شيرلى مسيحية، ولكنها كانت امرأة رائعة وكانت تحب أبناءها. وقد أدركت أنها تحتاج إلى معونة فى تربية أولادها فبدأت ترسلهم إلى كنيسة إنجيلية مجاورة منذ طفولتهم المبكرة. وهناك سمعت شيرلى عن يسوع، وتعلمت كيف تصلى.

وبدأت تلك الفتاة الصغيرة، المطحونة بالفقر وبمآسى إدمان أبيها للخمر، تتحدث مع الله عن عائلتها. وبصفة خاصة بعد أن تم طلاق والديها، سألت من الرب طلبتين محددتين. أولا، سألت من أجل زوج أم مؤمن يحبهم ويعتنى بهم. وثانياً، كانت شيرلى تعرف أنها تحتاج إلى بيت مسيحى وأسرة تقية فى يوم من الأيام. فبدأت تطلب من الرب أن يمنحها زوجاً مؤمناً عندما جاء وقت الزواج. واليوم فإننى أتأثر جداً بمنظر تلك الطفلة الجاثية على ركبتيها بمفردها فى حجرة نومها، لتتكلم مع الله عن احتياجاتها. كنت فى ذلك الوقت لا أدرك شيئاً عن وجود هذه الفتاة، ولكن الرب كان يعدنى فى برنامج تدريبى مطول، حتى أننى بمجرد أن التقيت بتلك الفتاة فى الجامعة لم تكن هناك حاجة لمزيد من الإقناع.

هذه القصة تصور بطريقة رائعة فاعلية الصلاة. فإن الله القدير الخالق العظيم، بكل جلاله وعظمته، اهتم بأن يصغى لصوت طفلة صغيرة محتاجة. فهو لم يجمعنا فقط معاً، بل أيضاً أرسل رجلا ممتازاً ليكون زوجاً لأمها. والآن فإن والديها كليهما مؤمنان ويخدمان الرب فى منطقتهما.

لذلك فعندما التقيت أنا وشيرلى، وتعاهدنا على الزواج، اصطحبنا معنا إيماناً قوياً فى علاقتنا الجديدة. ومنذ تلك الأيام الأولى، قررنا أن يكون ليسوع المسيح المكان البارز فى حياتنا. ولا زلت أتذكر يوم أن جلسنا معاً فى سيارتى القديمة قبل الزواج، نرفع صلاة تكريسية من أجل بيتنا الجديد. سألنا من الرب أن يرشدنا فى طرقنا، وأن يضع بركته بصفة خاصة على الأطفال الذين سيعطيهم لنا فى المستقبل. ثم عاهدت شيرلى أن أقضى باقى حياتى محاولا تعويضها عن السعادة والأمان اللذين افتقدتهما فى طفولتها. كان هذا هو الأساس الذى بنينا عليه أسرتنا الصغيرة.

واليوم، بعد أكثر من ثلاثين سنة معاً، نشهد أننا قد رأينا أمانة الله المستمرة فى استجابة الصلاة. ولا أدرى كيف كنا سنصبح بدون هذا النبع الدائم من القوة والمعونة. وفى الواقع، فإن أبرز صفة تحققت فى زواجنا، كانت هى نمو ونضج حياة الصلاة لدى شيرلى. فلقد أصبحت بالفعل «مجاهدة فى الصلاة»، تحافظ على الاتصال المستمر مع الله. ونظراً لهذه الحرارة الروحية، فلقد تم اختيارها لرئاسة «اليوم الدولى للصلاة».

والآن دعنا نخوض فى مياه أعمق. علىٰ الرغم من أن مئات الشواهد الكتابية تفيد بأن الله يسمع ويستجيب الصلاة، إلا أننا يجب أن نعترف بأنه لا يفعل دائماً الأشياء التى

نطلبها بالطريقة التى نرغبها. فأحياناً تمضى سنوات قبل أن نراه يحقق مقاصده. وأحياناً أخرى يقول «لا» أو يقول «انتظر». بل وبصراحة فإنه فى أحيان أخرى لا يقول أى شيء بالمرة. وكما سبق أن أشرنا فإن مؤمنين كثيرين يقعون فى هذه اللحظة فى الارتباك والحيرة، ويبدأ إيمانهم يتزعزع.

وقد كانت هذه الحيرة موضوعاً لقصة روائية للكاتب «و. سومرست موجهام» باسم «قيود البشر». كان بطل القصة شاباً يعانى من تشوه فى قدمه كان سبب حزن له منذ طفولته المبكرة. وعندما سمع عن المسيحية، اعتقد أنه قد اكتشف طريقة سريعة للتحرر من معاناته. فأخذ يصلى طالباً من الله أن يشفى قدمه ويعيدها صحيحة كالأخرى. ولكن عندما أيقن أن طلبته المتكررة لم تتحقق بدأ إيمانه يفقد مصداقيته، ورجع عن الله. وللأسف فإننا لا نستطيع أن نتخيل كم عدد المرات التى فيها تكررت فيها هذه القصة الروائية عبر العصور.

فإن أى مؤمن له فترة فى الإيمان لا بد وقد اختبر أمراً يصلى من أجله ويبدو كأن الله لا يريد أن يمنحه. فإذا رجعنا مثلا إلى قصة سرطان الجلد الذى أصاب والدى، فعلى الرغم من أنه قد شفى من هذا المرض إلا أنه اليوم هو ووالدتى كليهما فى السماء. فإن صلواتنا بخصوص الأمراض التى أصابتهما لاحقاً لم تتحقق إذ دعاهما الرب لعبور وادى ظل الموت. وإذا كانت هذه الحقيقة تزعج القارىء، فلك أن تتذكر أن لعازر الذى أقامه يسوع من الأموات بطريقة معجزية قد مات مرة أخرى فيما بعد. وكل إنسان شفاه يسوع قد مات فى وقت لاحق. يقال أن الزمن يشفى كل جرح، هذا صحيح، ولكنه أيضاً يجرح كل شفاء.

فهل يبدو هذا الكلام مناقضاً لمبدأ الصلاة الذى سبق أن تكلمت عنه؟ كلا! فتخيل للحظة كيف سيكون حال العالم لو أن الله فعل دائماً كل ما نطلبه منه بالضبط. أولا، سيعيش المؤمنون أعماراً أطول كثيراً من أعمار غير المؤمنين. ثانياً، سيعيش غير المؤمنين فى أجساد ضعيفة، أما المؤمنين وأولادهم فسيعيشون فى عالم مثالى منفصل تماماً عن الواقع. لن يصيبهم أبداً ألم فى الأسنان أو حصوة فى الكلى أو قصر فى النظر. كل أعمالهم ستكون ناجحة ومنازلهم جميلة. وبهذه الطريقة فإن أساس العلاقة بين الإنسان والله سيتلاشى. فإن الناس سيطلبون العلاقة مع الله من أجل الحصول على الامتيازات المصاحبة، وليس كتجاوب مع محبة الله بالتوبة والحب. عندئذ، فإن الأشخاص الأكثر طمعاً من بيننا سيكونوا هم أول المنجذبين إلى مزايا الحياة المسيحية. وأخيراً، فإنه أمام براهين قوة الله الخارقة ستتلاشى الحاجة إلى الإيمان. كتب بولس فى رسالة رومية ٨:٢٤ «الرجاء المنظور ليس رجاء. لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً؟»

فإيماننا إذاً ليس مؤسساً على الآيات والعجائب بل على الإله القدير. وهو لن يصنع أعمالا مميزة لكى يؤثر فينا. وقد نطق الرب يسوع بكلمات الدينونة على الذين طلبوا معجزاته، «فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية» (متى ١٢:٣٩). فهو يريدنا أن نقبله بدون أى براهين. قال يسوع لتوما: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا». إننا نخدم هذا الإله ليس لأنه يستجيب لصلواتنا، ولكن لأننا نثق أنه هو محور حياتنا. إنه هو وحده الذى يستطيع أن يحدد ما هو لفائدتنا. إننا لا نستطيع أن نرى المستقبل، ولا أن نعرف خطته. نحن نرى فقط جزءاً صغيراً من الصورة،

وحتى هذا الجزء الصغير نحن لا نراه بوضوح نظراً لمحدوديتنا. ألا يكون من العجرفة إذاً أن نحاول أن نشير على الله بما ينبغى أن يفعل، بدلا من أن نضع طلباتنا أمامه ونخضع لمقاصده الإلهية.

ويسوع نفسه أعطانا المثال فى موقف الخضوع للآب. فقد طلب من أبيه فى بستان جثسيمانى أن تعبر عنه «كأس» المهانة والموت. كان يعلم تماماً ما هو معنى الصلب. وقد كان الضغط المعنوى رهيباً جداً حتى أن قطرات كبيرة من الدم اخترقت جلده. ومن الناحية الطبية، تسمى هذه الظاهرة «ارتشاح دموى»، وهى تحدث فقط فى الأشخاص الذين يجتازون أشد حالات الكرب. ولكن حتى فى وسط هذا الكرب الشديد، قال يسوع: «ولكن لتكن لا إرادتى بل إرادتك» (لوقا ٢٢:٤٢).

وتوجد أمثلة كتابية أخرى عديدة توضح مبدأ هذا الخضوع للسلطان الإلهى. فلقد طلب الرسول بولس ثلاث مرات من الرب أن يزيل عنه ذلك الشيء المؤلم والذى سماه «شوكة فى الجسد». وفى المرات الثلاثة كانت الإجابة «لا». فبدلا من إزالة الشوكة، قال له الرب: «تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل» (٢كورنثوس ١٢:٩).

ولعلكم تذكرون أيضاً قصة موسى عندما تلقى صوت الرب فى العليقة المشتعلة (خروج ٣-٤). عندئذ أمره الرب بأن يواجه فرعون ويطلب منه أن يطلق بنى إسرائيل من العبودية فى مصر. وعندما سأل موسى كيف سيصدق بنو إسرائيل أن الله قد أرسله، زوده الله بقوات معجزية. فحول العصا فى يده إلى حية وأعادها عصا مرة أخرى. وجعل يد موسى برصاء وأعادها صحيحة مرة أخرى. وأخيراً قال الرب

لموسى، إذا لم يصدقوا هذه الآيات، أن يأخذ ماء من نهر النيل ويسكبه على الأرض فيتحول إلى دم. كان الهدف من هذه الأعمال المبهرة هو إعلان قوة الله وإثبات الصفة الشرعية لموسى كممثل لله.

ولكن بعد ذلك حدث أمر غريب. اشتكى موسى من أنه لا يملك اللباقة الكافية للقيام بهذه المهمة، قال: «أنا ثقيل الفم واللسان» (خروج ٤:١٠)، ومع ذلك فلم يشأ الرب أن يشفى هذه العاهة. أليس هذا عجيباً؟ فلقد صنع للتو معجزات خارقة للطبيعة لكى يؤهل موسى للقيام بمهمته، فلماذا لا يزيل عنه هذا الضعف فى اللسان؟ إنه يملك بلا شك القدرة على ذلك. ألم يكن من المنطقى أن يقول له الرب: «أنت ستحتاج إلى صوت قوى لتقود مليون شخص فى البرية. ولذلك فإننى سأعطيك قدرة على الكلام!» كلا، لم تكن هذه هى الطريقة التى استحسنها الله. ولكنه أولا غضب على موسى لأنه أراد أن يتخذ من هذا الضعف عذراً له. وبعد ذلك اختار هارون أخا موسى ليكون الفم المتكلم عنه. فلماذا لم يتعامل الله مع العاهة مباشرة ويقضى عليها؟ لا نعلم. وكما سبق أن ذكرنا فإنه فى بعض الأوقات يكون الله غير مفهوم.

ويمكننا أن نفترض أن الرب لم يشأ أن يشفى «ثقل اللسان» الذى يعانى منه موسى، لكى يعلمه، كما علم بولس، أن قوته فى الضعف تكمل. لقد اختاره للقيادة ليس لأنه صانع معجزات ولا لأنه يمتلك طاقات فوق طبيعية، ولكن لمجرد أن الله اختار أن يستخدمه بضعفه وبنقائصه.

شكراً للرب، لقد اختارنى أنا أيضاً وفقاً لهذا المبدأ عينه. فكل واحد منا له عيوبه ونقائصه والتى يستطيع الرب أن يزيلها بكلمة واحدة. ولكنه غالباً ما يتركنا نصارع مع

ضعفاتنا لكى يعلن لنا قوته. وهذا المفهوم نابع مباشرة من المكتوب: يقول بولس: «لنا هذا الكنز فى أوان خزفية ليكون فضل القوة لله لا منا» (٢كورنثوس ٤:٧).

ويخيل لى أن كل مؤمن لديه مشكلة واحدة على الأقل مختصة «بإنائه الخزفى» تسبب له المضايقة باستمرار، والرب يرفض بإصرار أن يرفعها عنه. هذه الحالات تدخل تحت بند «لو أن». فالتفت إلى أصدقائك المؤمنين وتكلم معهم عن ظروفهم. ستجد أن معظمهم يعانى من حالة «لو أن» بدونها كان يمكن أن تكون حياتهم مثالية. آه لو لم أكن مصاباً بمرض السكر، أو الصمم، أو التهاب الجيوب الأنفية (أو أى مشكلة صحية أخرى)! آه لو لم أكن أنا وزوجى عقيمين! آه لو لم أكن قد تورطت فى هذه القضية أو هذه الزيجة غير الناجحة! آه لو لم يكن لنا طفل مريض، أو ابن متخلف عقلياً، أو حماة مزعجة! آه لو لم أكن مطحوناً مادياً بهذه الصورة! آه لو لم أكن قد تعرضت للأذى الجنسى فى طفولتى! آه لو أن الله يذلل فقط هذه الصعوبة أمامى! ولكن المشكلة تبقى كما هى. وفى جميع هذه الحالات يكرر الرب بهدوء نفس الكلام الذى قاله لبولس منذ ٢٠٠٠ سنة: «تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل» (٢كورنثوس ١٢:٩).

وكأنه يقول لنا: «على كل إنسان أن يحتمل شيئاً معيناً يسبب له الضيق والألم والحزن. وهذا هو الشىء الخاص بك. فاقبله. واحمله. وسأعطيك نعمة لكى تحتمله». وهكذا تمضى الحياة فى حالة من عدم الكمال النسبى.

وتقترح «إليزابيث إليوت» تفسيراً آخر لمآسى البشرية فى تقرير مختصر بعنوان «لابد أن تتحطم السفينة». وهذا ما كتبته:

هل حدث أنك وضعت قلبك على شيء ما، وصليت من أجله، واجتهدت فيه من كل قلبك لأنك اعتقدت أنه الشيء الذى يريده الله، وأخيراً رأيته يتحطم؟

تحكى لنا قصة سفر بولس كأسير عبر البحر الأدرياتيكى، أن ملاكاً وقف بجانبه وطلب منه ألا يخاف (على الرغم من الرياح العاصفة) لأن الله سينقذ حياته وحياة جميع الذين معه فى السفينة. وهكذا طمأن بولس الحراس ورفقاءه المسافرين، ولكنه أضاف قائلا "ولكن لابد أن نقع على جزيرة" (أعمال ٢٧: ٢٦).

وربما نتخيل أن الله الذى وعد بأن ينقذ الجميع لابد وأن يتمم العمل وينقذ أيضاً السفينة، موفراً عليهم مشقة الوصول إلى الشاطىء فوق قطع من حطام السفينة. ولكنه لم يفعل هكذا.

إن السماء ليست فى عالمنا هذا، بل فى العالم الآتى. وإذا حصلنا فى هذا العالم على كل ما نشتهى، فإن قلوبنا سترتبط به بدلا من أن تتعلق بالآتى. ولكن الله يريدنا أن ننظر إلى فوق ونتعلق به وبملكوته الذى لم يظهر بعد، والذى فيه لا بد أن نجد كل الأشياء التى طال اشتياقنا لها.

لذلك فإن "تحطم السفينة" ليس "نهاية الكون". ولكنه يساعدنا على "عدم الدخول فى التجربة" تجربة النظر إلى الأمور التى ترى.

وبالطبع فإن هذه الكلمات تحتوى على حكمة عملية عميقة. فإن جميع المؤمنين لابد وأن «تتحطم سفنهم» عند

نقطة معينة فى حياتهم. وهنا يجب أن نتعلم كيف نحتفظ برباطة جأشنا عندما ترتطم سفينتنا بالكثبان الرملية! فإن هذه الصفة هي من الصفات التى يمكن تعلمها. وقد كتب بولس إلى أهل فيلبى يقول: «فى كل شىء وفى جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع، وأن أستفضل وأن أنقص» (فيلبى ٤:١٢). فمن الواضح أن هذه الصفة هى صفة مكتسبة قد تدرب عليها بولس.

ولكن للأسف، يوجد بعض الخدام المسيحيين الذين ينادون للناس بتعاليم مشوشة، قائلين أنه لا داعى للصبر والاحتمال وضبط النفس، لأنه ما الداعى لممارسة هذه الصفات طالما أن الصحة والثروة هما من حق كل إنسان؟ فقط من خلال عمل الضجة المناسبة فى أذنى الله يمكننا أن نستمد منه الحياة الخالية من الألم. إنهم بهذه الطريقة يحولون ملك الكون كله إلى مجرد ساحر مطيع يخضع لرغباتنا وشهواتنا نحن الأموات. إنه تفسير خطير للمكتوب وله نتائج خطيرة لدى الأشخاص الغافلين.

سمعت مؤخراً أحد خدام الإذاعة يقول: «إذا كان لديك احتياج، فإنه يسدد فى ذات اللحظة عندما تطلبه من الرب. فبمجرد أن تبدأ فى الصلاة تكون الطلبة قد تحققت. سيحل الله المشكلة، سواء كانت مرضاً أو حاجة إلى وظيفة أو حاجة إلى مال، مهما كان الطلب. إذا كان لديك الإيمان فلابد أن يحل الله مشكلتك».

صحيح أن الرب كثيراً ما يتدخل بصورة معجزية فى حياة الناس المتألمين. فالكتاب المقدس واضح جداً فى هذه النقطة. ولكن الله هو الذى يحدد طريقة التدخل. وليس لأى إنسان الحق فى أن يتخذ هذا القرار بالنيابة عنه!

وبعد أن سمعت هذا الخادم يقدم تأكيداته الشاملة، ذهبت إلى اجتماع لفريق العاملين فى Focus on the Family وشاركت معهم ما سمعته على الهواء. فأجاب أحد الزملاء قائلا: «من المؤسف حقاً أن والدى لا يعرف ذلك». لقد أصيب والده المسن بجلطة فى المخ والآن هو يجلس نصف مشلول على كرسى متحرك. إن هذا الرجل الطيب، الذى أفنى حياته فى الخدمة المسيحية، يجتاز فى محنة حقيقية. فهو يقضى معظم يومه ينظر من النافذة إلى ملعب للجولف وهو متأكد أن قدميه لن تطأ هذا الملعب مرة ثانية. فهل من المعقول أن نقول لمثل هذا الشخص المتألم أنه يحتاج فقط للإيمان لكى يعود صحيحاً مرة أخرى.

وقد شاهدت مثالا آخر لهذا التزوير فى الصيف الماضى عند زيارتى للملكة المتحدة. لقد ذهبت إلى هناك لكتابة الفصول الأولى من هذا الكتاب وكنت منحصراً جداً فى المواضيع الصعبة التى سأناقشها. ومن باب المصادفة سمعت من خلال حملة إعلامية واسعة فى لندن عن قدوم مبشر أمريكى من أنصار حركة الشفاء بالإيمان. وقد حظى هذا المبشر بتغطية إعلامية أوسع كثيراً مما ينال فى بلده الأصلى، فقدمته وسائل الإعلام بصفته «واحد من المبشرين التليفزيونيين الأكثر شعبية فى الولايات المتحدة». وقد كانت الصحافة الإنجليزية مدركة أن أحد الدجالين قد جاء لكى يطلق بعض الأقوال الخادعة باسم الرب. وهذا ما حدث بالفعل.

ولست أنوى أن أحكم على دوافع هذا الشخص، لأنى لا أعرفه شخصياً. فربما هو يعتقد أنه يعمل عمل الرب. ولكن بعض جوانب حملته فى لندن كانت مثيرة للريب بشكل

واضح. فلقد رسمت إعلاناته في الصحف صورة نظارة سوداء مثل تلك التي يرتديها الشخص الكفيف. وكانت النظارة مكسورة. وأيضاً صورة عصا بيضاء مكسورة من المنتصف. والتعليق على الصورة يقول: «البعض سوف يرون معجزات للمرة الأولى!» وإننى متأكد أن آلاف الرجال والنساء والأطفال المعوقين فى لندن قد فهموا معنى الإعلان. إنه يعنى أن نهاية المعاناة تنتظر الذين سيحضرون «الخدمة المعجزية».

هذا لا يعنى أن الله لا يستطيع أن يشفى العمى، أو أى مرض أو عجز آخر، فهو بالطبع يستطيع، بل ويشفى بالفعل. ولكن على حد معرفتى فهو لا يصنع هذه المعجزات بصورة جماعية. ودعونى أقولها بصراحة: لم أشاهد أبداً أى من هؤلاء الخدام يحقق الوعد بالشفاء لجميع الحاضرين. نعم، فإن بعضهم يعطيك الإيحاء بأنه يملك لمسة سحرية. ولكن عملياً هذه الحقيقة مشكوك فيها جداً. وبالإضافة إلى ذلك فإن خدمات الشفاء تتم غالباً فى جو من الهرج والهستريا الغريبة. فهذه المعجزات الجماعية تهين جلال الله وتجلب العار على العبادة المقدسة.

إننى مقتنع أيضاً بأن جميع الذين ينادون بمبدأ الصحة والثروة يخفون فى أعماق نفوسهم سراً صغيراً. فجميعهم قد خاضوا تجربة الصلاة بإصرار من أجل أحد أفراد الأسرة أو أحد الأصدقاء المقربين، ولكنه فى النهاية مات. فهذا الاختبار اختبار معروف لجميع الرعاة فى جميع الطوائف. إلا أن هؤلاء الخدام نادراً ما يعترفون بهذا السر فى وسط تألق وحماسة «خدمة الشفاء». ألا تتفقون معى أنه ليس من الأمانة أن نخفى الحالات التى فيها يقول الله «هذه ليست إرادتى»؟

ورجوعاً إلى المبشر التليفزيونى الذى جاء إلى لندن، فلقد كانت الصحافة البريطانية أكثر تشككاً بعد نهاية الحملة، إذ استأجرت أطباء لمناقشة وفحص المرضى والمكفوفين بعد حضورهم هذه الخدمات «المعجزية». وكانت النتائج محرجة للغاية بالنسبة للمسيحيين الأمناء فى تلك المدينة الكبيرة. فلقد نجحت الحملة فى وضع العثرات أمام غير المؤمنين الذين، لولا هذا الخداع، لكانوا مستعدين أن يسمعوا بشارة الإنجيل.

ويوجد سبب آخر يجعلنى أنزعج من الذين يبشرون بالصحة والثروة كمبدأ عام. فإن هذا التعليم ينشىء نوعاً من التوقع ويؤدى فى النهاية إلى تحطيم المؤمنين غير الثابتين. قال أحدهم «إن الإنسان الذى لا يتوقع شيئاً لا يمكن أن يصاب بالإحباط». وعلى العكس، فإن الشخص الذى يظن أن تبعيته للمسيح ستحميه من جميع الشدائد، لن يجد تفسيراً منطقياً عندما يحجم الله عن التدخل فى ظرف من ظروفه. فلابد عاجلا أم آجلا أن يصطدم بمرض أو فشل فى العمل أو حادث أو أى مكروه آخر، وعندئذ فلن يبقى أمامه سوى أن يتحطم وينهار.

ماذا يفعل هذا المؤمن عندما يكتشف أن «الحياة فى واقعها» مختلفة عن «الحياة التى يتوقعها»؟ لابد أن ينجرف إلى واحد من بين عدة استنتاجات، وجميعها مدمرة للإيمان:

(١) أن الله غير قادر، أو غير مبال بأمور البشر،

(٢) أو أن الله غاضب عليه بسبب خطية قد ارتكبها،

(٣) أو أن الله متقلب أو غير جدير بالثقة أو قاسى أو غير عادل،

(٤) أو أن الله لم يستجب له لأنه لم يصل بالقدر الكافى ولم يكن لديه الإيمان الكافى.

وهذه البدائل الأربعة جميعها تعمل على قطع الصلة بين هذا الإنسان وبين الله فى ذات اللحظة التى يكون فيها احتياجه الروحى أكبر ما يمكن. أعتقد أن هذه خدعة من إبليس لتدمير إيمان الأشخاص غير المحصنين. وهى تبدأ بأكذوبة لاهوتية تقدم الوعود بحياة خالية من الضغوط وإله يحقق للإنسان كل ما يريد.

والذين يقدمون إجابات سطحية خالية من الترو رداً على السؤال الجليل المختص بآلام البشرية، لم يحاولوا على الأرجح أن يكلفوا خاطرهم مشقة التفكير فى هذا السؤال، ولم يعانوا بكل تأكيد مما عانيته أثناء عملى فى أحد المراكز الطبية المتخصصة فى طب الأطفال. هناك يجتاز أطفال صغار فى اختبارات مرعبة يومياً على مدار الأسبوع. البعض منهم اختبروا الألم منذ يوم ولادتهم ولم يعرفوا شيئاً آخر. والبعض ولدوا من أمهات مدمنات للكوكايين والهيروين وجاءوا إلى العالم وهم فى حاجة شديدة إلى «الجرعة». ولعدة أيام تتردد صرخاتهم المؤلمة عبر عنابر الأطفال حديثى الولادة. وآخرون أكبر منهم يؤتى بهم وقد تم ضربهم أو حرقهم بواسطة آباء متوحشين.

وآخرون مثل تلك الطفلة الصغيرة ذات العينين العسليتين والتى لا زالت صورتها محفورة فى مخيلتى فى قسم الأورام فى مستشفى الأطفال فى لوس أنجلوس. كانت طفلة رائعة الجمال فى الرابعة من عمرها وكان والداها يعتقدان أنها طفلة طبيعية وسليمة. ولكن فى اليوم السابق بينما كانت والدتها تحممها، اكتشفت نتوءاً فى جنبها، وثبت أنه ورم ضخم من النوع الخبيث. ولم يعد أمامها فى الحياة سوى بضعة شهور قليلة. وقد تركت غرفتها عندئذ وأنا أشعر بغصة عميقة فى حلقى ورغبة فى الفرار.

ربما لاحظتم أن الحياة خالية تماماً من العدل. فهى تدلل البعض وتحطم البعض الآخر. ولعل هذا أكثر سؤال محير يواجه المسيحى المفكر. كيف يمكننا تفسير هذا الظلم الظاهرى؟ كيف يمكن لإله متناهى فى المحبة والعدل أن يسمح لبعض الناس أن تكون حياتهم عبارة عن مآسى متتالية، بينما ينعم البعض الآخر بكل العطايا الجيدة والكاملة؟ ما الذى يمكننا أن نستنتجه عندما تكون هذه التعاسة من نصيب طفل؟ حسناً، إنى أعرف الإجابة التى يقدمها اللاهوتيون، وهى أن المرض والموت قد دخلا إلى العالم كنتيجة للخطية، وأننا جميعاً تحت حكم الموت. وهذا الحكم يتم فى البعض قبل البعض الآخر. إنى أعرف هذا التفسير وأقبله، على الرغم من أنه لا يشفى نفوسنا تماماً، خاصة عندما ننظر فى وجه طفل متألم، ومع ذلك فهذا أقصى ما يمكن أن نصل إليه.

وكما سبق أن أشرت فإن طاقة الذهن البشرى تستطيع أن تفهم فكر الله فقط إلى حدود معينة، بعدها تقف عاجزة تماماً. فإن أفكاره ليست فقط غير معروفة لنا، بل هى غير قابلة للفحص. ولم يكن الله فى أى وقت من الأوقات مطالباً بأن يعطى حساباً للإنسان، ولن يكون هكذا أبداً. لا يوجد على وجه الكون من يستطيع أن يستجوبه أو يسائله. وفى الكتاب المقدس كله لم يتكلم الله ولا مرة واحدة بلهجة دفاعية، ولم يطلب موافقة من أحد على أفعاله. ولكنه يقول لنا فقط «ضع ثقتك فى». وفى حواره المطول مع أيوب لم يعتذر الله مرة واحدة ولا حاول أن يفسر المآسى التى وقعت على عبده. ومع ذلك فإنه يؤكد لنا بصورة محددة أن الله كلى المحبة والصلاح والرحمة واللطف والنعمة والأبوة والصبر. فأين نذهب إذاً بأسئلتنا الحائرة؟ ليس أمامنا سوى أن

نرجع إلى الاختيارين اللذين وصل إليهما «د. جيم كونواى». إما أن نستمر فى إيماننا بصلاح الله ونؤجل أسئلتنا إلى الوقت الذى فيه نراه وجهاً لوجه، وإما أن ننزلق إلى المرارة والغضب بسبب الألم الذى يحيط بنا. ليست هناك أى بدائل أخرى. وكما ترون فإننا نعود دائماً إلى ضرورة الإيمان.

ودعونا نختم كلامنا بالقصة المدونة فى الأصحاح الثالث من سفر دانيال عن شدرخ وميشخ وعبدنغو. لقد تعرضوا لغضب الملك نبوخذنصر عندما رفضوا أن يجثوا ويعبدوا الصنم الذى نصبه. وقد حذرهم بكل وضوح أنهم إذا استمروا فى رفضهم لإطاعة أمره، فسوف يلقى بهم فى «الأتون المشتعلة». وأمام هذا التهديد بالقتل، جاءت إجابة الفتيان الثلاثة من أسمى الإجابات المعبرة فى الكتاب المقدس. قالوا له:

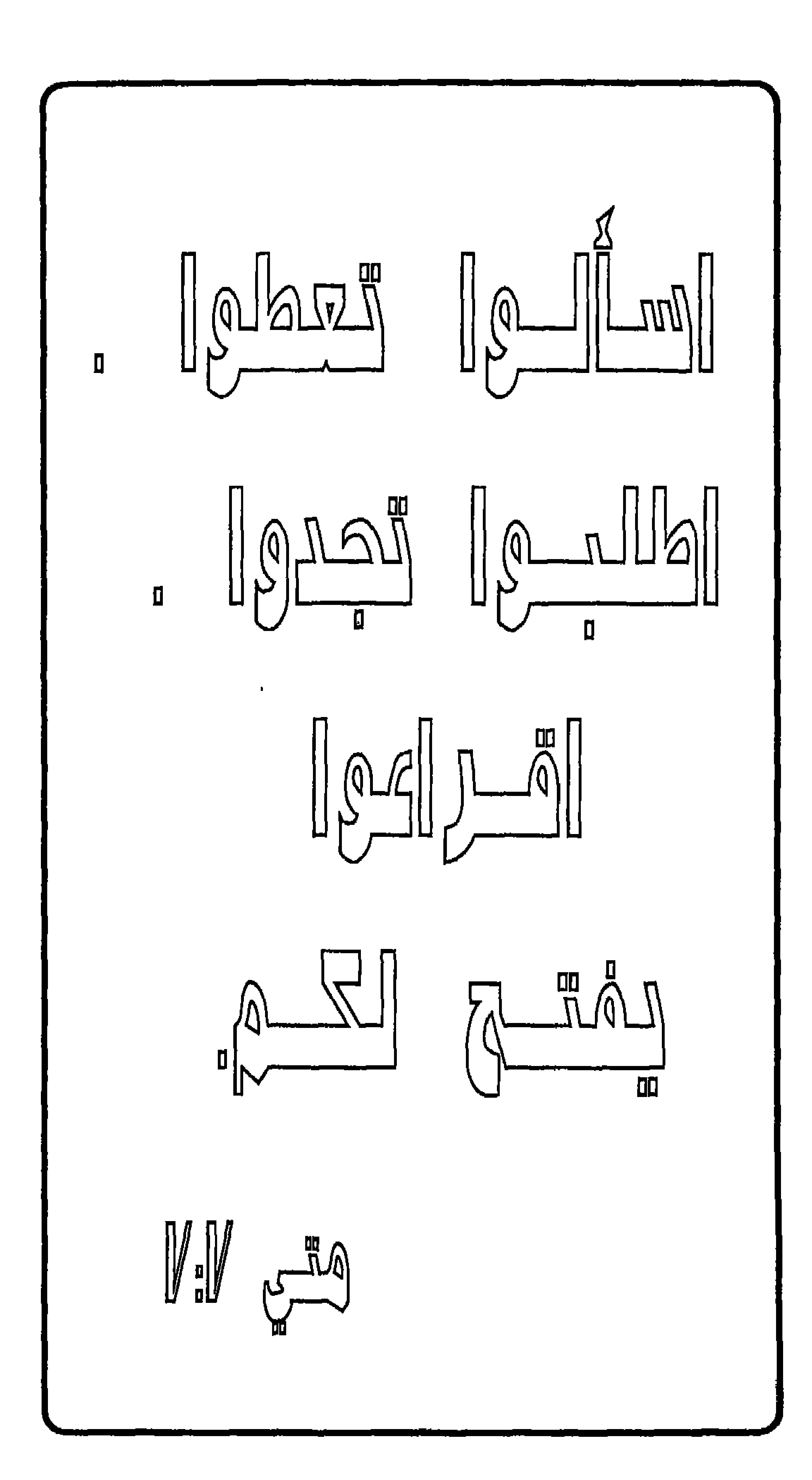
"هوذا يوجد إلهنا الذى نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة وأن ينقذنا من يدك أيها الملك، وإلا فليكن معلوماً لك أيها الملك أننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذى نصبته" (دانيال ٣: ١٧ - ١٨).

ياللعظم الشجاعة التى أظهرها هؤلاء الفتيان فى مواجهة الموت! وياللعظم اقتناعهم بقضيتهم! وياللعظم إيمانهم! «الله يستطيع أن ينجينا، ولكن حتى إذا لم يفعل فإننا سنستمر نعبده». هذه هى الوصفة الكتابية فى أبسط صورها. إنه يستطيع أن يشفى المرض الذى يقيد جسدى، ولكن حتى إذا لم يفعل سيستمر إيمانى حياً. إنه يستطيع أن يصحح إعاقة طفلى، أو ينقذ عملى من الإفلاس، أو يعيد ابنى سليماً من الحرب، ولكن حتى إذا لم يفعل، سأستمر أثق فيه. هذا هو

المعنى الذى قصده أيوب عندما قال: «هوذا يقتلنى، لا أنتظر شيئاً، فقط أزكى طريقى قدامه» (أيوب ١٣:١٥). وهذا ما قصده بولس بالقول: «فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضاً» (فيلبى ٢:٥). وفى عدد ٨ يشرح بولس ما هو هذا الفكر فيقول: «وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب». فإن هذا التسليم الكامل لمشيئة الله القدير، هو الشىء الذى يريده من شعبه، حتى عندما تبدو الظروف مثل دوامة لا يمكن التحكم فيها. إنه يستطيع أن ينجى، ولكن إذا لم يفعل...!

فإلى القارىء العزيز الذى تم تشخيص مرضه بأنه مرض خطير، وإلى الوالدين الذين لهما ابن فى خطر، وإلى الأرملة التى فقدت زوجها حديثاً وأصبحت وحيدة فى مواجهة الحياة، دعونى أقدم لكم كلمة تشجيع أخيرة. هل تذكرون ما الذى رآه نبوخذنصر عندما نظر داخل الأتون المشتعل؟ لقد رأى أربعة رجال بدلا من ثلاث، والرابع «شبيه بابن الآلهة». ولنلاحظ أن شدرخ وميشخ وعبدنغو هم فقط الذين خرجوا من وسط النار. أما الشخص الرابع، والذى نؤمن أنه هو المسيح، فلقد ظل هناك ليشددنا ويعزينا ويحمينا عندما نجتاز فى التجارب المشتعلة.

إنه لن يدعكم تنهارزوا، ولكنه فى نفس الوقت لن يدعكم تهربوا!


اسألوا تعطوا .
اطلبوا تجدوا .
اقرعوا
يفتح لكم
متى ٧:٧

الفصل السادس

أسئلة وأجوبتها

تمتلىء أذهان الأشخاص المجربين بالعديد من الأسئلة عن الحياة والموت، عن الخير والشر، وعن صفات الله. لماذا تحدث الكوارث؟ والأسئلة التالية تعبر عن بعض الموضوعات التى تهم الناس الذين يجتازون فى شدائد.

السؤال الأول:

لقد استجاب الرب بطريقة معجزية صلاتنا من أجل ابننا عندما كان فى الثامنة من عمره. فلقد تعرض لعملية خطيرة فى القلب وشفى تماماً بدون أى آثار جانبية. ولكن منذ ثلاث سنوات أصيب زوجى بالسرطان، وقد صلينا من أجله نهاراً وليلا. ومع ذلك فلقد مات فى يناير الماضى. إننى لا أستطيع أن أفهم لماذا سمع الله صلاتنا من أجل ابننا ولم يسمع من أجل زوجى. هل هو موجود أم لا؟

الإجابة:

إننى أوكد لك أنه موجود، وأن صلواتك من أجل زوجك نالت نفس الاهتمام والعناية مثل صلواتك من أجل ابنك. فإن ما اختبرته هو دليل على جلال الله وقدرته اللانهائية. وكما سبق أن أشرنا فإنه هو الذى يحدد ما هو الأفضل للذين يعبدونه.

ولعل ما حدث مع أصدقائى المقربين «فون» و «جوان ليشرر»، يعتبر من أوضح الأمثلة التى تبين هذه الصفة من صفات الله. عندما كان «فون» فى السنة الأولى من عمره لاحظ والداه أنه يصاب بكدمات شديدة عندما يصطدم بالأثاث أو حتى عندما يتعثر داخل مهده. فأخذوه إلى الطبيب المتخصص وتم تشخيصه بأنه مصاب بحالة «هيموفيليا»، وهو مرض وراثى يسبب النزف، إذ يوجد نقص فى أحد المواد اللازمة لتجلط الدم مما يعرض حياة المريض للخطر فى كل مرة يتعرض فيها لإصابة مهما كانت تافهة. وفى هذه الأيام لم يكن علاج الهيموفيليا متطوراً، ولم يكن مقدراً لفون أن يعيش لأبعد من مرحلة الطفولة. ومع ذلك فلقد عاش فون بفضل الصلوات وبفضل حوالى ٥٠ جالون من الدم كان قد تم نقله إليه حتى وصوله إلى سن المراهقة.

وطوال فترة المراهقة عندما كانت حياة «فون» تتأرجح بين الأمان والخطر، كان دائماً يجد بجواره فتاته المحبوبة «جوان». وكانت «جوان» تدرك تماماً أن مستقبل «فون» غير مضمون، ولكنها كانت تحبه من كل قلبها. فصمما أن لا يسمحا للهيموفيليا بأن تتحكم فى مسار حياتهما. فتزوجا وهو فى الثانية والعشرين من عمره، وكانت «جوان» فى التاسعة عشرة.

وبعد بضعة سنوات حدثت أزمة جديدة بينما كانت «جوان» حامل فى ابنهما الثانى. فلقد مرضت «جوان» مرضاً خطيراً وتم تشخيصه بأنه مرض «هودجكين»، وهو نوع من أنواع السرطان التى تصيب الغدد الليمفاوية، وفى تلك الأيام كان يعتبر مرض قاتل. ولم يتمكن الأطباء من وصف أى علاج لها بسبب الحمل. وبالطبع، كان من الممكن لها هى وفون أن يجهضا الجنين، ولكنهما اختارا أن يضعا نفسيهما فى يدى الرب.

وبدأ الزوجان يطلبان معجزة، وسرعان ما تحققت لهما. فبعد بضعة أسابيع من التشخيص المبدئى، أعادت المستشفى الفحوصات والاختبارات المعملية، وقرر الأطباء أنه لم يكن هناك أى أثر لمرض «هودجكين». فلقد برئت ولا زالت بصحة جيدة حتى يومنا هذا.

والآن، لنلاحظ ما الذى حدث فى هذه الحالة. لقد ولد «فون» كما رأينا بمرض مؤلم وخطير. ولقد صلى أبوه، وهو خادم أمين للرب، وأمه بلجاجة من أجل هذا المرض. وقد طلبا مراراً وتكراراً من الرب أن يشفى ابنهما. وعندما كبر «فون» بدأ يصلى من أجل نفسه. ثم جاءت «جوان» وانضمت إلى الفريق. وعلى الرغم من تضرعات هؤلاء مع كثيرين غيرهم، فإن الرب اختار ألا يشفى «فون» من مرض الهيموفيليا. ولا زال اليوم وهو فى السادسة والخمسين من عمره يعانى من نفس المرض ويتألم يومياً من تأثر حركة المفاصل وغيرها من المتاعب الجسمانية. لقد ظل «فون» لسنوات طويلة يتلقى العلاج يومياً لمجرد أن يتعايش مع الألم. ومع ذلك فإن روحه المرتفعة التى لا تقهر كانت شهادة لى ولكثيرين غيرى عبر السنين.

فلماذا لم يشأ الرب أن يشفى ذلك الرجل التقى؟ لست أعلم. قد يقول البعض أن الفريق الذى كان يصلى من أجله يعوزه الإيمان، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين صلوا من أجل «جوان» فشفيت كنتيجة لطلباتهم. نفس الأشخاص الذين طلبوا من أجل جوان هم الذين يصلون من أجل فون. ولكن مرة كانت الإجابة نعم، والمرة الأخرى كانت الإجابة لا. وهكذا استمرت الحياة. ولم يعط الرب أى شرح أو تفسير لإجابته سوى أن هذه هى إرادته لهم.

من هذه الحالة وغيرها من الحالات العديدة التى تصادف الجنس البشرى، يمكن استنتاج شىء واحد فقط وهو: أن الله يعمل الأفضل وأننا يجب أن نستمر نثق فيه بغض النظر عن النتيجة.

فإلى السيدة المتألمة التى توفى زوجها حديثاً بمرض السرطان، أقدم هذه الكلمة: إن الآب السماوى لم يفقد التحكم فى ظروفك، حتى وإن كانت تبدو مثل عاصفة هوجاء لا يمكن ضبطها. إنه موجود فيها. فتمسكى بإيمانك فى وسط هذه الأسئلة الحائرة، ولابد أنك فى يوم ما ستعرفى قصده، وعندئذ ستكون الأبدية بأكملها لتناقشى هذه الأمور. فإلى أن يجىء ذلك اليوم، أصلى إلى الرب أن يساعدك لكى تتحملى هذا الفقد المأسوى، أو دعينى أقول هذا الانفصال المؤقت عن شريك حياتك.

السؤال الثانى:

إنى أعرف أن الله يستطيع أن يصنع المعجزات، بل وأن يقيم الموتى أيضاً. ومع ذلك فإنى أعترف أنى لا أستطيع بسهولة أن أعتمد عليه عندما أجتاز فى ظروف صعبة. فهل هذا يدل على ضعف الإيمان؟

الإجابة:

كإجابة مباشرة على سؤالك، أعتقد أنك تخلط بين مفهوم الإيمان ومفهوم الثقة. ويوجد تشبيه قديم يساعد على توضيح هذين المفهومين. تخيل نفسك بالقرب من شلالات نياجرا على الحدود بين كندا وأمريكا. وتخيل أن لاعب سيرك قد نصب

حبلا عبر الشلالات بهدف أن يقطع المسافة بين النقطتين دافعاً أمامه عربة صغيرة ذات عجلة واحدة. وإذا فقد لاعب السيرك هذا توازنه فإنه لا بد أن يغرق فى المياه الطامية أسفله. وقبل أن يخطو على الحبل، التفت الرجل الشجاع نحوك وسألك: «هل تظن أنى أستطيع أن أؤدى هذه اللعبة؟».

سوف تجيبه فى الحال: «نعم، فإن شهرتك ذائعة فى كل مكان، إنى متأكد تماماً أنك تستطيع أن تمشى فوق الحبل المشدود». وبعبارة أخرى فأنت لديك **الإيمان** بأنه سينجح فى مهمته.

ولكنه يعود فيقول لك: «إذا كنت متأكداً حقاً أنى أستطيع ذلك، فما رأيك أن تركب فى العربة وتعبر معى إلى الجانب الآخر؟». لكى تقبل هذه الدعوة فأنت تحتاج إلى ثقة شديدة.

هكذا ليس من الصعب علينا أن نؤمن أن الله يستطيع أن يصنع العجائب. فإنه هو الذى خلق الكون كله من العدم. إنه يستطيع أن يفعل أى شىء يريده. فالإيمان به هو مسألة بديهية لا تحمل أى مخاطر.

أما الثقة فيه، فإنها تأخذنا إلى خطوة أبعد. فهى تتضمن عنصر المخاطرة. إنها تتطلب منا أن نعتمد عليه ونثق أنه يحفظ الوعود حتى فى عدم وجود أى دليل. إنها الاستمرار فى الإيمان حتى عندما تشير الأدلة إلى الاتجاه العكسى. إنها الركوب فى العربة ذات العجلة الواحدة للقيام بالرحلة الخطرة عبر الشلالات. إنى أعتقد أنه فى وقت الأزمات لا يكفى الإيمان بالله، بل يلزم أيضاً أن نثق فيه تماماً من جهة حياتنا نفسها. هذا درس يجب أن نتعلمه، وإن كان البعض يجدون صعوبة فى تعلمه أكثر من غيرهم بحكم استعدادهم الشخصى.

السؤال الثالث:

توجد أوقات أشعر فيها بالقرب الشديد من الرب، وألمس فيها رضاه على حياتى، بينما فى أوقات أخرى، أشعر وكأنه على بعد ملايين الأميال. فكيف يمكن أن أتمتع بالثبات فى حياتى الروحية إذا كان حضور الرب ليس ثابتاً؟

الإجابة:

إن حضور الرب ثابت، ولكن إحساسك بحضوره هو الذى يتغير. فإذا كانت مسيرتك الروحية تعتمد على المد والجزر فى مشاعرك، فإن إيمانك سيتذبذب صعوداً وهبوطاً مثل المركب التى تسير فى بحر عاصف. فليس هناك فى الاختبار البشرى شيئاً لا يمكن الاعتماد عليه مثل المشاعر. فهى تتغير من يوم إلى يوم. ولذلك ينبغى أن نؤسس إيماننا على تصميم قوى من الإرادة، فى حياة الصلاة، وفى الدراسة الدقيقة للكتاب المقدس.

وهناك عنصر آخر فى منتهى الأهمية لفهم تدخلات الله فى أمور البشر. وهو العنصر المختص بالدورة الطبيعية فى حياتنا، أى التغير الدورى لعواطفنا وظروفنا من الإيجابى إلى السلبى وبالعكس. فإننا نادراً ما نقضى أكثر من أسبوعين فى هدوء قبل أن يحدث خلل ما. إما أن الأمطار تتسرب من سقف المنزل، وإما أن السيارة تحتاج إلى إصلاح، أو أن الأطفال يصابون بالجديرى، أو أن تحدث مشاكل فى العمل. هذه هى طبيعة عالمنا الذى يتصف بعدم الكمال.

ولعله من المعزى لنا نحن الذين نعانى من التغير المستمر فى هذا العالم، أن نعرف أن نفس هذه الظروف المتأرجحة قد

عاشها يسوع هنا على الأرض. لقد بدأ خدمته رسمياً عند نهر الأردن، حيث اعتمد من يوحنا. فلابد أن هذا اليوم كان أجمل أيامه على مدار الثلاثين سنة التى قضاها على الأرض. يخبرنا البشير متى أنه «لما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتياً عليه، وصوت من السماء قائلا هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت» (مت ٣:١٦-١٧).

ياله من اختبار رائع. فليست هناك كلمات يمكننا بها أن نصف قيمة هذه المسحة من الله الآب لمسيحه، وإعلانه عن سروره به بهذه الطريقة. ولكن انظر ماذا يقول فى العدد التالى مباشرة: «ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس» (متى ٤:١). أليس هذا مثيراً أن يسوع يؤخذ من أجمل اختبارات حياته مباشرة إلى واحدة من أصعب المحن التى كان عليه أن يجتازها، إذ دخل فى مواجهة عنيفة لمدة ٤٠ يوم مع الشيطان؟ لاحظ أيضاً أنه لم يضل طريقه فى البرية، كما أنه لم يذهب إلى هناك بناء على تخطيطه الشخصى. ولكنه ذهب إلى هناك منقاداً بالروح القدس لكى يجرب من إبليس!

كانت هذه هى البداية. ومن بعدها ظلت هذه المتناقضات هى الطابع المميز لحياته طوال مدة خدمته على الأرض. فبعد الفترة الصعبة التى قضاها فى البرية، بدأ ينال مدح واستحسان الجموع، إذ انتشر الخبر بأن «نبياً» فى وسطهم. ولك بالطبع أن تتخيل المشاهد الهستيرية التى حدثت عندئذ إذ كان المرضى والمشلولين يتزاحمون لكى يدنوا منه.

ثم بدأ رؤساء الكهنة والفريسيون يدبرون الخطط ليقتلوا يسوع. فها هو مرة أخرى قد تحول إلى إنسان

مكروه ومطلوب القبض عليه. وقد حاولوا مضايقته فى كل مكان يذهب إليه. وهكذا ظل تارة يتعرض للمدح من الجموع، وتارة أخرى يتعرض للحقد من القادة الدينيين.

ودعونا ننتقل إلى المشاهد الأخيرة من حياة يسوع على الأرض. جاءت الجموع لاستقباله عند دخوله إلى أورشليم هاتفين: «أوصنا، مبارك الآتى باسم الرب ملك إسرائيل» (يوحنا ١٢:١٢). ولكن بعد أيام معدودة اجتاز فى المحنة الرهيبة التى أحاطت بتسليمه ومحاكمته، فكان أن نفس الناس الذين هتفوا له، أصبحوا الآن يطالبون بصلبه. وصلبوه بين لصين على جبل الجلجثة. كان هذا هو اليوم الأكثر إظلاماً فى تاريخ البشرية، ولكن بعده بثلاثة أيام كان أعظم خبر سمعه البشر. وبعدها، حصل ١٢٠ من التلاميذ على معمودية الروح القدس فى يوم الخمسين الذى كان يوم ميلاد الكنيسة. وبعد ذلك بفترة قصيرة حدث اضطهاد مريع على المؤمنين واستشهد الكثيرون. وهكذا كانت تحدث أحداث مفرحة فى يوم، وأحداث مؤسفة فى اليوم التالى. يعقوب يموت بسيف هيرودس، أما بطرس فينجو بمعجزة. وظل المسيحيون الأوائل يمرون بلحظات فرح وبأوقات تذلل أثناء كفاحهم لتأسيس الكنيسة.

وما أردت أن أوضحه من هذا التقلب فى المواقف سواء فى حياة يسوع على الأرض، أو فى حياة المسيحيين الأوائل، هو أن ليس هناك ثبات ولا استقرار فى هذا العالم غير الكامل. وهذا نفس ما يحدث معك ومعى. لابد أن تصادفنا أشياء غير متوقعة وغير مستقرة وغير مريحة. فى بعض الأيام سنكون فوق قمم الجبال، وفى أيام أخرى سنجد أنفسنا فى أسافل الوديان. فمن أين يأتى الثبات فى مثل هذا العالم

الذى تسوده الفوضى والاضطراب؟ إنه يأتى فقط بأن نضع إيماننا فى الرب السرمدى غير المتغير، الذى وعوده لا تفشل ومحبته لا تنقص. فإنه يمكن أن يكون لنا الفرح والرجاء الثابتين كشروق الشمس حتى عندما يتحول طابع الأحداث حولنا من الرائع إلى المأسوى. هذا ما يعلمنا إياه الكتاب المقدس، إذ أن سلام الله متاح للذين يختارون أن يأخذوه.

السؤال الرابع:

لقد سمعت كثيراً أن الله لن يتركنا عندما نجتاز فى أتون النار. ولكنى لا أعرف ماذا يعنى ذلك. فلقد أوضحت أنه قد يسمح لنا أحياناً أن نمر بأوقات عصيبة. فما الذى يمكننا أن نتوقعه منه فى هذه الأوقات؟

الإجابة:

قد لا أجد الكلمات التى أعبر بها عما يحدث للأمناء فى أوقات التجربة. فهو فى الحقيقة أمر لا يعبر عنه. ولكن دعنى أقولها ببساطة، أنه يحدث غالباً نوع من الإدراك الهادىء فى وسط الفوضى، الإدراك بأن الرب فى هذا الأمر وأن السلطان لا يزال فى يده. هذا ما وصفه ملايين من الناس عن الحضور الإلهى المستمر فى مثل هذه الظروف. وفى أحيان أخرى فإنه يسمح لنا بأن نبصر محبته بطريقة فريدة فى أشد لحظات الاحتياج.

أتذكر الآن ذلك الحادث المأسوى الذى راح ضحيته أربعة من أعز أصدقائى فى حادث طائرة خاصة سنة ١٩٨٧. كنا معاً

فى الليلة السابقة للحادث، وصلينا من أجل سلامة الرحلة. وفى الصباح الباكر أقلعوا راجعين إلى دالاس. ولن أنسى أبداً تلك المكالمة التليفونية التى أبلغتنى باكتشاف حطام الطائرة فى أحد الوديان النائية، مع عدم وجود أى من الناجين! كان هؤلاء الرجال بالنسبة لى أكثر من إخوة، لقد فقدت الكثير برحيلهم.

وقد طلبت منى العائلات الأربعة أن ألقى كلمة مختصرة فى جنازتهم. فالموت غير المتوقع لهؤلاء الرجال المحبوبين الممتلئين بالنشاط والحيوية، كان يطلب تفسيراً. أين الله فى هذا الظرف؟ لماذا سمح بهذه الحادثة؟ لماذا أخذ مثل هؤلاء الرجال الأتقياء من عائلاتهم وتركهم يعانون الألم والحزن؟ لم تكن هناك أية إجابة على هذه الأسئلة المريرة، ولم أحاول أن أجد إجابة. ولكنى قلت أن الله لم يفقد سلطانه على حياتهم، وأنه يريدنا أن نثق فيه حتى عندما تبدو كل الأشياء غير مفهومة. فإن حضوره قريب جداً.

ولدى خروجنا من الكنيسة فى ذلك اليوم، وقفت أتكلم مع بعض الأصدقاء الذين تجمعوا لوداع أحبائنا. وفجأة أشار أحدهم بإصبعه إلى السماء قائلا: «انظر هذا!». فوق برج الكنيسة مباشرة كان يوجد قوس قزح صغير فى شكل ابتسامة. لم تكن هناك أمطار فى ذلك اليوم، بل مجرد سحب قليلة. ومع ذلك فإن هذا القوس الجميل ظهر فوق الكنيسة. وكأن الله كان يريد أن يقول للزوجات والأولاد المتألمين: «كونوا فى سلام. رجالكم عندى، وهم بخير. أنا أعرف أنكم لن تفهموا هذا الأمر، ولكنى أريدكم أن تثقوا فى. أنا بنفسى سأعتنى بكم، وها هو قوس قزح علامة للتذكرة».

وقد تمكن واحد من الحاضرين أن يلتقط صورة فوتوغرافية فى هذه اللحظة. وبعد طباعة الفيلم فوجئنا جميعاً فى وسط قوس قزح بصورة طائرة صغيرة تصادف مرورها فى هذه اللحظة.

ربما يقول الناس المتشائمون أو الشكاكون أن قوس قزح والطائرة هى مجرد مصادفات ليس لها أى مغزى روحى. هم أحرار فى أرائهم. ولكن بالنسبة لكل فرد من أفراد الأسر الأربعة الجريحة، وبالطبع بالنسبة لى أنا أيضاً، استخدم الرب هذه الظاهرة لتوصيل سلامه لنا جميعاً. وقد تمم الله وعده فى العناية بتلك الأرامل الأربعة وبأطفالهن.

وتوجد أمثلة أخرى تستحق التأمل. نجت «ساندرا لاند» وأسرتها من إعصار أندرو الذى حدث فى جنوب فلوريدا بأن قضت الليل كله فى مخبأ. وقد عادوا إلى المنزل فى صباح اليوم التالى ليجدوا كل شىء وقد دمره الإعصار باستثناء بعض الجدران الداخلية للمنزل. وفى قمة ذهولها وحيرتها أخذت «ساندرا» تتجول بين حطام المنزل، فإذا بها تجد آية لاصقة كانت قد ثبتتها على جدار المطبخ، وكانت لا تزال فى مكانها على الحائط: «قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه». وعلى الجدار المتبقى من الحمام وجدت آية أخرى كانت قد علقتها هناك: «احمدوا الرب لأنه صالح». وفهمت «ساندرا» الرسالة.

وأخيراً، فلقد اختبرت أنا شخصياً هذا الحضور الإلهى فى وسط عاصفة من نوع آخر. فى ١٥ أغسطس ١٩٩٠، كنت ألعب مباراة كرة سلة فى الصباح الباكر كعادتى. ففى سن الرابعة والخمسين كنت أظن أنى لا زلت أتمتع بلياقة بدنية عالية. كنت قد أجريت فحصاً طبياً من وقت قريب وأكدت النتائج أنى بصحة ممتازة. كان فى استطاعتى أن ألعب كرة

السلة مع شباب يصغروننى بعشرين سنة بلا أدنى مشاكل. ولكن فى هذا الصباح كانت تنتظرنى مفاجآت غير سارة. فلقد شعرت فجأة بألم بسيط فى منتصف الصدر. فاستأذنت من أصدقائى واعتذرت لهم بأنى لست على ما يرام. واتجهت إلى أقرب مستشفى، حيث قضيت ١٠ أيام غيرت حياتى.

كانت صدمة كبيرة لمن كان يظن نفسه أنه لا يزال شاباً، أن يعترف بأنه يقف وجهاً لوجه أمام الموت. لقد احتجت بعض الوقت لكى أستوعب هذه الفكرة. وقضيت أول أمسية لى فى قسم القلب فى إعداد كتاب جديد كنت أكتبه مع «جيرى باور» بعنوان «أطفال فى خطر». وجعلت الممرضات يلصقن على الحائط خمس تصميمات مقترحة للغلاف، وكلما دخل أحد أعضاء فريق المستشفى كنت آخذ رأيه عن الغلاف الأفضل. وانشغلت بالكتابة طوال فترة المساء. ولكن عندما ظهرت نتائج التحاليل قرب منتصف الليل وأكدت أنى أعانى من بعض التلف فى عضلة القلب، أيقنت أن الأمر خطير. وقد عرفت بعد ذلك أن الشريان الأمامى الأيسر الهابط، وهو الشريان الذى يسميه أطباء القلب باسم «صانع الأرامل»، كان مسدوداً تماماً.

وفى الحال جاء الأطباء من كل أنحاء المستشفى. وتم تركيب الأنابيب والخراطيم فى جسمى. وكان جهاز ضغط الدم الأوتوماتيكى يقبض بقوة على ذراعى كل خمس دقائق طوال الليل. وقد اقترحت إحدى الممرضات بكل رقة ألا أتحرك إلا للضرورة القصوى. وبينما كنت راقداً هكذا فى الظلام أستمع إلى الصوت الصادر من جهاز النبض، بدأت أفكر فى الناس الذين أحببتهم وأى الأشياء كانت لها قيمة حقيقية وأى الأشياء كانت بلا قيمة.

ولحسن الحظ، فلقد كانت إصابتى بسيطة، وقد برئت منها تماماً. والآن فإنى أمارس الرياضة لمدة ساعة فى كل صباح، ولكنى مضطر إلى تناول إفطاراً من الحبوب أقرب إلى طعام الطيور. فلقد كنت قبلا مغرماً بأكل اللحوم، ولا زلت غير متحمس لأكل الكرنب والقرع والخس، وهى الأشياء التى كانت منذ بضعة سنوات كفيلة بأن تجعلنى أتقيأ. فإنى لست مقتنع بأن الله قد قصد للرجال البالغين أن يأكلوا مثل الأرانب والسناجيب. ولكن بالطبع هناك مكان فى خطته للبيتزا والفطائر والآيس كريم وكعكة الكريز! ومع ذلك فإنى مضطر اليوم أن أتناول ما يفرضه على بعض علماء التغذية الذين يبدو عليهم أنهم لم يتناولوا وجبة حقيقية طوال حياتهم. ولكن يبدو أنى تأقلمت حتى على هذه الأطعمة، فيما عدا الزبادى!

وأثناء هذه الأيام التسعة الأخيرة فى قسم القلب بالمستشفى، كنت مدركاً تماماً لما يعنيه هذا المرض. فلقد رأيت أبى وأربعة من أشقائه يموتون بنفس هذا المرض. وفهمت أن حياتى على الأرض قد تكون فى نهايتها. ومع ذلك فقد كنت أشعر بهذا السلام الذى يفوق كل عقل الذى تكلمت عنه سابقاً. كان هناك آلاف من الأشخاص يصلون من أجلى فى جميع أنحاء البلاد، وكأنى كنت موضوعاً بعناية أمام الرب. لقد عشت حياتى بطريقة تجعلنى مستعداً لهذه اللحظة، وكنت أعرف أن خطاياى قد غفرت. هذه المعرفة لا تقدر بثمن عندما تكون كل الأشياء مكشوفة.

ومع ذلك ففى إحدى المراحل بدأت ثقتى تهتز. ففى اليوم السابق لخروجى من المستشفى أجريت رسم للأوعية الدموية لتحديد حالة شبكة الشرايين وحجم التلف فى القلب.

وقد كانت التقارير المبدئية لهذا الفحص لا تدعو للاطمئنان على عكس ما ثبت بعد ذلك. وقد لاحظت ذلك على أوجه الفنيين. وسمعت طبيبة يابانية شابة تقرأ التقرير وتعلق بالانجليزية الركيكة قائلة: «أوه، هذا ليس حسناً». وكانت على وشك أن تقول: «هذا سوف يقتلك».

وأعادونى مرة أخرى إلى حجرتى وتركونى أفكر فى مصيرى. ولأول مرة منذ بداية هذه المحنة وجد القلق طريقه إلى نفسى. فإن الطب الحديث كثيراً ما يرعب بدلا من أن يطمئن. وكثيراً ما تأتى التقارير المبدئية غير أكيدة فتؤدى إلى توتر الأعصاب. وبينما كنت أدور فى هذه الدوامة منتظراً حضور طبيبى المعالج، نطقت بصلاة قصيرة وغير مرتبة من أعماق قلبى. قلت: «يارب، أنت تعرف ما هى حالتى الآن بالضبط. وأنت تعرف أنى أشعر بالاكتئاب والوحدة الشديدة الآن. فهل ترسل لى شخصاً يمكنه أن يساعدنى؟»

وبعد وقت قصير، جاءنى صديق عزيز هو «الدكتور جاك هايفورد» راعى «كنيسة على الطريق» وكاتب وواعظ معروف فى التليفزيون. وقد استقبلته بحرارة وقلت له: «ياجاك، إن كنيستك على الجانب الآخر من المدينة. فما الذى جعلك تقطع هذه المسافة وتأتى لزيارتى اليوم؟» ولم أخبره شيئاً عن الصلاة التى رفعتها.

ولن أنسى أبداً ما أجابنى به عندئذ. قال: «لقد أخبرنى الرب أنك تشعر بالوحدة».

هذا هو الإله الذى نعبده. لقد أرسل فى محبته الشديدة هذا الشخص التقى لكى يشجعنى قبل أن أطلب منه العون. والآن بالطبع، فإن الرب لا يحل دائماً مشاكلنا فى الحال، وهو

أحياناً يسمح لنا بالعبور فى وادى ظل الموت. ولكنه معنا هناك حتى فى أحلك الساعات، ولا يستطيع أحد أن يفصلنا عن محبته الكاملة. لقد أحاطنى بهذه المحبة طوال مدة إقامتى فى المستشفى.

وقد كان للمزمور ٧٣:٢٣-٢٦ أثر كبير فى نفسى أثناء فترة النقاهة. وأعتقد أنك ستفهم السبب. ها هى كلماته:

"ولكنى دائماً معك؛ أمسكت بيدى اليمنى. برأيك تهدينى، وبعد إلى مجد تأخذنى. من لى فى السماء؟ ومعك لا أريد شيئاً فى الأرض. قد فنى لحمى وقلبى، صخرة قلبى ونصيبى الله إلى الدهر"

السؤال الخامس:

هل تظن أن الرب لا زال يجرى المعجزات، أم أن عصر المعجزات قد انتهى؟

الإجابة:

ليس لدى شك فى أن المعجزات لا زالت تجرى فى أيامنا، على الرغم من تحفظى، كما سبق أن أشرت، بشأن الأشخاص الذين يتاجرون بها حسب الرغبة. وقد أتيحت لى الفرصة أن أشاهد بعض الأعمال العجيبة لله فى حياتى وفى حياة المقربين منى. وإحدى هذه الحالات قد حدثت مع صديق لى اسمه «جيم ديفيس» عندما كان يزور مع أسرته منطقة Yellowstone National Park فى سنة ١٩٧٠.

وبعدها بوقت قصير كان «جيم» ضيفاً على محطة إذاعة Focus on the Family وقد شارك اختباره مع مستمعينا. قال:

لقد نشأنا أنا وزوجتى فى أسرتين مؤمنتين، وقد سمعنا كثيراً عن قوة الصلاة، إلا إننا لم نكن نعيش حياة مسيحية مثالية. فلم نكن نصلى معاً، ولم يكن لنا مذبح عائلى فى بيتنا. وبعد ذلك بفترة قصيرة تعرفت زوجتى بالرب وسلمت حياتها له بطريقة رائعة، وبدأت تصلى من أجلى. فاشترت لى كتاباً مقدساً يحتوى على مراجع، فبدأت أدرس الكلمة. وقد بدأت بعض الأشياء تتغير داخل قلبى، إلا أنى لم أكن بعد ناضجاً روحياً.

وفى هذا الصيف ذهبنا فى أجازة إلى منطقة Yellowstone National Park مع أربعة أزواج آخرين. وفى أول يوم لنا ذهب البعض فى قارب صغير للصيد، فاصطادت واحدة منهم سمكة سلمون كبيرة، وبينما هى تميل لتلتقط السمكة سقطت نظارتها الطبية وغاصت فى الحال إلى قاع البحيرة. فاضطربت السيدة جداً لأنها لم تكن تستطيع أن تعمل أى شىء بدون النظارة، وكانت أيضاً تصاب بصداع شديد عندما لا ترتديها.

وفى هذا المساء، كان الجميع يتحدثون عن النظارة، وكيف أنه من سوء الحظ أنها قد ضاعت. فقالت زوجتى للسيدة: "لا تقلقى، فإن جيم غواص ماهر، سيذهب ليحضرها لك".

أجبت قائلا: "إنى أشكرك! ألا تعلمين أن شاطىء بحيرة Yellowstone يمتد بطول ١٧٢ ميل

وأن كل الأشجار هنا متشابهة تماماً؟ فكيف يمكننى أن أحدد بالضبط أين كان هؤلاء الرجال عندما سقطت النظارة؟ ثم إن المياه هنا باردة جداً، حتى أنه ليس مسموحاً ولا بالانزلاق على الماء، فكم بالحرى الغوص، بالإضافة إلى أنى لم أحضر الرداء الكامل للغوص، فقط لدى الزعانف وأنبوب التنفس".

ولكن اعتراضاتى وقعت على آذان صماء. وقالت لى زوجتى على انفراد أنها سوف تصلى لكى يساعدنى الرب على الوصول إلى النظارة.

وفى الصباح التالى، كنت لا أزال متشككاً. ولكننا صعدنا إلى القارب وابتعدنا عن الشاطىء حوالى نصف ميل. فسألت الرجال: "أين تظنون أن النظارة قد سقطت؟". قال أحدهم: "أعتقد أنها بالقرب من هذا المكان". فنزلت إلى الماء، وكان شديد البرودة. وأمسكت بالحبل وبدأ القارب يجذبنى فوق سطح الماء بينما كنت أحملق فى القاع. وقطعنا مسافة ٥٠ قدم ورجعنا مثلها، وبعد حوالى ٢٠ دقيقة من البحث المستمر كنت أكاد أتجمد. فصليت صلاة قصيرة وقلت: "يارب، إذا كنت تعرف أين توجد هذه النظارة، أرجوك أن تخبرنى، فإن البحيرة واسعة جداً.

وجاءنى صوت هادىء فى ذهنى يقول: "إنى أعرف تماماً أين هى. هيا اصعد إلى القارب وسأقودك إلى هناك". ولم أجرؤ أن أقول لأحد هذا الكلام، ولكنى بعد ٢٠ دقيقة أخرى كنت قد بدأت أرتجف، فقلت: "يارب، إذا كنت لا تزال تعرف أين توجد النظارة، فسأصعد إلى القارب".

وناديت على أصدقائى وقلت لهم: "ليس هذا هو المكان الصحيح، هيا بنا إلى تلك البقعة". وأشرت إلى نقطة ظننت أن الرب يوجهنى نحوها. قال السائق: "لا، لم نكن على مسافة بعيدة هكذا". ولكننا وصلنا إلى النقطة المحددة، فقلت لهم: "قفوا هنا، هذا هو المكان". وقفزت مرة أخرى إلى الماء، ونظرت إلى أسفل. لقد كنا فوق النظارة مباشرة. فغصت إلى العمق وصعدت فى الحال حاملا النظارة الثمينة. لقد كانت هذه واحدة من أوضح الإجابات للصلاة التى اختبرتها فى حياتى، وقد ساهمت هذه الحادثة فى اشتعال حياتى الروحية عندئذ. بالإضافة إلى أنها كانت شهادة قوية لزوجتى ولجميع أصدقائى. ولن أنسى أبداً ما حييت تلك النظارة وهى تلمع فى قاع بحيرة "ييلوستون".

ومهما كانت هذه القصة تبدو مثيرة، إلا أننى شخصياً أستطيع أن أشهد على صحتها كما رواها جيم. فإن شهود كثيرين يتذكرون ذلك اليوم المشهود على بحيرة «ييلوستون». ولكن الشىء الذى لا أعلمه هو لماذا اختار الله أن يعلن عن نفسه بهذه الطريقة، ولماذا لا يفعل ذلك دائماً. من الواضح أن الله له مقاصد وخطط ليس لنا حق الاطلاع عليها.

ولا يسعنى إلا أن أروى حادثة أخرى تعتبر من أوضح الأمثلة للتدخل الإلهى. حدثت هذه الحادثة فى سنة ١٩٤٥، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة. اعتزم قس شاب اسمه «كليف» وخطيبته أن يتزوجا على الرغم من ضعف مواردهما المالية. فجمعا معاً ما استطاعا من المال لعمل حفل زفاف بسيط واشتريا تذكرتين فى القطار للتوجه إلى إحدى المدن التى كان أحد الأصدقاء قد دعاهما إليها لعمل نهضة.

فتخيلا أنه في استطاعتهما أن يجمعا بين هذه المسئولية وبين شهر العسل بأن يستأجرا غرفة فى فندق رخيص قريب من هذا المكان.

ونزل العروسان من القطار، واستقلا عربة إلى الفندق، وهناك عرفا أن الفندق قد أصبح تحت تصرف القوات المسلحة كمركز للتأهيل، وأنه لم يعد يستقبل النزلاء. وهكذا وجدا نفسيهما فى مدينة غريبة ولا يملكان سوى بضعة دولارات قليلة. فلم يجدا أمامهما سوى أن يحاولا إيجاد مواصلة على الطريق السريع الموازى. وسرعان ما وقفت لهما سيارة، وسألهما السائق أين يريدان الذهاب. قالا له: «لسنا نعرف» وشرحا له المأزق الذى كانا قد وقعا فيه. وشعر الرجل بالتعاطف معهما، واقترح عليهما أن يذهبا إلى محل بقالة تملكه إمرأة من معارفه يقع على بعد بضعة أميال، وفوق المحل توجد غرفتان يمكن استئجارهما بسعر رخيص. ولم يكن هناك مجال للاختيار.

وبالفعل فلقد استأجرا إحدى الغرفتين بخمسة دولارات، وأقاما هناك. وفى أول يوم قضت العروس الشابة أمسيتها فى العزف على البيانو، بينما كان «كليف» يعزف السكسافون الذى كان قد أحضره معه. وجلست صاحبة المنزل فى كرسيها الهزاز تستمع إلى الموسيقى، وإذ تحققت أنهما مسيحيان أرسلتهما إلى صديق استضافهما فى منزله بقية الشهر. وبعد بضعة أيام جاء مبشر شاب ليقدم عظات فى مركز مؤتمرات مسيحى بالقرب من المنطقة. وذهب «كليف» وعروسه إلى الاجتماع.

وفى تلك الليلة كان قائد الترنيم مريضاً، فطلبوا من «كليف» أن يقوم بالترنيم والعزف أثناء الاجتماع. ويالها

من مناسبة تاريخية! فلقد كان المبشر الشاب هو القس «بلى جراهام»، والعريس كان هو «كليف باروز». كان هذا هو أول لقاء بينهما، وعلى أساسه تكونت علاقة عمل مدى الحياة. فإن العالم المسيحى كله يعرف «كليف» وزوجته «بيل» اللذين أصبحا منذ تلك الليلة عضوين أساسيين فى مؤسسة بيلى جراهام التبشيرية. وقد استخدمهما الرب فى آلاف الحملات التبشيرية فى كل أنحاء العالم.

أليست هذه ملابسات مدهشة حقاً التى جمعت بين أعضاء مستديمين فى فريق خدمة واحد؟ ربما يقول البعض أن هذه مجرد مصادفة، ولكنى لست متفقاً معهم. فإنى أعرف يد الرب تماماً عندما أراها.

هل لازالت المعجزات تحدث فى زماننا كما فى أزمنة الكتاب المقدس؟ نعم، ولكنها غالباً ما تحدث بطريقة خاصة بحيث تظل هناك الحاجة للإيمان. وحتى الذين يشاهدونها فإنهم يحتاجون أن يختاروا إما أن يصدقوها أو لا يصدقوها. وبالنسبة لى فإنى أختار أن أصدق!

السؤال السادس:

فى كل مرة يتكلم المؤمنون عن الألم، لابد وأن يقتبس أحدهم من رومية ٨ :٢٨؟ "ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده". ولكن كيف يمكن تطبيق ذلك حرفياً؟ ألا يجتاز المؤمنون فى نفس التجارب مثل غير المؤمنين؟ فكيف إذاً يمكننا أن نقول أن كل شدائدهم "تعمل معاً للخير"؟

الإجابة:

يجب أولا أن نلاحظ أن الرسول بولس لم يقل هنا أن كل الأشياء حسنة، كما أنه لم يفترض أن الموت والمرض والحزن هى فى حقيقة الأمر أشياء جيدة، ولكنها متنكرة فى غلاف مؤلم. كلا، ولكنه يقول أن الله قد وعد بأن يستخدم هذه الشدائد، وأن يخرج منها ما هو للخير. فطالما أن ما يصيبنى هو فى إطار المشيئة الكاملة للآب، فليس لى أن أخاف، مهما كلفنى الأمر، حتى ولو كلفنى حياتى. فهى مسألة إيمان، أن نثق أنه يصنع الأفضل، حتى إذا كان ذلك الأفضل لا يتفق مع رغباتنا أو مع ما هو شائع فى زماننا.

وسأجيب على السؤال بطريقة أخرى. فإن قوانين الفيزيقا تخبرنا أن الطاقة لا تفقد أبداً، وإنما تتحول فقط من صورة إلى أخرى. هذا ما يحدث أيضاً فى الاختبار البشرى. فليس هناك شىء مفقود تماماً، ولكن الله يستخدم كل حدث لكى يتمم مقاصده الإلهية. فعلى سبيل المثال، كما سبق أن ذكرت فى الفصل الأول كيف أن «جيم إليوت» ورفقاءه المرسلين قد تم إعدامهم بالسيف بواسطة الهنود الواورانيين فى إكوادور، وكيف أن تضحيتهم كانت تبدو وكأنها مأساة بحتة وإهدار للنفس البشرية بلا أى معنى. ولكن فى مخطط الله، كان لهذه التضحية معنى كبير. فلقد أقبل جميع هؤلاء الهنود فى السنوات التالية إلى معرفة الرب يسوع المسيح كمخلص شخصى لهم. ولقد تأصل الإنجيل بعمق بين قبائلهم. وهكذا يحق لإليوت ورفقائه أن يبتهجوا طوال الأبدية مع الرجال الذين قتلوهم. هذا هو «الخير» الذى تتكلم عنه رومية ٨:٢٨. لذلك يجب تطبيق هذا الشاهد من وجهة النظر الأبدية، وليس من المنظور الزمنى المرتبط بالأرض.

وتوجد أمثلة أخرى عديدة. لعلكم تذكرون اسطفانوس، وهو أول مؤمن يموت شهيداً فى الأيام التالية لصلب يسوع. فما هو الخير الذى تحقق من رجم ذلك الرسول الأمين؟ حسناً، لقد جعل المؤمنين الأوائل يهربون من الاضطهاد الرومانى. ومع ارتحالهم نقلوا الأخبار السارة الخاصة بموت المسيح وقيامته إلى جميع أنحاء العالم المعروف عندئذ. وهكذا تأسست الكنيسة فى العديد من المدن والبلدان التى كان من المستبعد أن تصل إليها بشارة الإنجيل.

ودعونا نذكر مثالا أقرب إلى واقعنا. فمنذ بضعة شهور تلقيت مكالمة تليفونية هنا فى Focus on the Family من السيد «جريج كربس». كان يريد أن ينقل لى رسالة، وهذا هو محتواها. كان للسيد «جريج» وزوجته ابن فى الحادية والعشرين من عمره اسمه «كريس»، وقد نصحهم الأطباء وهو بعد فى الرحم أن يجهضوا الجنين، ولكنهم اختاروا له أن يعيش وقد ولد بمرض الشلل الدماغى cerebral palsy مع تخلف عقلى. ومع ذلك فلم يندم والداه على قرارهم بإكمال الحمل، لأنهم كانوا يؤمنون بأن الحياة هى شىء ثمين. وهما يشكران الله من أجل ابنهما الذى لمس حياتهما بطرق عديدة وعجيبة. وكما يقول السيد «جريج»: «إن الله قد استخدمه كما هو».

ثم روى قصة حدثت عندما كان «كريس» فى السابعة من عمره. قال: «كانت زوجتى تعمل فى إحدى المستشفيات فى ذلك الوقت، وقد أخذت كريس معى وذهبت لاصطحابها فى العودة. وإذ تأخرت بعض الوقت انتظرت مع كريس فى غرفة الانتظار. وقد كان فى نفس الغرفة رجل فى ثياب رثة وتفوح منه رائحة كريهة بعض الشىء. فذهبت إلى قسم التمريض للسؤال عن زوجتى، ولدى عودتى وجدت «كريس»

جالساً بجوار الرجل، وكان الرجل ينتحب باكياً، فخشيت أن يكون «كريس» قد أذى مشاعره بصورة أو بأخرى. فبدأت أعتذر للرجل قائلا: «إنى متأسف، ربما ابنى قد أذى مشاعرك». فأجاب الرجل: «أذى مشاعرى؟ أذى مشاعرى؟ إن ابنك هو الشخص الوحيد الذى احتضننى طوال العشرين سنة الماضية!». ويضيف الأب قائلا: «فى هذه اللحظة أيقنت أن «كريس» كانت عنده محبة مسيحية تجاه هذا الرجل أكثر منى».

شكراً لكما ياسيد «جريج» أنت وزوجتك، لأنكما أحببتما ابنكما وشعرتما بقيمته على الرغم من إعاقته. وإنى متفق معكما تماماً أنه لا يوجد شخص بلا قيمة فى نظر الله. إن الله يحب كل واحد منا بنفس القدر. وهو يستخدم كل شخص، حتى المتخلف عقلياً، لإتمام جزء ما فى مشيئته. ولابد أنه سيستخدم آلامكما أيضاً، حتى وإن لم يكن من الممكن دائماً تفسيرها بطريقة مباشرة.

ومرة أخرى أقول، عندما نسلم نفوسنا لمشيئة الله القدير، فإننا نستطيع عندئذ أن نقول أنه فى جميع الأشياء، فإن الله يعمل من أجل خير الذين يحبونه، الذين هم مدعوون حسب قصده.

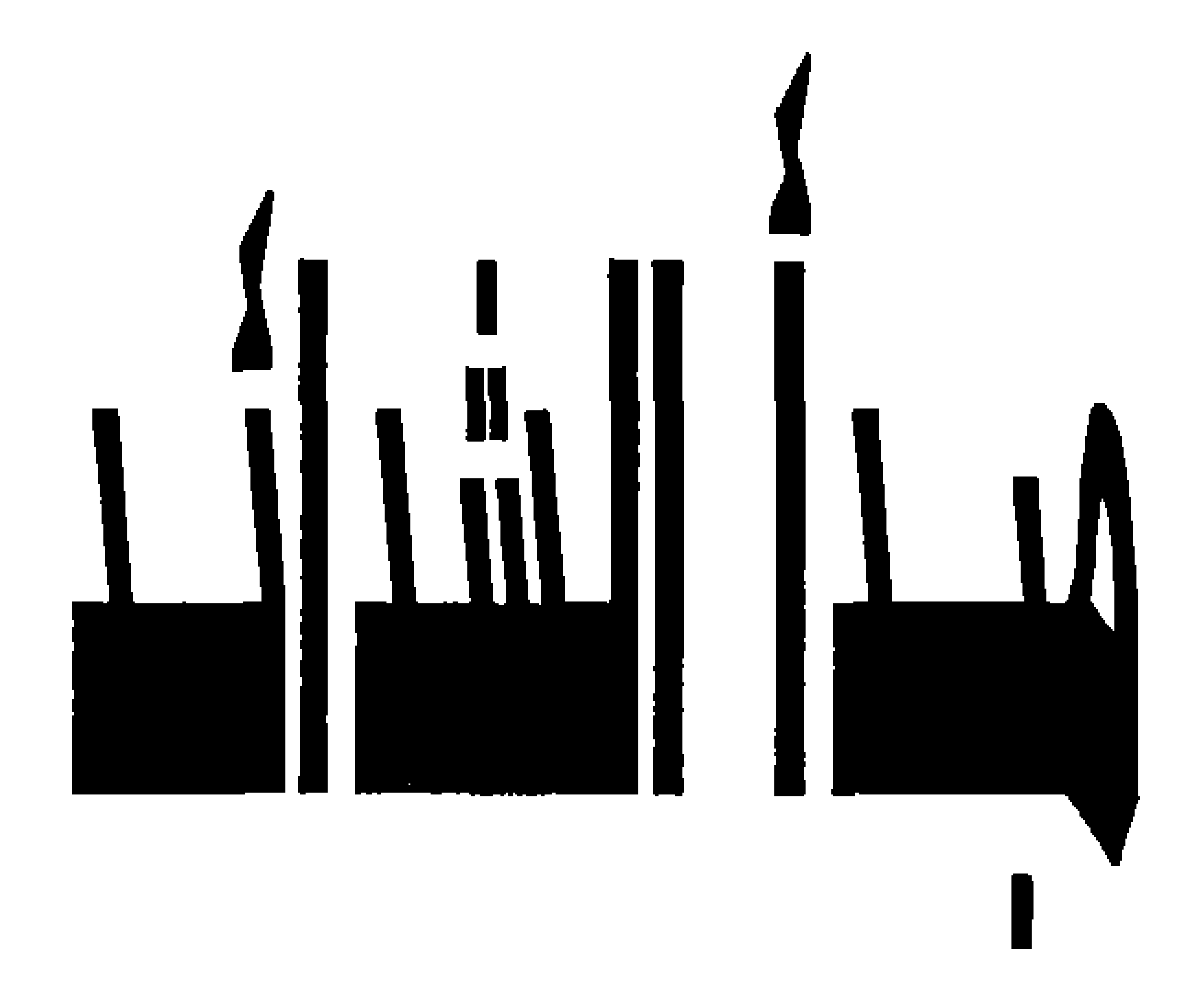
أمـــا أنــــا

فالاقــتراب إلــى

اللــه حــسن لــى

مز ٧٣: ٢٨

الفصل السابع



دعنى أتناول موضوع «امتحان الإيمان» من زاوية أخرى. عندما كنت فى العاشرة من عمرى وقرأت أول كتاب لى عن النجوم والأجرام السماوية، شعرت بالانبهار بموضوع الفلك. والشيء الذى جذب انتباهى هو الحجم النسبى لتلك الأضواء الصغيرة المتلألئة فوق رؤوسنا. وقد اكتشفت أن الأرض ليست سوى حبة من الفول السودانى بالمقارنة بالأجرام الأكبر منها التى تطوف فى الفضاء. ولا زلت حتى اليوم منبهراً بالمقاسات الرهيبة التى تميز خليقة الله. فكيف يمكن لإنسان أن يستوعب معنى الكون المنظور والذى يبلغ اتساعه على الأقل ٣٠ بليون سنة ضوئية، ويتكون ربما من ١٠٠ بليون مجرة، كل منها تحتوى على مئات البلايين من النجوم؟ إنه لشيء مبهر أن نتأمل تلك الأجسام الموجودة فى الفضاء الصامت. فأحد الأجسام القريبة نوعاً من أرضنا، وهو نجم اسمه إبسيلون، يزيد فى قطره عن مدار كوكب بلوتو فى مجموعتنا الشمسية! ولو كان هذا النجم مجوفاً لأمكن أن يتسع لأكثر من ٢,٣ مليون شمس من شموسنا!

ولم يكن الملك داود على دراية بعلم الفلك الحديث، إلا أنه كان يتمتع بإدراك عميق لعمل الله الرائع فى الخليقة. كتب قائلا: «السموات تحدث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه. يوم إلى يوم يذيع كلاماً، وليل إلى ليل يبدى علماً» (مزمور ١٩:١-٢). هذا أكيد! وأعتقد أن هذا هو السبب أننى لا زلت

حتى اليوم شغوفاً جداً بدراسة علم الفلك. فهو يعلن عن مجد الله بطريقة أروع من جميع فروع المعرفة الأخرى. فبعد استكشاف ما عمله الله وكيف أنه لا يزال يتحكم فى الأطراف المترامية للكون الفسيح، أستطيع بسهولة أن أثق فيه بخصوص متطلبات حياتى الشخصية. فإنه يصبح من الواضح عندئذ أنه قادر على التعامل معها.

أتذكر قصة شيقة عن «ألبرت أينشتاين» وعن تصوره للزمان والمكان. كان فى يوم من الأيام يتكلم مع بعض تلاميذه الأكثر ذكاء، عن الله هل هو موجود أم لا. فسألهم أينشتاين هذا السؤال الاستفزازى: «كم تظنون النسبة المئوية التى نملكها الآن من المعرفة الإجمالية للكون؟» فأعطوه عدة تقديرات، متوسطها فى حدود ٢ فى المائة. فأجاب الفيزيائى العجوز قائلا: «أعتقد أن تقديراتكم عالية، ولكنى سأقبل النسبة ٢ فى المائة. والآن أخبرونى ما هى احتمالات وجود الله فى الـ ٩٨ فى المائة الباقية؟» سؤال رائع بلا شك!

ومن قراءاتى اللاحقة فى علم الفلك منذ بضعة سنوات، التقيت بأعمال رجل يدعى «د. ستيفن هوكنج». وهو عالم فى الفيزياء الفلكية فى جامعة كمبريدج، وربما كان أذكى رجل فى العالم. فلقد سقط رداء أينشتاين على أكتاف هذا الرجل وارتداه بكل وقار. وقد قام بتطوير النظرية العامة للنسبية أكثر من أى شخص آخر منذ وفاة أينشتاين. وإلى د. هوكنج تنسب أيضاً الحسابات الرياضية التى تفترض وجود ثقوب سوداء فى الكون، هذا بالإضافة إلى الكثير من النظريات التى تلقى قبولا واسعاً.

ولسوء الحظ، فإن د. هوكنج مصاب بمرض نادر يؤدى إلى ضمور الأعصاب والعضلات، يسمى مرض «لوجهريج».

وهذا المرض يقضى بسرعة على صاحبه. وقد ظل «د. هوكنج» لسنوات عديدة حبيس كرسى متحرك لا يتيح له سوى أن يجلس ويفكر. فهو لا يستطيع حتى أن يكتب المعادلات الرياضية التى تحكم تطور أفكاره. وقد قالت مجلة «أومنى» فى سنة ١٩٧٩ عن هوكنج «إن ذهنه مثل السبورة. فهو يستطيع أن يحفظ عن ظهر قلب المعادلات الطويلة التى تعطى الحياة لأفكاره، ثم يملى النتائج على زملائه أو سكرتيرته، وهو الشيء الذى يمكن مقارنته بقدرة بيتهوفن على كتابة سيمفونية كاملة من الذاكرة، أو بقدرة «ميلتون» عندما أملى رواية «الفردوس المفقود» على ابنته».

وفى السنوات الأخيرة، فقد «هوكنج» حتى القدرة على الكلام، والآن فهو يستخدم الكمبيوتر للاتصال، ويقوم بتشغيله من خلال أقل حركة من أطراف أصابعه. وعلى حد قول مجلة «أومنى»: «فإنه أضعف من أن يكتب أو يطعم نفسه أو يمشط شعره أو يرتدى نظارته، فكل هذه الأشياء يجب أن يعتمد فيها على الآخرين. إلا أن هذا الرجل الأضعف بين جميع الناس، استطاع أن يهرب من حالة العجز. فإن شخصيته تسطع من خلال فوضى ظروف حياته».

إن تقبل «ستيفن هوكنج» لمرضه المأساوى هو الذى جعل قصته ذات معنى بالارتباط بموضوعنا الحالى، على الرغم من أنه لا يؤمن بإله الكتاب المقدس. فلقد تعلم «هوكنج» الشيء الكثير بسبب عاهته، وهذا ما يمكن أن نستفيد منه نحن الذين نعيش بالإيمان.

قال أنه قبل أن يمرض لم يكن يبالى كثيراً بالحياة. وقد وصفها بأنها «وجود غير هادف» ناتج عن السأم المطلق. وكان يكثر من شرب الكحوليات، ولا ينجز إلا القليل. ثم عرف

أنه مصاب بمرض ضمور العضلات وأنه مقدر له أن يعيش أقل من سنتين. ومع ذلك، فبعد زوال الصدمة الأولى، كانت نتيجة هذا التشخيص إيجابية للغاية. فلقد صرح بأنه أصبح أكثر سعادة بعد مرضه عن قبل مرضه. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ هذا ما يشرحه لنا هوكنج.

قال: «عندما تتضاءل توقعات الإنسان إلى الصفر، فإنه يشعر عندئذ بالقيمة الحقيقية لكل شيء يمتلكه». وهذه هى النقطة التى أشرت إليها فى الفصل الأول من هذا الكتاب. وبصيغة أخرى، فإن السعادة فى الحياة تتحدد إلى حد ما بما يتوقعه الإنسان منها. فبالنسبة لشخص مثل «هوكنج» والذى كان يتوقع أن يموت قريباً، أصبح لكل شيء معنى: شروق الشمس، نزهة خلوية، ضحكة طفل. فجأة تصبح كل متعة صغيرة لها قيمة كبيرة. وعلى العكس، فإن الذين يتوقعون من الحياة أن تعطيهم كل شيء، لا يسعدون حتى بأثمن هباتها.

وقد علق هوكنج أيضاً على إعاقته الجسمانية قائلا: «إذا كنت معوقاً فيجب أن توجه كل طاقاتك إلى الجوانب غير المعوقة لديك. يجب أن تركز على الأشياء التى تقدر أن تعملها بدلا من أن تنوح على الأشياء التى لا تقدر عليها. ومن المهم جداً ألا تستسلم للشفقة على الذات. فإذا كنت معوقاً وكنت تشعر بالأسى من أجل نفسك، فلن تجد أحداً يرغب فى التعامل معك. والإنسان المعوق جسمانياً لن يحتمل بالطبع أن يكون أيضاً معوقاً من الناحية النفسية».

وبمعنى آخر فإن معنى كلام هوكنج هو أن الشخص الذى يواجه محنة قاسية يجب أن يجتهد لكى يكون أكثر تحملا. أما الأنين والشفقة على النفس، وإن كانت تبدو منطقية، إلا أنها تؤدى إلى نتائج قاتلة. فالإنسان فى الأزمات إما أن ينمو

ويتقوى أو ينهار. فالشدائد، فى حدود معينة بالطبع، يمكن أن يكون لها تأثير إيجابى على الشخص لأنها تساعد على بناء شخصيته. ويقول الكتاب المقدس أن الشدائد تنمى وتزكى تلك الخاصية الثمينة المسماة بالإيمان (يعقوب ١:٢-٤).

وقد اكتشف علماء البيولوجى منذ زمن طويل انطباق هذا المبدأ، والذى سنسميه بمبدأ الشدائد، على عالم الحيوان والنبات. فمن العجيب حقاً أن نعرف أن سهولة أساليب العيش لا تفيد أى فصيلة من فصائل الكائنات الحية. فالحياة بلا تحديات لها ضريبة لابد أن يدفعها أى كائن حى. انظر على سبيل المثال إلى الحيوانات الهزيلة فى حديقة الحيوانات. فالطعام يقدم لها بانتظام، وهى لا تحتاج أن تعمل أى شىء سوى أن تنام وتتثاءب. أو تأمل شجرة مغروسة فى غابة مشبعة بالأمطار. فهى تحصل على المياه بسهولة ولذلك فهى لا تحتاج أن تعمق جذورها أكثر من بضعة أقدام تحت السطح. وبهذه الطريقة فإن أضعف العواصف لن تجد صعوبة فى اقتلاعها. أما شجرة «المسكيت» وهى شجرة شوكية تنمو فى الصحارى الجرداء، فإنها تضطر أن تعمق جذورها أكثر من ٣٠ قدم أو أكثر بحثاً عن الماء، ولذلك فإن أقسى العواصف لا تستطيع أن تقتلعها. فالمناخ الصعب الذى تعيش فيه يساعد على ثباتها وصلابتها.

وينطبق هذا أيضاً على الجنس البشرى. فإن أسمى أمثلة الشجاعة حدثت فى البلاد التى تعرضت لأقسى الضغوط. وتأتى إلى أذهاننا بهذه المناسبة بلاد أوروبا التى تعرضت للدمار فى الأربعينات. وبالطبع فإن جميع الحروب رهيبة، ولست أقلل من قيمة الآلام التى تنتج عنها. ففى الحرب العالمية الثانية مات حوالى ٥٠ مليون شخص، وتحطمت قارة

بأكملها. ومع ذلك، فإن الذين بقوا على قيد الحياة اضطروا أن يتكيفوا مع الظروف لكى يجتازوا هذه الفترة التى عاشوها فى الجحيم. وانظر ماذا كانت نتيجة هذا الاحتمال.

تعرض الألمان للدمار المريع قرب نهاية الحرب، تماماً مثل الدمار الذى ألحقوه هم بالآخرين. فإن بعضاً من مدنهم الكبيرة كانت تتعرض للقصف على مدار الأربعة وعشرين ساعة، من الأمريكيين أثناء النهار ومن الإنجليز أثناء الليل. كان الموت والدمار فى كل مكان. وكان الطعام شحيحاً شأنه شأن جميع متطلبات الحياة الأساسية. ومع نهاية الحرب كان ٨٠ فى المائة من الرجال المولودين فى سنة ١٩٢٢ قد ماتوا، ناشرين الحزن والأسى عبر البلاد بأكملها. وبالطبع فإن هذه المآسى قد نشأت بسبب العدوان النازى، ولكن هذا لا يقلل من حجم الألم الذى عانت منه جميع الأسر الألمانية. والشىء الذى يلفت أنظارنا اليوم، هو مدى صمودهم وقوة احتمالهم. إنهم لم ينهاروا! بل إنه فى شتاء ١٩٤٥، كانت المصانع قد دكت والقطارات حطمت والكبارى دمرت، ومع ذلك فإن إنتاجية البلد كانت فى حدود ٨٠ فى المائة من إنتاجية ما قبل الحرب. فلقد ظلت المعنويات مرتفعة. لقد وطدوا العزم الجماعى على الصمود وعلى الاستمرار فى روح الحرب، حتى عندما كانت جيوش الحلفاء تحكم حصارها حول برلين.

وبنفس الطريقة فإن كفاح الإنجليز أثناء الحرب لم يكن أقل ضراوة. فلقد ألهب تشرشل حماس الشعب فى اتجاه البطولة الشخصية. فبدأ بمخاطبة توقعاتهم، ولم يقدم لهم سوى «الدم، والكفاح، والعرق، والدموع». وقد ملأهم ذلك بالعزم على مقاومة الشدائد. وفى أشد أيام القصف عندما كان خطر الغزو يهدد بلادهم الحبيبة، ظل الإنجليز أقوياء العزيمة. لم

يكن أحد يستطيع أن يعرف على وجه التأكيد هل سيتوقف زحف هتلر وقواته أم سيستمروا فى التقدم. ومع ذلك فإن الأغنية الشعبية الأكثر شيوعاً فى إنجلترا فى تلك الأوقات العصيبة لم تكن تعبر عن الخوف، بل عن الأمل. كانت الأغنية بعنوان «مرتفعات دوفر البيضاء» إشارة إلى منطقة ساحلية مدججة بالبنادق والطائرات ومعدات الرادار. وها هى الكلمات التى لا زلت أتذكرها منذ الطفولة:

سوف تطير الطيور الزرقاء
فوق مرتفعات دوفر البيضاء
غداً، فقط انتظر وسوف ترى.

سيكون هناك من جديد حب وضحك
وسلام لا ينتهى
غداً، عندما يتحرر العالم
سوف يجز الراعى غنمه
وسوف يزهر الوادى من جديد
وسوف يخلد "جيمى" للنوم
مرة أخرى فى حجرته الصغيرة

سوف تطير الطيور الزرقاء
فوق مرتفعات دوفر البيضاء
غداً، فقط انتظر وسوف ترى.

كانت هذه الأغنية بمثابة رمز لشجاعة شعب يتطلع إلى ما وراء الموت والتضحية إلى يوم أفضل ينتظره. وقد سمى تشرشل هذه الحقبة باسم «أعظم الأوقات».

وقد كانت روح الصمود هذه واضحة فى الكثير من البلاد الأخرى التى دمرتها الحرب فى تلك الآونة. وقد وصلت إلى ذروتها فى مدينة لينينجراد (اسمها الآن سان

بيترسبرج) حيث احتمل الشعب الروسى آلاماً رهيبة على مدى ٨٧٢ يوم من الحصار بواسطة الجيشين الألمانى والفنلندى. وفى سنة ١٩٤٢ وحدها مات أكثر من ٦٥٠٠٠٠ من أهل لننجراد، معظمهم مات من الجوع أو المرض أو من طلقات الرصاص البعيدة المدى. ومع ذلك فلقد رفض الأحياء الاستسلام . لقد واجهوا الرعب مجسماً، ولكن رد فعلهم كان من أندر الأمثلة للشجاعة البشرية. واليوم يطلقون على سان بيترسبرج اسم «المدينة البطلة».

فإذا أمكننا أن نقول أن أوقات الشدة تقود إلى الصلابة المعنوية والجسمانية، فالعكس أيضاً صحيح. فإن الوفرة وسهولة العيش تؤدى غالباً إلى نوع من الضعف. ومع احترامى لأقرانى من مواطنى الولايات المتحدة، إلا إنى أعتقد أن حياتنا السهلة وماديتنا قد جعلتنا أكثر نعومة وأقل تحملا. فإن رخاء بلادنا، على الأقل بالمقارنة بالبلاد الأخرى، قد جعلنا نحب الراحة، حتى إننى أشك أحياناً فيما إذا كان فى استطاعتنا أن نحتمل مستوى الحرمان الذى تعانى منه معظم العائلة البشرية فى جميع أنحاء العالم. بل على ما يبدو أننا بالكاد نستطيع أن نتعامل مع ضغوط الحياة العادية.

وقد أدرك الكاتب والفيلسوف الروسى «ألكسندر سولزنيتسين» هذا الضعف القومى بعد فترة قصيرة من أخذه كأسير إلى الولايات المتحدة مما كان يسمى سابقاً بالاتحاد السوفيتى. ففى خطابه الشهير فى جامعة هارفارد فى ٨ يونيو ١٩٧٨ أشار إلى الليونة التى تخللت الأنظمة الديمقراطية. قال أنه قد أصبح من الواضح له أن الدول الغربية ليست آمنة ومستقرة كما كان يظن. فلقد أصبحت علامات الانحلال الاجتماعى واضحة فى الحضارة الغربية. وقد أشار بصفة

خاصة إلى غياب الرجال العظماء من السلطة، وإلى السلوك غير الأخلاقى، مثل الشغب والسلب والنهب الذى يحدث عندما ينقطع التيار الكهربائى لبضعة لحظات عن مدننا. وقد ذكر «سولزنيتسين» العديد من الأمثلة قبل أن يختتم خطابه مستنتجاً «أن الغشاء السطحى الناعم لابد وأن يكون رقيقاً جداً، بدليل أن النظام الاجتماعى سقيم وغير مستقر».

والخلل الذى لاحظه «سولزنيتسين» فى الأمريكيين قد ازداد وضوحاً اليوم. فلقد أصبحنا نثور لأتفه الأسباب. قائدو السيارات على الطريق السريع فى لوس أنجلوس يطلقون أحياناً الرصاص على بعضهم البعض لمجرد إهانة بسيطة. جميع أعمال العنف أصبحت تسود فى البلاد. إن أحداث الشغب التى حدثت فى سنة ١٩٩٢ فى لوس أنجلوس وفى غيرها من المدن، قد صدمت العالم لوحشيتها وحجم الدمار الذى نتج عنها. لقد انتشر الإدمان والفساد الأخلاقى والتفكك الأسرى والاعتداء على الأطفال والشذوذ الجنسى والدعارة والقمار أكثر من أى وقت مضى. لقد أقتربت حضارتنا من نقطة الغليان. وهذا كله يحدث فى أوقات الرخاء النسبى. فلقد أصبح واضحاً بالفعل أن الرخاء هو المحك الحقيقى للأخلاقيات وليست الشدائد.

وهل ينطبق هذا المبدأ أيضاً على الدائرة المسيحية؟ بكل تأكيد. فانظر إلى الكنيسة فى أوروبا الشرقية بالمقارنة مع تلك التى فى أوروبا الغربية. فقبل سقوط الشيوعية وفتح الحدود، كانت الكنيسة أقوى كثيراً تحت الحكم الديكتاتورى مما هى الآن فى دفء الحرية. يا له من أمر محير. فالكنيسة كانت حية ومنتعشة فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وألمانيا الشرقية، حيث لم تكن توجدَ مؤتمرات مسيحية، ولا

إذاعات ولا برامج تلفزيونية ولا أفلام مسيحية، بل فقط القليل من الكتب المقدسة والقليل جداً من الكتابات المسيحية. كان الاضطهاد الشيوعى رهيباً على المؤمنين. وكان القسوس والرعاة يرعون ستة أو ثمانية أبرشيات فى آن واحد نظراً لقلة عدد القادة المدربين. كان اعتناق المسيحية له تكلفة باهظة. ومع ذلك فإن الإيمان لم ينتشر فقط فى هذه الأجواء الرهيبة بل إنه أيضاً ازدهر وترعرع.

وعلى النقيض، فإن الانضباط الدينى كان يحتضر فى ظل الحرية فى أوروبا الغربية. كانت اللامبالاة واضحة فى البلاد التى تعضد الكنيسة من ميزانية الدولة، مثل الدانمرك، والسويد، والنرويج، واليونان. حتى أننا نستطيع أن نستنتج من هذا التاريخ الحديث أن أفضل طريقة لقتل أو إضعاف الكنيسة هى إزالة جميع الصعوبات والتحديات من أمامها.

ودعونا نطبق «مبدأ الشدائد» هذا علينا كأشخاص. أليس من المحتمل أن أبينا السماوى يسمح لنا بالضيقات لكى يضمن لنا القوة؟ إننى أثق تماماً أن هذا صحيح. فهذا بالضبط ما قاله الرسول يعقوب للمسيحيين فى القرن الأول: «احسبوه كل فرح يا إخوتى حينما تقعون فى تجارب متنوعة، عالمين أن امتحان إيمانكم ينشىء صبراً» (يعقوب ١:٢-٣). ويردد بولس صدى نفس الكلمات فى رسالته إلى رومية: «نفتخر أيضاً فى الضيقات عالمين أن الضيق ينشىء صبراً، والصبر تزكية، والتزكية رجاء» (رومية ٥:٣-٤).

وقد قالها يسوع أيضاً بأكثر وضوح: «إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى» (متى ١٦:٢٤). وقال أيضاً: «من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن

يهلك نفسه من أجلى يجدها» (ع ٢٥). فهذه الكلمات لا تترك مجالا للشك. ان يسوع يريدنا أن نكون منضبطين وملتزمين وأقوياء. ولقد حذرنا أيضاً من مخاطر الحياة السهلة، وأعتقد أن هذا ما كان يعنيه بالقول: «مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله» (مرقس ١٠:٢٥). فهو بالطبع لم يكن يعنى أن الله سيحاسب الأغنياء بمقياس أصعب من غيرهم. ولكنه فقط كان يقر بأن الغنى والوفرة يجعلاننا نعتمد على حياة الراحة والرفاهية. فهذه الأشياء فى حد ذاتها مغرية جداً. والشخص الذى ينشأ معتاداً على مباهج الحياة لن ينجذب بطبيعته إلى طريق الصليب المليء بالتضحية. مثل الشاب الغنى الذى ذهب مبتعداً عن يسوع، قد يكون من الأصعب على الأغنياء أن يتبعوا ذلك السيد الذى يطالبنا بتقديم أغلى التضحيات.

إن الثروة ليست فقط لها مخاطرها، لكن المديح للبشر أيضاً له مخاطره. فإذا كنت تريد أن تعرف معدن أى إنسان، ضعه فى أرفع المستويات الاجتماعية وقدم له أكبر قدر من التقدير والإعجاب، وسرعان ما سيظهر طبعه الخفى ويصير واضحاً للجميع. يقول سليمان الحكيم: «البوطة للفضة، والكور للذهب، كذا الإنسان لفم مادحه» (أمثال ٢٧:٢١) أى كما أن الفضة تختبر فى البوتقة والذهب يختبر بالنار، كذلك فإن الإنسان يختبر من خلال المدح الذى يتلقاه.

من هذه الأجزاء الكتابية وغيرها الكثير، يتضح لنا أن الحياة المسيحية لم يقصد منها أبداً أن تكون نزهة فى بستان من الزهور. فإن هذه الحياة الرومانسية قد انتهت منذ أن خرج آدم وحواء من جنة عدن. ومن هذه اللحظة، أصبحت الحياة تمثل تحدياً لنا جميعاً.

انظر كيف كان يسوع يتعامل مع تلاميذه أثناء خدمته على الأرض. انظر عندما كانوا فى القارب فى إحدى الأمسيات. ذهب يسوع لينام على وسادة فى مؤخرة القارب، وفى هذه الأثناء قامت عاصفة مرعبة. تذكر أن التلاميذ كان بعضهم صيادين محترفين ويعرفون تماماً ما الذى يمكن أن تفعله العاصفة بقارب صغير وبركابه. فارتعبوا، مثلى ومثلك فى هذا الموقف. ولكن ها هو السيد، غير مبال وغير مهتم، مستغرقاً فى النوم بالقرب من مؤخرة القارب. كانت الأمواج تلطم القارب بشدة وعلى وشك أن تقلبه. ولم يستطع الرجال المرتعبين أن يصمدوا أكثر من ذلك، فأيقظوا يسوع قائلين: «ياسيد، نجنا! فإننا نهلك!» وقبل أن يهدىء العاصفة، قال يسوع لتلاميذه: «ما بالكم خائفين يا قليلى الإيمان؟» (متى ٨:٢٣-٢٦).

من منا يستطيع أن يلوم التلاميذ على ارتعادهم من العاصفة؟ فمن الواضح أنه لم يكن هناك فى ذلك الحين حرس شواطىء أو خدمات هليكوبتر لانتشالهم من وسط الأمواج الهائجة. ومع ذلك فلقد اعتبر يسوع أن ارتعابهم هو شىء مخيب للآمال. لماذا؟ لأن الخوف والإيمان لا يجتمعان فى قارب واحد، وأيضاً لأنه كان يريدهم أن يثقوا فيه حتى فى مواجهة الموت. فإنهم كانوا سيحتاجون مثل هذه الثقة بعد شهور قليلة!

دعونا نراقب يسوع وتلاميذه فى مشهد آخر فى البحر. يقول مرقس ٦:٤٥-٥٠ أن يسوع قد أمر تلاميذه بأن يدخلوا إلى السفينة ويسبقوه إلى مدينة بيت صيدا. ثم اتجه إلى الجبل ليصلى. ومن الواضح أن يسوع كان يرى البحيرة كلها من مكانه، وقد لاحظ أن التلاميذ «معذبين فى الجذف لأن

الريح كانت ضدهم». ويخبرنا الكتاب أنه «نحو الهزيع الرابع من الليل أتاهم ماشياً على البحر» (ع ٤٨). فمن بداية الليل حتى الهزيع الرابع تقدر الفترة بسبع ساعات. لمدة سبع ساعات، كان يسوع يراقب تلاميذه وهم يصارعون الرياح العنيفة ومع ذلك لم يأت لنجدتهم. فمع أنهم كانوا أمام عينيه وتحت رعايته طوال الليل، إلا أنه سمح لهم بأن يشعروا باحتياجهم إليه قبل أن يسرع لمعونتهم.

إنه أحياناً يسمح أيضاً لك ولى أن نكون «معذبين فى الجذف» حتى نعترف بأننا محتاجين إليه. فهو بهذه الطريقة يعطى الفرصة لإيماننا لكى يتقوى وينضج. ومع ذلك فهناك شىء واحد مؤكد: وهو أننا دائماً أمام عينيه. وبمجرد أن تتحقق مقاصده ويحين الوقت، فإنه سيأمر البحر العاصف أن يهدأ ويقودنا آمنين إلى الشاطىء.

وهنا دعونا نلقى بنظرة أخرى على الوعاظ المسيحيين الذين يروجون لفكرة العيش السهل فى الحياة المسيحية. إنهم يريدوننا أن نؤمن أن أتباع يسوع لا يجتازون فى التجارب والآلام التى يجتاز فيها غير المؤمنين. وهم يبذلون كل جهدهم ليقدموا لنا ما يلذ لمسامعنا حتى أنهم يحورون الحق المذكور فى الكتاب. إنهم يحاولون إقناعنا بأن الرب يسرع للتدخل بمجرد أن نواجه المحنة، وفى الحال يزيل كل ألم ويسدد كل احتياج. نعم، إنه بالطبع يفعل ذلك أحياناً، ولكن فى أحيان أخرى لا يفعل. وفى كلتا الحالتين، هو معنا وهو متحكم تماماً فى حياتنا.

ودعونا نتأمل مثالا آخر لعلاقة يسوع مع تلاميذه. فى الليلة السابقة لصلبه، كان بطرس ويعقوب ويوحنا معه فى بستان جثسيمانى. وفى جوف الليل اجتاح يسوع حزن شديد

لما كان ينتظره. فطلب من الرجال الثلاثة أن يسهروا وينتظروه حتى يذهب بمفرده ليصلى. وثلاث مرات فى ساعة واحدة كان يرجع ويجدهم نياماً «إذ كانت أعينهم ثقيلة» (متى ٢٦:٤٣). وكما فى المرات السابقة فإنه عبر عن استيائه من ضعفهم.

ولا يفوتنا أن هؤلاء الرجال كانوا أيضاً تحت ضغط شديد فى هذه الأيام. لقد كانوا يتوقعون أن تتم محاكمتهم بسبب علاقتهم بيسوع. وهذا النوع من الخطر يسبب التعب، خاصة بعد السهر حتى الساعات الأولى من النهار. كان من البديهى أن يجد التلاميذ صعوبة فى أن يظلوا مستيقظين ومحملقين فى ظلمة الليل بدون أن يغلبهم النعاس، ومع ذلك فإن يسوع كان يتوقع منهم أن يظلوا ساهرين. قال لهم: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف» (متى ٢٦:٤١). فها هو مرة أخرى يطلب من تلاميذه أن يكونوا أقوياء، وأن يجاهدوا ليتغلبوا على شهواتهم. لماذا؟ لأن الجسد الضعيف أكثر عرضة للتجربة.

وعبر كل الكتاب نجد هذا الأسلوب ثابتاً. فإن الرب يريد أن أتباعه يكونوا أقوياء. اقرأ مرة أخرى قصة تيهان بنى إسرائيل فى البرية: مشردين، وعطاش، وتعابى وبلا مأوى. لقد شعروا بالملل من تناول نفس الطعام كل يوم، المن، واشتاقوا إلى الأشياء التى اعتادوا عليها فى أرض مصر. لو كنت مكانهم أنا أيضاً لكنت شكوت نفس هذه الشكاوى، ولكن انظر ماذا يقول فى سفر العدد ١:١١:

"وكان الشعب كأنهم يشتكون شراً فى أذنى الرب وسمع الرب فحمى غضبه فاشتعلت فيهم نار الرب وأحرقت فى طرف المحلة"

إذا كان هذا يبدو قاسياً، فعلينا أن نذكر أن الله قد اختار هذا الشعب لنفسه، وأنه كان يعمل عملاً عجيباً فى حياتهم. لقد أنقذهم من ٤٠٠ سنة من العبودية فى مصر. ولقد شق البحر الأحمر ليفتح لهم طريقاً للهروب. لقد اهتم بجميع أعوازهم، ومع ذلك لم يتلق منهم غير التذمر والأنين. يخبرنا الكتاب المقدس أن الله طويل الروح وبطيء الغضب، ولكنه كان قد احتمل الكثير من هذه الشعب الصلب الرقبة.

فهل هذا يعنى أننا لا ينبغى أن نعبر للرب عن أعوازنا وآلامنا؟ هل ينبغى أن نخفى عنه مخاوفنا ونحاول أن نبدو بغير ما نحن عليه؟ هل ينبغى أن نظل نبتسم ابتسامة عريضة فى حين أن كل خلية فى أجسامنا تئن وتتألم من الحزن؟ هل ينبغى أن نفعل مثل البط الذى يبدو هادئاً فوق سطح الماء فى حين أن قدميه تضرب بجنون تحت الماء؟ كلا! فإنه يوجد على الأقل مائة شاهد كتابى ينفى هذه الصورة المشوهة عن الله. قال يسوع: «تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم» (متى ١١:٢٨). ويقول داود «لأنه يعرف جبلتنا، يذكر أننا تراب نحن» (مزمور ١٠٢:١٤). وهو يعرف أيضاً أن البعض منا أقوياء وراسخين بطبيعتهم، بينما البعض الآخر أكثر تعرضاً للقلق. هذا ليس بالشىء الغريب على ذاك الذى خلقنا على ما نحن فيه.

وإننى أجد التعزية أيضاً فى إشفاق الرب على داود عندما سكب أمامه مخاوفه وآلامه. لم يسجل لنا الكتاب المقدس أن الرب استاء من داود لتعبيره عن أحزانه ومخاوفه. فما هو الفرق إذاً بين هذه «الشكاوى» المقبولة وتلك التى صدرت من بنى إسرائيل قبلها بسنين عديدة؟ الإجابة نجدها فى طبيعة الأنين. فلقد كان أنين داود مصبوباً فى قالب من الإيمان والثقة

فى الله. فحتى فى وسط اكتئابه كان يعرف من هو الله ومن هو محط ولائه. ولكن شعب اسرائيل كانوا عديمى الثقة ومتبجحين فى أنينهم. ومرة أخرى يتضح لنا أن كل شىء فى الكتاب المقدس يدور حول هذه الكلمة الصغيرة: الإيمان.

وخلاصة القول: أننا الآن نعرف أن الإيمان يجب أن يكون متيناً. لماذا؟ هل هناك سبب منطقى يجعل الرب يطلب منا أن نكون أقوياء العزيمة فى مواجهة الصعوبات؟ أعتقد أن السبب هو التأثير المتبادل بين الذهن والجسد والروح كما ذكرنا سابقاً. فلا يمكننا أن نكون ثابتين روحياً ومضطربين نفسياً فى آن واحد. فنحن فى حرب روحية مع عدو عنيد يتعقبنا فى كل ساعة من ساعات النهار. لذلك نحتاج أن نكون فى أفضل لياقة ممكنة لكى نقدر أن نصد السهام الملتهبة التى يقذفها فى طريقنا. أما المؤمنين المدللين والمترفين والمرتخين فإنهم ببساطة لا يمتلكون المؤهلات التى تؤهلهم لدخول هذه الحرب. ولذلك فإن الرب يضعنا من آن لآخر فى البوتقة الروحية لكى يجعلنا دائماً فى حالة الاستعداد اللائق.

هذا هو «مبدأ الشدائد»، ولابد أننا جميعاً قد اختبرناه بطريقة أو بأخرى.

الفصل الثامن

الإيمان يجب أن يكون راسخا

لقد أنهينا الفصل السابق بالاستنتاج بأن المؤمنين يجب أن يكونوا في «حالة حرب». وهذا التشبيه ليس من خيالنا. فمن الملاحظ أن الرسول بولس قد استخدم مصطلحات عسكرية لوصف الخدمة التي نحن مدعوون إليها. كتب في ٢تيموثاوس ٢:٣-٤ قائلا: «فاشترك أنت في احتمال المشقات كجندي صالح ليسوع المسيح، ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحياة لكي يرضي من جنده». وهذا يقودنا إلى التساؤل ما هو المعنى الحقيقي لهذا القول؟ ما هي العلاقة بين تدريب الجندي وبين حياة المؤمن؟ وما هو معنى «احتمال المشقات ... كجندي صالح»؟

إن الذين شاهدوا فيلم «جون واين» عن الحرب الأهلية يظنون أن الحرب تشبه مرح صاخب في حديقة. ولكن الرجال الذين اجتازوا الحرب يقولون غير ذلك. إن معظم الصور الأدبية التي قرأتها عن الحرب استقيتها من الكتابات الرائعة للكاتب «بروس كاتون» عن الحرب الأهلية الأمريكية. وبعد قراءة العديد من هذه الكتابات، كتبت الوصف التالي عن الحياة العسكرية في القرن التاسع عشر وعن المشقات التي احتملها الجنود أثناء الحرب بين الولايات. فبينما أنت تقرأها حاول أن تفكر في التشبيه الذي قدمه بولس بين المؤمنين الأقوياء وبين القوات المحاربة:

تزودنا كتابات "كاتون" بمفهوم عميق عن صلابة عود كل من الجنود الأمريكيين اليانكيين والجنود المتمردين. فإن حياتهم كانت مليئة بالحرمان والمخاطر التى لا يمكننا أن نتصورها اليوم. فقد كان من الشائع أن تسير الفرق الحربية مسيرة أسبوعين بدون توقف تحت تهديد السيف. وكانوا غالباً ما يندفعون إلى وسط المعمعة بعد وصولهم إلى جبهة القتال بلحظات قليلة. كانوا يشتركون فى معارك رهيبة تستمر عدة أيام، ويقضون الليالى على الأرض فى ساحة القتال لا يغمض لهم جفن، أحياناً تحت المطر والجليد. وأثناء المعركة نفسها كانوا يأكلون البسكويت الجاف والذى يسمى بسكويت البحارة بدون أى شىء معه. وفى فترات الهدنة كانوا يضيفون إلى طعامهم القليل من اللحم المملح والقهوة. وكما هو متوقع فإن إمعاءهم كانت دائمة التعرض للالتهابات والدسنتريا وغيرها من الأمراض التى كانت تنخر فى صفوفهم. وقد جاء فى تقرير "الجيش الاتحادى" أن الإصابات المرضية تزيد عن ٢٠٠٠٠٠ حالة، وقد أقعدت حوالى ٥٠ فى المائة من الجنود. وقد تكبد الحلفاء أيضاً قدراً مماثلا من الخسائر.

كان القتال فى هذه الأيام شرساً بطريقة يصعب تصورها. كان الآلاف من الجنود يذبحون بعضهم البعض وجهاً لوجه. بعد معركة دامية فى سنة ١٨٦٢، سقط فى الميدان ٥٠٠٠ قتيل فى مساحة لا تزيد عن ميلين مربعين، بالإضافة إلى ٢٠٠٠٠ مصاب. يقول أحد شهود العيان

أنه كان من الممكن للإنسان أن يسير فوق الجثث لمسافة ١٠٠ ياردة بدون أن يخطو خطوة واحدة على الأرض. وقد ظل كثيرون من الجرحى لمدة ١٢ أو ١٤ ساعة فى نفس أماكنهم التى سقطوا فيها بين القتلى والخيول النافقة، وصدى أناتهم وصرخاتهم يتردد فى المنطقة كلها.

وقد أرسل أحدهم لى مؤخراً طلقة من بندقية المسكيت التى كانت تستخدم عندئذ، وجدها فى ساحة قتال تاريخية. وقد اندهشت جداً لكبر حجمها وثقل وزن الرصاص الذى بها. فليس من المستغرب أنهم كانوا يضطرون إلى بتر الأطراف التى تصاب بمثل هذه المقذوفات. فإنها تمزق اللحم وتهشم العظام بشكل لا يصلح فيه علاج. وكانت العمليات الجراحية تتم بدون تخدير، بينما المشارط والمناشير غير المعقمة تقطع فى اللحم والعظام. وبعد كل معركة كبيرة، كان من الشائع أن تتكدس خارج خيمة الجراح كومة كبيرة من الأذرع والسيقان المبتورة. لم تكن هناك مضادات حيوية، وكانت الغرغرينا تنهى غالباً المهمة التى بدأتها رصاصة القناصة.

إن استعداد هؤلاء الناس على احتمال مثل هذه الأمور هو أمر مدهش حقاً، ولكن لا يفوتنا أيضاً صلابتهم المعنوية. لقد كانوا يؤمنون بقضيتهم سواء الجيش الاتحادى أو جيش الحلفاء، فإنهم قد خصصوا حياتهم لهذا الغرض. كان معظمهم يعرفون أنهم لن يعودوا أحياء من الحرب، ولكن هذا لم يغير من عزيمتهم فى شىء.

أرجو ألا تظن أنى لا أرى عيباً فى بطولات تلك الأيام. فبالطبع كان الناس مستعدون أن يضحوا بحياتهم من أجل حرب لا يفهمون أبعادها تماماً. ولكن إخلاصهم وتضحيتهم لا يزالان حتى يومنا هذا علامة مميزة لتلك الأيام.

وربما لا يوجد تصوير لهذا الإخلاص للمبدأ وللشرف مثل ذلك الذى جاء في خطاب أرسله «القائد سوليفان بالو» فى الجيش الاتحادى، إلى زوجته سارة فى ١٤ يوليو ١٨٦١، قبل معركة «بول ران» بأسبوع واحد. كانا قد تزوجا منذ ست سنوات فقط. لا زالت هذه الكلمات القوية تلمس نفسي:

حبيبتى الغالية سارة:

المؤشرات قوية جداً بأننا سنتحرك خلال بضعة أيام، ربما فى الغد. ولئلا أعجز عن أن أكتب لك مرة أخرى فإننى أشعر بدافع قوى لكتابة بعض السطور التى قد تكون بين يديك فى الوقت الذى لا أكون فيه....

ليس لدى أى توجس أو شك من جهة القضية التى أدافع عنها، وشجاعتى لم تنقص ولم تتزعزع. إنى أعرف كيف أن الحضارة الأمريكية تعتمد الآن على نصرة الحكومة، على حجم الدين الذى نحن مدينون به للذين سبقونا فى طريق الألم والموت فى أيام الثورة الأمريكية. إنى مستعد وراغب تماماً فى أن أضحى بكل المباهج فى هذه الحياة لمساندة هذه الحكومة ولدفع هذا الدين....

سارة، إن حبى لك لا يموت؛ فإنه يربطنى بسلاسل قوية لا يستطيع أن يكسرها سوى الله القدير وحده، ومع ذلك فإن حب الوطن يجتاحنى مثل عاصفة قوية، ويحملنى مكبلا بهذه القيود إلى ساحة القتال.

إن ذكرى جميع اللحظات الجميلة التى قضيتها معك تزحف إلى مخيلتى الآن، وإنى أشعر بالعرفان العميق لله ولك أنى قد تمتعت بهذه اللحظات الجميلة طوال هذه المدة. إنه من الصعب على حقاً أن أتخلى عن هذه الذكريات، وأن أهدم جميع آمال المستقبل التى فيها يمكننا، بإرادة الله، أن نعيش معاً ونرى أولادنا يكبرون إلى مرحلة الرجولة المشرفة.

حبيبتى سارة، إذا لم أرجع أرجو ألا تنسى أبداً كم أحببتك، وعندما تخرج آخر أنفاسى فى ميدان القتال فإننى سوف أهمس بإسمك. اغفرى لى أخطائى الكثيرة والآلام الكثيرة التى سببتها لك، كم كنت غبياً فى بعض الأوقات....

سارة، آه لو كان فى إمكان الأموات أن يأتوا مرة أخرى إلى هذه الأرض ويرفون حول أحبائهم، تأكدى أنى سأصير دائماً بقربك فى أسعد الأيام وفى أحلك الليالى، وسط أجمل لحظاتك وفى أتعسها، دائماً على الدوام؛ وإذا كانت هناك نسمة رقيقة على خدك فتأكدى أنه سيكون نفسى؛ وإذا كان هناك هواء بارد يبرد صدغك المتألم فتأكدى أن هذا الهواء سيكون روحى العابرة بجانبك.

سارة، لا تنوحى على بعد مماتى؛ افتكرى فقط أنى قد رحلت، وانتظرينى، لأننا سنلتقى مرة أخرى....

سوليفان

ولقد قتل «القائد بالو» بعد أسبوع واحد من هذا التاريخ فى أول معارك «بول ران». ولست أعرف هل حقاً استطاع أن ينطق بإسم سارة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على أرض المعركة، ولكنى متأكد أن هذه الزوجة المسكينة قد عانت أشد الألم كنتيجة لهذه الحرب الرهيبة.

فهل هذا هو مستوى الولاء والتضحية الذى يدعونا إليه الرسول بولس فى ٢تيموثاوس ٢؟ أعتقد أنه هو، ومع ذلك فإن هذا المفهوم يبدو غير منطقياً فى أيامنا هذه التى تتميز بحقوق الفرد وتحقيق الذات. متى كانت آخر مرة فكرنا فيها من جهة أنفسنا بمفهوم «الجنود المنضبطين فى جيش العلى»؟ كان هذا المفهوم شائعاً فى الماضى، وكانت ترنيمة «هيا للأمام، ياعسكر الرحمن» من الترانيم المفضلة فى الكنيسة عندئذ. فلقد كان المؤمنون يسيرون مسيرة حرب يتقدمهم صليب يسوع. وكنا أيضاً نرنم «قفوا! قفوا ليسوع، يا جنود الصليب». وكانت هناك أيضاً ترنيمة «كن مثل دانيال، لا تخف من الوقوف بمفردك. اجعل هدفك ثابتاً، ولا تخجل من المجاهرة به». هذه هى الطريقة التى كان بها يدرك المؤمنون مسئوليتهم فى أيام مضت. والآن، ها قد قطعنا شوطاً كبيراً، وأصبح تركيزنا ينصب على تسخير قوة الله لتحقيق النجاح (الرخاء والوفرة) فى الحياة. من الواضح أن هناك شيئاً قد ضاع منا فى الطريق!

في يومنا هذا يقدم فريق مشهور هذه الترنيمة: «شيء حلو سيحدث اليوم، سيحدث اليوم، سيحدث اليوم. شيء حلو سيحدث اليوم، يسوع الناصري سيجتاز من هنا». ألا يحملنا هذا إلى الظن بأن المسيحية تضمن للناس «الأشياء الحلوة» فقط؟ وهذا ليس صحيحاً. دعونا إذاً نكون صادقين. فإن المسيحيين يمرضون ويموتون مثلهم مثل أي شخص آخر. وهم يفقدون وظائفهم، ويتعرضون لحوادث السيارات، ومشاكل في الأسنان، ويتعرض أولادهم للمرض مثل الآخرين تماماً. والاعتقاد بغير ذلك هو فخ خطير يقع فيه الكثير من المؤمنين الأحداث وبعض البالغين أيضاً!

هل تعرفون لماذا ثبتت بعض الترانيم الكنسية العريقة لمئات السنين أحياناً؟ السبب هو أنها مؤسسة ليس على كلمات تداعب آذاننا، بل على حق كتابي راسخ. إحدى ترنيماتي المفضلة والتي لها علاقة بموضوعنا عنوانها «يايسوع، لقد أخذت صليبي». وقد كتب كلماتها «هنري ف. لايت» في سنة ١٨٢٤، ونظم لحنها «موزارت». استمع، إذا أردت، إلى الحق الذي تنطلق به هذه الترنيمة:

يايسوع، لقد أخذت صليبي،
لأترك كل شيء وأتبعك؛
عرياناً، فقيراً، محتقراً، ومتروكاً،
سأكون من الآن لك بجملتي؛
لقد زال كل طموح محبب،
كل شيء اشتهيته ورجوته وعرفته؛
ومع ذلك فلا زلت من أغنى الأغنياء
فإن الله والسماء لازالوا من نصيبي!

وداعاً إذاً للشهرة والثروة!
ومرحباً بالضيق والخزى والألم!
ففى طريق خدمتك يصبح التعب حلواً
وبنعمتك تصبح الخسارة مكسباً.
لقد دعوتك "ياأبا الآب"؛
لقد ثبت قلبى عليك
قد تزمجر العواصف وقد تتكثف الغيوم؛
كلها ستعمل للخير لى.

من الواضح أن هذه الرسالة تختلف قليلا عن «شىء حلو سيحدث اليوم»، بل ربما أنها قد تكون غير مستساغة لعالمنا اليوم، ولكنها كتابياً دقيقة، ويمكنك أن تبنى عليها أساساً للإيمان راسخاً كالصخر. بها يمكنك أن تتعامل مع كل ما تحمله الحياة لك، حتى عندما يكون الله غير مفهوم بالمرة. إنها ستسندك إذا سرت فى وادى ظل الموت، لأنك لن تخاف شراً. فالحياة لن يمكنها أن تباغتك بعد اليوم، فكل شىء بين يديه، سواء فهمت الظروف أم لا. فبهذا المفهوم الكتابى الراسخ للإيمان يفقد السؤال الرهيب «لماذا؟» دلالته، ويحل محله سؤال آخر «لماذا أهتم؟»، فإنى لست مسئولا عن تفسير ما الذى يفعله الله فى حياتى. من الواضح أنه ليس لدى البيانات الكافية لتفسير الأمر، لذلك يكفينى أن أترك نفسى بين يدى الله وأهدأ فى كونه الله. فهنا يكمن سر «السلام الذى يفوق كل عقل».

ربما لا يتفق هذا المنطق اللاهوتى مع ما يريد القارىء أن يسمعه، خاصة إذا كان ممن اختبروا الحزن حتى لم يعد لديه مزيد من الدموع ليذرفها. إذا كنت من بين هؤلاء فاعلم أنى لم أقصد أن أقلل من حجم خسارتك. فإن قلبى يشفق على

جميع الذين يجتازون آلاماً مبرحة. لقد وصلنى فى الأسبوع الماضى خطاباً من أب فقد ابنته فى حادث سيارة منذ ١٨ شهراً. وقد كتب ليقول كيف أنه لازال هو وزوجته يشعران بلسع نيران التجربة، وهو الشيء الذى يعجز الكثيرون من رفقائه المؤمنين عن تفهمه. وبينما كنت أقرأ كلماته فكرت فى ابنتى التى تقارب ابنته فى العمر، وتألمت فعلا مع هذا الأب المنكسر. فالحياة يمكن أن تكون فى منتهى القسوة خاصة مع الذين أحبوا وفقدوا. هؤلاء يحتاجون بشدة إلى المشاركة والصلوات من أخ أو أخت مؤمنين يستطيعون أن يقفوا ببساطة بجانبهم ليقولوا «إننا نبالى». وفوق كل شيء، فإنهم يحتاجون أن يعرفوا أن الله نفسه يبالى!

إنى مقتنع تماماً أن قلب الله ينجذب إلى الذين يتمسكون بإيمانهم راسخاً فى مثل هذه الأوقات العصيبة. فكم يكون تحننه على الذين يفقدون ابناً أو ابنة محبوبين. وكم يكون عطفه على الذين يعانون من عاهات مستديمة وأمراض مستعصية. فإن ارتباطه الوثيق بمآسى البشرية يعتبر من المواضيع الأساسية فى الكتاب المقدس.

كثيراً ما أفكر فى ذلك الفتى الذى تكلم عنه مرة «د. تونى كامبولو» فى إحدى العظات. هذا الولد اسمه «جيرى» وقد كان فى بداية سن المراهقة، كان مصاباً منذ طفولته بالشلل الدماغى. كان جيرى يمشى ويتكلم بصعوبة بالغة، ومع ذلك فقد أتى إلى معسكر صيفى مسيحى كان «د. كامبولو» هو المتكلم الرئيسى فيه. وكان واضحاً من أول يوم أن «جيرى» سيكون ملفوظاً من بين الفتيان الآخرين الذين بدأوا فى الحال ينظمون التسلسل الهرمى على أساس المظاهر الاجتماعية. وكما هو الحال دائماً، برزت بسرعة «الشلة» التى

تضم الفتيان الأكثر وسامة والفتيات الأكثر جمالا. وقد كانوا من الأنانية حتى أنهم خجلوا من التعامل مع ولد معوق مثل «جيرى». كما أنهم كانوا قساة مع باقى الأولاد الذين يعانون من العقد النفسية وفقدان الثقة بالنفس، فلم يقدموا لهم أى فرصة للظهور.

وطوال الأسبوع كان «د. كامبولو» يراقب «جيرى» وهو يجاهد لكى يجد مكانه. كان شيئاً مؤلماً حقاً. كان الأولاد يستهزئون من الطريقة التى بها يمشى ويتكلم. فعندما كان يتهته قائلا: «ففففى أى وووقققت تتتتبببددداً ححححصصصة الأششششغغغال؟» كانوا يضجون جميعهم بالضحك وكأن جيرى لا يسمعهم. وفى أوقات أخرى كانوا يهربون منه كهروبهم من شخص أجرب. ويقول «د. كامبولو» أنه لم يسبق له أن أبغض أحداً على الإطلاق، ولكنه فى هذه اللحظة كان على وشك أن يبغض هؤلاء الأولاد القساة، بسبب ما يصنعونه مع ذلك الولد الذى يحمل حملا أكبر من طاقته.

وفى آخر أيام المعسكر، كانت الخدمة مفتوحة للطلبة لكى يقدموا شهادتهم عما يعنيه يسوع بالنسبة لهم. وواحد بعد الآخر تقدموا إلى الميكروفون، الأولاد المميزون والرياضيون والبارزون والعاديون. جميعهم ألقوا أقوالهم المنمقة ولكن لم تكن هناك أى قوة فى شهادتهم. كانت كلماتهم جوفاء.

ثم بمجرد أن جلس «د. كامبولو» على المنبر استعداداً لتقديم العظة، اندهش إذ رأى «جيرى» يشق طريقه من آخر القاعة متقدماً إلى الأمام. وقد رآه أيضاً باقى التلاميذ وبدأوا يتهامسون ويشيرون إليه بأصابعهم. ثم بدأت موجة من الضحك تسرى فى الجمع. وأخيراً وصل «جيرى» إلى المنبر وتسلق بمشقة شديدة الدرجات الثلاثة على جانب المنبر، ووقف أمام

الميكروفون. ظل للحظة ينظر إلى زملائه، ثم قال بمجهود كبير: «إننننى أحححححببب يييييسسسوع .... ويييييسسسسوع يحححببببنى». ثم استدار «جيرى» ليقطع رحلة العودة مرة أخرى إلى مقعده.

يقول «كامبولو» أن الشهادة البسيطة التى قدمها «جيرى» سرت مثل نيران الصاعقة بين صفوف هؤلاء المراهقين. فإن تعبيره البسيط عن حبه لله، على الرغم من إعاقته ومن السخرية التى تلقاها، قد كشف خطيتهم وأنانيتهم. وبدأوا يتدفقون متقدمين إلى الأمام معترفين بخطاياهم فى الصلاة. لقد استخدم الرب أقل المتكلمين كفاءة من بين جميع هؤلاء الأولاد لكى يتمم به مقاصده. لماذا؟ لأن «جيرى» كان بصلابته مؤهلا أن يكون إناء له.

ترى ما هو حجم صلابة إيمانك وإيمانى؟ هل نحن نسمح لله أن يستخدم ضعفنا وعجزنا وعدم كفاءتنا لتحقيق مقاصده؟ هل سنقدر، أنا وأنت، مثل «جيرى» أن نعبد ونخدم هذا السيد حتى فى وسط الألم؟ هل يوجد للمعاناة مكان فى توقعاتنا كأتباع ليسوع؟ وهل يوجد لنا فى كلمة الله أى شيء بخصوص حياتنا الأرضية والأمور التى تسبب لنا الأنين؟ بكل تأكيد!

من أحب الأجزاء الكتابية لى هو ذلك الجزء الذى يتكلم عن موضوع الصلابة. وسوف أختم كلامى بذلك المفهوم العميق الذى يتكلم عنه هذا الجزء. لقد ورد فى رسالة كتبها الرسول بولس إلى أهل فيلبى من روما حيث كان مسجوناً وكان معرضاً للمحاكمة من أجل إيمانه بالرب يسوع المسيح. كان من حق بولس أن يكون مضطرباً فى هذه المرحلة من حياته. فإن ما حدث معه كان منافياً تماماً للعدل! فلقد تعرض حديثاً للجلد

بالسياط، ومر بأوقات جوع وعرى، وفى إحدى المرات رجموه وتركوه ظانين أنه قد مات. كان فى إمكانه أن يشتكى بمرارة من أن الرب قد دعاه لهذه المهمة الصعبة وفى النهاية تخلى عنه. وكان من الطبيعى أن يرد على شفتيه السؤال المشهور «لماذا؟». ولكن لم يحدث مع بولس شىء من هذا، بل كتب إلى المؤمنين فى فيلبى يقول:

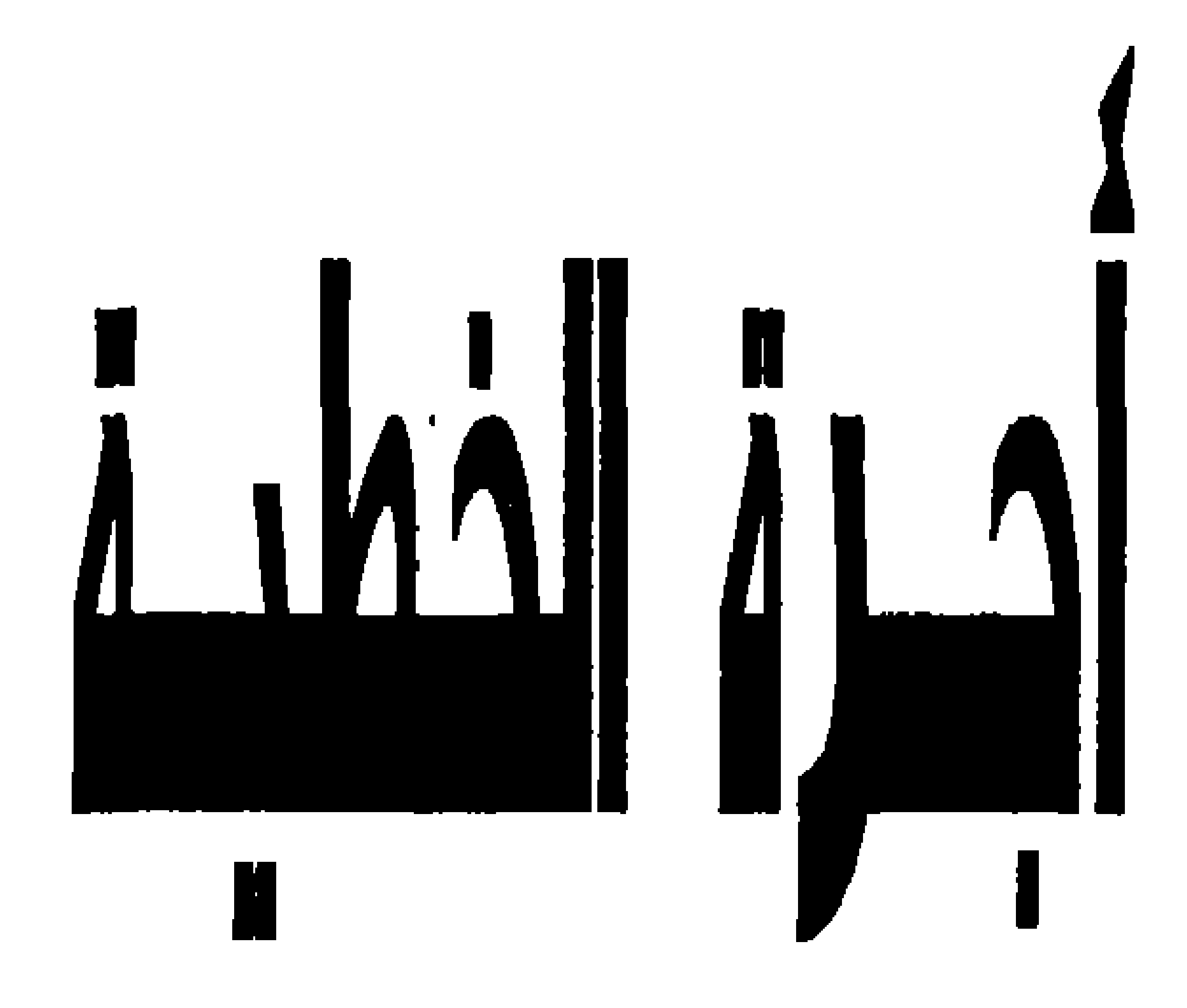
"افرحوا فى الرب كل حين، وأقول أيضاً: افرحوا! ليكن حلمكم معروفاً عند جميع الناس. الرب قريب. لا تهتموا بشىء، بل فى كل شىء بالصلاة والدعاء مع الشكر، لتعلم طلباتكم لدى الله. وسلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم فى المسيح يسوع" (فيلبى ٤ : ٤ - ٧).

ثم يتكلم بولس بطريقة مباشرة عن موضوع الرضى فى حياته فيقول:

"أعرف أن أتضع، وأعرف أيضاً أن أستفضل. فى كل شىء وفى جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص. أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى" (فيلبى ٤ : ١٢ - ١٣).

كان سر الرضى فى حياة بولس نابعاً من مبدأ عام ينطبق على الحياة الإنسانية كلها، وهو مبدأ الثقة فى الله بغض النظر عن الظروف، ومبدأ عدم توقع الكمال فى هذه الحياة. فهناك يوم أفضل مقبل على الذين وجدوا مصدر فرحهم فى شخص المسيح يسوع نفسه!

الفصل التاسع



لقد ناقشنا تلك الحالات التى فيها تجتاح حياتنا الشدائد والضيقات بدون سبب ظاهر، مثل الحوادث، والموت، والمرض، والزلازل، والحرائق، والعنف، وغيرها، والتى تقودنا دائماً إلى التساؤل: «ما الذى فعلناه حتى نستحق هذا؟» فإن عدم قدرتنا على الربط بين هذه الأحداث التى لا تفسير لها وبين أى خطأ من جانبنا يجعلنا نشعر بالخيانة وبإحساس المجنى عليه. أو ببساطة فإن الأمر يبدو وكأن فيه ظلم.

ولكن يوجد مصدر آخر للألم والمعاناة فى حياتنا، وهو جدير بالاهتمام. لقد وصفه «د. كارل مييننجر» فى كتابه «ماذا نتج عن الخطية؟» فقد كتب عن أحد المفاهيم التى كثيراً ما نتجاهلها فى حياتنا، وهو مفهوم عصيان الله وكيف أنه يدمر حياتنا. وفى الواقع، فإن العديد من المتاعب التى نلوم الله عليها تنشأ بسبب الخطية. ولست أشير إلى خطية آدم، ولكن إلى خطايا محددة تجلب الدمار على الجنس البشرى.

ويوضح الكتاب المقدس أن هناك علاقة مباشرة بين عصيان الله وبين الموت. ويصف الرسول يعقوب هذه العلاقة قائلا: «كل واحد يجرب إذا انجذب وانخدع من شهوته. ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية، والخطية إذا كملت تنتج موتاً» (يعقوب ١٤:١-١٥).

جميع الخطايا تحمل فى مضمونها هذه الخاصية المميتة. ليس أن الله يجلس فى السماء لكى ينزل الأذى بالذين يخطئون، ولكنه منع البشر من بعض السلوكيات لأنه يعرف أنها تدمر ضحاياها. فليس الله هو الذى يميتهم بل الخطية. فالخطية مثل السرطان الذى يقضى على من يصاب به.

وقد استخدم الرسول بولس هذه الكلمات للتعبير عن طبيعة الخطية المهلكة فى حياته الخاصة وعن العلاج العظيم المتاح للذين يؤمنون: «ويحى أنا الإنسان الشقى! من ينقذنى من جسد هذا الموت؟ أشكر الله (أن هذا يتم) بيسوع المسيح ربنا!» (رومية ٧:٢٤-٢٥).

ما هو «جسد الموت» الذى يشير إليه بولس؟ هذا المصطلح يصف وسيلة مرعبة للإعدام كانت تستخدم فى زمن الرومان. كانوا يربطون جثة ميت بالشخص المدان بحيث لا يستطيع الفكاك منها. وهكذا فإن فساد الجثة المتحللة يبدأ يدنس جسد المحكوم عليه بالإعدام، ويسبب له أمراض ميكروبية رهيبة تؤدى إلى العذاب والموت البطىء. ويقول بولس أن هذا ما تصنعه الخطية بالإنسان الذى لم يولد من الله. فهى تلتصق بضحيتها وتدنس كل شىء تمتد إليه يده. فبدون الاغتسال بدم يسوع المسيح فإن جميعنا مصابين بهذه الضربة القاتلة.

وهذه العلاقة بين الخطية والموت لا تنطبق فقط على الأفراد بل أيضاً على الدول. ففى القرن الثامن عشر، على سبيل المثال، كان أصحاب الأطيان ورجال الأعمال الأمريكيون يعتمدون على العبيد كمصدر للعمالة الرخيصة. وبالطبع كانوا يعرفون من البداية أنها فكرة شريرة. فإن تجار العبيد كانوا يقتادون الزنوج من قراهم الهادئة فى أفريقيا ويرحلونهم

مكبلين بالقيود فى سفن مزدحمة وقذرة وملوثة بالأمراض حتى أن ٥٠ فى المائة منهم كانوا يموتون فى الطريق. فمن الواضح أن كل حالة من هذه الوفيات كانت تعتبر حالة قتل، ومع ذلك فإن سوق العبيد كان يلقى رواجاً كبيراً فى أمريكا. كانوا يشترونهم ويبيعونهم مثل البهائم، بدون أى مراعاة للوحدة الأسرية. كان الأطفال يؤخذون من آبائهم، والزوجات من أزواجهن. كانوا يضربون ويغتصبون ويكلفون بالعمل حتى الموت. كان النظام بأكمله نظاماً فاسداً، ومع ذلك كان المجتمع الأمريكى الذى يعترف بولائه لله يقر هذا النظام. فكانت هذه هى بذور الدمار.

والخطية إذا كملت - على حد قول الرسول يعقوب - تنتج موتاً (يعقوب ١:١٥). وللأسف، فإن هذه الخطية المرعبة وصلت إلى كمال نضجها فى سنة ١٨٦٠ عندما ساهمت فى حرب أهلية مريرة ومدمرة. فإن أمة بأكملها غرقت فى دمائها. وقد قتل من الأمريكيين فى هذه الحرب عدد يفوق الذين قتلوا فى جميع الحروب الأخرى مجتمعة بما فى ذلك الثورة والحربين العالميتين الأولى والثانية وحرب كوريا وفيتنام وجميع المناوشات التى تخللتها. نعم لقد دفع ٦٠٠ ألف من الأزواج والآباء والأبناء الثمن الباهظ لجنون وغباء وطمع أمة.

وفى يومنا هذا. لقد قتل أكثر من ٢٠ مليون جنين منذ أن أصدرت المحكمة العليا قرارها البغيض فى سنة ١٩٧٣ بإباحة الإجهاض. وهذا العدد يمثل أكثر من ١٠ فى المائة من تعداد الولايات المتحدة، وهو يتزايد بمعدل ٤١١٠ يومياً. إن مثل هذه المجزرة، والتى تحدث الآن على مستوى العالم كله، لم يسبق لها مثيل فى التاريخ، ومع ذلك فهذه ليست إلا البداية. لا تحاول أن تقنعنى أن هذه الجريمة فى حق البشرية

ستمضى دون عقاب! فإن هؤلاء الأطفال الصامتين يصرخون إلى الله القدير من بين أكوام القمامة التى ألقوا بهم فيها. وسيأتى اليوم الذى فيه سيمطر دم هؤلاء الضحايا موتاً ودماراً على بلادنا. فقط انتظر وسوف ترى. فإن هذا هو قانون الكون. إن الخطية تدمر دائماً الشعب الذى يعتنقها.

اقرأ الكلمات التى قالها الرب لبنى إسرائيل منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة: «أشهد عليكم اليوم السماء والأرض. وقد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة. فاختر الحياة لكى تحيا أنت ونسلك» (تثنية ٣٠:١٩). ولكننا للأسف، قد اخترنا الموت! وسندفع ثمن ذلك.

اسمحوا لى بمثال آخر. منذ آلاف السنين ساد المفهوم بأن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج أمر خطير. والذين كسروا هذه القاعدة عرضوا أنفسهم لمخاطر الأمراض التناسلية والحمل غير المشروع والرفض من المجتمع. والنساء بصفة خاصة أكثر من الرجال أدركن خطورة الدعارة، وحاولن أن يقين أنفسهن منها. بالطبع كانت هناك استثناءات، ولكن المجتمع بوجه عام كان يقر المبادىء المسيحية ويساندها. كانت هذه المبادىء تجد دائماً من يدافع عنها لصالح أبنائنا المراهقين. ففى سنة ١٩٥٦ عندما حاول «إلفيس برسلى» أن يدخل الحركات الخليعة إلى المسرح، والتى أصبحت مألوفة بمقاييس اليوم، حدثت ضجة معارضة كبيرة من جانب الآباء. فلقد كانوا يعرفون إلى أين ستقود هذه الطريق.

وظل مجتمعنا يساند مبدأ العفة قبل الزواج والوفاء بعد الزواج من سنة ١٦٢٠ إلى ١٩٦٧. ولكن فجأة انهارت المبادىء. ويقال أنه لم يحدث فى التاريخ أن أنكر مجتمع نظامه الأساسى بأسرع مما حدث فى الستينات. فلقد أصبحت

الدعارة تسمى «بالأخلاقيات الجديدة» مع أنها لا هى جديدة ولا هى أخلاقيات! ولكنها أصبحت شيئاً مقبولاً، بل إنها أصبحت قضية لها من يدافع عنها فى الرأى العام. وفى الواقع، فلقد كان هناك تناقض واضح بين العرف والتقليد عند الشباب فى ذلك الوقت. وقد دفعوا ثمناً غالياً لهذا التناقض.

والشىء المؤسف بخصوص الانهيار المفاجىء للأخلاقيات الجنسية فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات هو اعوجاج الخط الرئيسى للكنيسة. ففى الوقت الذى كان ينبغى أن ينهض المسيحيون فيه للدفاع عن أخلاقيات الكتاب المقدس، كانت العديد من الطوائف فى شك بخصوص صحة هذه الأخلاقيات. وقد قامت مناقشة داخلية عنيفة حول ما إذا كانت هذه المحاذير لا زالت تنطبق على وقتنا الحاضر. وقد تم تسجيل هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة فى مجلة التايم (عدد ١٣ ديسمبر ١٩٧١) بعنوان «الوصية الجديدة: ذات معنيين»:

على جبل سيناء كان كلام الله واضحاً ولا يحتمل معنيين: "لا تزن". وعبر تاريخ الكنيسة فإن جميع المسيحيين الأمناء قد فسروا هذه الوصية على أنها تشمل جميع العلاقات الجنسية خارج الزواج. وقد أدان يسوع حتى الأفكار الشهوانية، قائلا أن الإنسان الذى يمارسها يرتكب الزنى فى قلبه. ولكن فى السنوات الأخيرة، تحت ضغط التغير فى السلوك الجنسى وتأثراً برجال اللاهوت الليبزاليين، بدأت الكنائس تعقد صلحاً مع "الأخلاقيات الجديدة" والتى تشكك فيما إذا كانت أى "خطية" مثل الزنى أو أى ممارسة أخرى للجنس خارج الزواج، تعتبر خطأً فى جميع الظروف.

وقد بدأت الحركة في سنة ١٩٦٠ بمجموعة من المؤلفين الذين دافعوا عن "الأخلاقيات التي تتوقف على الظروف". وكما هو مدون في أحد الكتب الأكثر انتشاراً بقلم "جوزيف فلتشر" التابع للكنيسة الأسقفية، حيث يقول أنه توجد دائماً بعض الظروف التي لا يمكن فيها تطبيق المبادىء الأخلاقية بصورة حرفية. ولكن الامتحان الصادق الوحيد في هذه الحالة هو تطبيق ما تتطلبه محبة الله في كل ظرف على حدة.

واستمرت المقالة في وصف أربع كنائس معروفة وكيف أنها تبذل الجهود لتوسيع حدود السلوك الجنسي بالنسبة لأعضائها، وجميعهم كانوا قد استلموا من بعض اللجان الداخلية تقارير توصي بإعادة تعريف السلوك غير الأخلاقي. واحدة من أكبر هذه الكنائس كانت تعد مشروع قرار يبيح بصفة محددة الاتصال الجنسي بين غير المتزوجين، والشذوذ الجنسي، وأيضاً بعض أنماط «أخرى» من العلاقات. وكنيسة أخرى كانت تناقش تقريراً يفيد بأن ممارسة الجنس قبل الزواج ليس خطأ في حد ذاته إلا إذا كان له الطابع الأناني والاستغلالي. وكنيسة أخرى في أحد تقاريرها كانت تفكر في «إمكانية تطوير العلاقة الجنسية قبل الزواج، وتعميقها، حتى تصبح دائمة وعلى مستوى من النضج». وذكر هذا التقرير أيضاً «حالات استثنائية» فيها يصبح الزنى مباحاً. أما الكنيسة الرابعة فلقد تسلمت اقتراحاً كتبه ستة من المسئولين عن التربية الدينية يفيد بأن «الجنس لا يضر في شيء طالما أن الطرفين ملتزمان بإشباع احتياجات بعضهما البعض، وأن الزواج ليس شرطاً أساسياً في هذه الحالة».

وتختم مجلة التايم مقالها بهذا الاستنتاج:

"على خلاف المفهوم التقليدى بأن الله يريد أناساً يخضعون لقالب إلهى محدد، فإن "الأخلاقيات الجديدة" تبنى حجتها على فكرة أن الله يفضل أناساً يسنون تشريعاتهم المسئولة بأنفسهم".

ياله من تحوير للمقاييس الكتابية! فالكتاب المقدس كله، بأسفاره الـ ٦٦، لم يذكر أى إشارة إلى أن الله يريدنا أن نضع قوانيننا بأنفسنا، ومع ذلك فقد كانت هذه هى النغمة السائدة فى ذلك الوقت.

والآن، بعد مرور أكثر من عشرين سنة على هذه الاقتراحات، نجد أن الأفكار الأساسية التى تم التمهيد لها فى أوائل السبعينات، أصبحت الآن ذات شعبية واسعة فى المجتمع. فلقد توارت «الأخلاقيات القديمة» وحلت مكانها مقاييس سلوكية أكثر تحرراً. وقد وصل الأمر ببعض الكنائس أنها أصبحت تساند قضية الشذوذ الجنسى، بل وفى بعض الأحيان ترسم قسوساً من بينهم! وأصبح المراهقون الذين ينشأون فى الكنائس الأكثر تحفظاً، لا يختلفون كثيراً عن غيرهم سوى أنهم «أقل نشاطاً» منهم من الناحية الجنسية. لقد تحررت أمريكا ومعظم الدول الغربية من قيود الشرع، إذ قد بزغ فجر جديد! ولكن قبل أن نحتفل بهذه الحرية، دعونا نستعرض الانجازات التى تمت فى ظل هذه «الأخلاقيات الجديدة»، ونبحث نتائج حركة التصحيح التى كثرت المناقشات بخصوصها فى أوائل السبعينات!

أنت تعرف بكل تأكيد ما هى هذه النتائج. فإن سرطان الخطية قد نضج وبدأنا نجنى ثماره المريرة. فقط اقرأ هذه الإحصائيات لكى تبكى على بنى وطنك:

* *مليون مواطن أمريكى مصابون بفيروس الإيدز (توجد ١١٠ مليون حالة فى كل العالم).*

* *يتم اكتشاف مليون حالة جديدة لمرضى التهاب الحوض سنوياً.*

* *١,٣ مليون حالة جديدة من حالات السيلان تحدث سنوياً. وقد نتجت سلالات جديدة من الميكروب تقاوم مفعول البنسلين.*

* *تظهر كل سنة ١٣٤٠٠٠ حالة زهرى جديدة.*

* *نصف مليون حالة جديدة من حالات الهربس تحدث سنوياً. وتشير التقديرات إلى أن ١٦,٤ فى المائة من تعداد الولايات المتحدة بين عمر ١٥-٧٤ مصابين بالهربس، بإجمالى ٢٥ مليون حالة، وبين بعض الفئات ترتفع نسبة الإصابة إلى ٦٠ فى المائة.*

* *أكثر الأمراض الجنسية القاتلة شيوعاً بين النساء ليس هو الإيدز كما يعتقد البعض، ولكنه مرض فيروس "هيومان بابيلوما" HPV الذى يسبب سرطان عنق الرحم. فإن ٦٠٠٠ امرأة تموت بهذا المرض كل سنة فى الولايات المتحدة، و ٢٤ مليون امرأة أمريكية مصابة حالياً بفيروس HPV*

* *يتم إجهاض مليون ونصف جنين سنوياً قبل ولادتهم.*
* *حوالى ٢٠ فى المائة من الفتيات يكونون حوامل فى يوم زفافهن.*
* *نسبة الطلاق فى أمريكا هى أعلى نسبة فى العالم المتحضر.*

إننا شعب مريض. لقد ذكر تقرير حديث لمركز مكافحة الأمراض فى الولايات المتحدة أن ٤٣ مليون من مواطنينا (تقريباً واحد من بين خمسة) مصابون بمرض لا شفاء منه ينتقل عن طريق الممارسة الجنسية. بعضهم سيموت به، وبعضهم الآخر سيعانى منه حتى نهاية حياته. فهل كان يمكن لأحد أن يتوقع أن الحرية الجنسية كانت ستجلب كل هذا الدمار على المستوى الاجتماعى والروحى والجسمانى؟!

كان ينبغى أن نتوقع ذلك. فمنذ اللقاء الأول بين الحية وحواء فى جنة عدن، والجنس البشرى يريد أن يخطىء بدون أن ينال عقاباً. قالت لها الحية: «لن تموتا». كذبت عليها. ولا زالت الكذبة تسرى حتى يومنا هذا. لا زال المسئولون عن التربية الجنسية يعلمون أولادنا أنهم يستطيعون تجنب الأضرار باستخدام العازل الطبى. وللأسف، فإن الحكومة الفيدرالية قد أنفقت ٢ بليون دولار للترويج لفكرة أن الجنس قبل الزواج لا ضرر منه طالما أنه يتم «بالطريقة الصحيحة». ولكن برنامجهم فشل فشلا ذريعاً. لماذا؟ لأن الأساس الأخلاقى للكون هو تعبير عن ذات طبيعة الله، وهو يحكم كل شيء. فكل الذين يحاولون أن يخطئوا بدون أن تصيبهم أضرار سيدفعون الثمن غالياً!

إننى أسأل الناس أحياناً ما هو أول شيء خلقه الله عندما أسس الأرض. ويحاول البعض أن يتذكر من تكوين ١ هل خلق الله النور أولا أم السماء أم البحار. ولكن ولا واحدة من هذه هى الإجابة الصحيحة. نقرأ فى أمثال ٨ أن خلق الكون المادى كان مسبوقاً بشيء آخر. دعونا نقرأ هذا الأصحاح معاً:

"الرب قنانى أول طريقه، من قبل أعماله منذ القدم؛ منذ الأزل مسحت. منذ البدء، منذ أوائل الأرض. إذ لم يكن غمر أبدئت، إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه؛ من قبل أن تقررت الجبال، قبل التلال أبدئت، إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد ولا البرارى ولا أول أعفار المسكونة. لما ثبت السموات، كنت هناك أنا، لما رسم دائرة على وجه الغمر، لما أثبت السحب من فوق، لما تشددت ينابيع الغمر، لما وضع للبحر حده فلا تتعدى المياه تخمه، لما رسم أسس الأرض. كنت عنده صانعاً. وكنت كل يوم لذته، فرحة دائماً قدامه. فرحة فى مسكونة أرضه، ولذاتى مع بنى آدم. فالآن أيها البنون اسمعوا لى؛ فطوبى للذين يحفظون طرقى. اسمعوا التعليم وكونوا حكماء ولا ترفضوه. طوبى للإنسان الذى يسمع لى ساهراً كل يوم عند مصاريعى، حافظاً قوائم أبوابى. لأن من يجدنى يجد الحياة وينال رضى من الرب. ومن يخطيء عنى يضر نفسه؛ كل مبغضى يحبون الموت". (أمثال ٨: ٢٢ - ٣٦).

ياله من تعبير واضح عن الطبيعة الإلهية! فإن الأساس الأخلاقى للكون لم يكن فكرة لاحقة جاءت بعد خلق الإنسان، والوصايا العشرة لم تخطر على بال الرب بعد أن شاهد عصيان

بنى إسرائيل فى البرية. كلا، فإن مفاهيم الصواب والخطأ قد انبعثت من ذات طبيعة الله، وكانت موجودة منذ الأزل. فهى بالطبع كانت موجودة قبل الخليقة المذكورة فى تكوين ١.

فما الذى يعنيه ذلك بالنسبة لك ولى؟ إنه يوضح السلطة الموجودة وراء القوانين الأخلاقية المدونة فى الكتاب المقدس! هذه القوانين تفوق بمراحل فى أهميتها القوانين الطبيعية. وفى الواقع، فإنه سيأتى اليوم الذى فيه سيزول الكون المادى ويستبدل بآخر، ولكن نواميس الله أبدية، وكل الذين يقاومونها «يحبون الموت».

والآن، لماذا قدمت هذا التفسير فى مناقشة مثل هذه عن تدخلات الله فى حياتنا؟ السبب هو أنى أعتقد أن الكثير من التجارب والضيقات التى تأتى فى طريقنا هى من صنعنا نحن. بعضها هو نتيجة مباشرة للخطية، كما رأينا، وبعضها الآخر ناتج عن قرارات غير حكيمة. فنحن نصنع هذه الفوضى فى حياتنا من خلال جهلنا وعدم إحساسنا بالمسئولية.

نحن ننغمس فى احتساء الخمور، ونكثر من لعب القمار، ونتشبع بأفكار الدعارة، ونقود سياراتنا بسرعة جنونية، ونعيش كما لو كان ليس هناك غد، ونتحدى رؤساءنا فى العمل، وننفق أموالا لا نمتلكها ولا نعرف كيف سنردها، ونخلق المشاكل فى البيت جالبين التعاسة على أنفسنا وعلى أسرنا، ونلعب بتنين الخيانة، ونكسر قوانين الله ظانين أننا بهذا نتحرر من المألوف، ثم عندما يأتى الأوان لدفع «أجرة» هذه الحماقات، نلتفت بوجوهنا الشاحبة إلى السماء ونصرخ «لماذا أنا؟». فى الحقيقة، هذه ليست إلا النتائج الطبيعية للعبة الخطيرة التى اخترنا أن نلعبها.

هذا بالطبع لا يعنى أن كل ألم أو مرض أو كرب يصيبنا هو نتيجة للخطية، وقد سبق أن ناقشنا هذا الفخ فى الفصل الخامس. ولكن هناك بعض الحالات التى لا نستطيع فيها أن ننكر هذه العلاقة. فهناك أمراض تنتج عن إساءة الإنسان لجسده، مثل سرطان الرئة الذى ينتج عن التدخين، وتليف الكبد الذى ينتج عن شرب الخمور، أو المرض العقلى الذى يسببه تعاطى المخدرات. هذه كلها جروح يسببها الإنسان لنفسه.

والمثل الأوضح فى أيامنا هذه هو فيروس الإيدز. فكثيراً ما يثار هذا السؤال: هل أرسل الله الإيدز كعقاب للشذوذ الجنسى؟ وأنا أعتقد يقيناً أن الإجابة: لا! فإن أبرياء كثيرون ومنهم أطفال يموتون بالإيدز، فى حين أن عقاب الله كان ينبغى أن يقع على المذنب فقط. ومع ذلك فإن الإيدز ينتشر من خلال الشذوذ والدعارة والمخدرات، أى أن السلوك الخاطى قد ساعد على انتشار هذا الوباء الذى يهدد الآن البشرية كلها.

فلنفكر فى الأمر بهذه الطريقة. لو أنى اخترت أن أقفز من فوق مبنى من عشرة طوابق، فإنى سأموت بلا شك فى اللحظة التى يصطدم فيها جسدى بالأرض. ولكن هذا لا يعنى أن الله قد خلق الجاذبية الأرضية ليعاقبنى على سوء سلوكى. فهو قد خلق القوانين الطبيعية ولا يستطيع أحد أن يخالفها بدون أضرار جسيمة. هكذا أيضاً بالنسبة للقوانين الروحية. فهى حقيقية ونتائجها متوقعة تماماً مثل القوانين التى تحكم الكون المادى. لذلك كان من الواضح (وكان ينبغى لنا أن نعرف) منذ بداية الثورة الجنسية سنة ١٩٦٧ أنه سيأتى اليوم الذى فيه تصيبنا هذه الأمراض. فإن ما نفعله الآن بهذه الأوضاع هو الذى سيحدد حجم المعاناة التى ستأتى علينا نحن وأولادنا فى المستقبل.

وربما ستكون هذه القصة الختامية مناسبة لتلخيص الموضوع وتوضيح ما هو الهدف الحيوى بحسب اعتقادى فى الصراع بين الخير والشر.

سمعت عن مرسل فى أفريقيا عاد إلى كوخه فى أحد الأيام، فوجد أمام الباب مباشرة أفعى ضخمة ممددة على الأرض. فأسرع إلى سيارته وأحضر مسدسه ولكن لسوء الحظ لم يكن لديه سوى رصاصة واحدة. وبكل حرص صوب مسدسه نحو رأس الأفعى فأصابها إصابة قاتلة ولكنها لم تمت فى الحال. فأخذت تتلوى وتضرب الأرض فى غضب، وقد وقف المرسل عن بعد يسمع أثاث بيته يتكسر والمصابيح تتحطم. وأخيراً ساد الهدوء، ودخل الرجل بكل احتراس إلى المنزل، فوجد الأفعى ميتة، ولكن كل محتويات الكوخ كانت محطمة. ففى لحظة الموت، أطلقت الأفعى جام غضبها وجبروتها على كل شيء أمامها.

وفيما بعد قارن المرسل بين هذه الأفعى وتلك الأفعى التى تسمى الشيطان . فإن عدونا قد أصيب فعلا إصابة قاتلة بموت وقيامة يسوع المسيح. فى تكوين ٣:١٥، قال الرب للحية «وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه». فالشيطان أيامه معدودة وهو يعرف هذا. ولذلك فإنه فى محاولة يائسة لتقويض إرادة الله وخداع شعبه، قد أطلق إبليس اليوم كل طاقته وغضبه. إنه يزرع الكراهية والخداع والعنف أينما تعارضت المصالح البشرية. وهو يبغض بصفة خاصة نظام الأسرة، لأنه يرمز إلى العلاقة بين المسيح وكنيسته.

فكيف يمكننا أن ننجو فى مثل هذه الظروف الخطيرة؟ كيف يمكننا أن نتعامل مع شدة غضب الشيطان فى أيامه

الأخيرة؟ بالطبع لا يمكننا أن نصمد بقوتنا الذاتية. ولكن اصغ لما يقوله يسوع عن أتباعه: «خرافى تسمع صوتى؛ وأنا أعرفها، فتتبعنى. وأنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد؛ **ولا يخطفها أحد من يدى**. أبى الذى أعطانى إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبى» (يوحنا ١٠: ٢٧-٢٩).

فمع يسوع، ليس لنا أن نخاف من المخادع أبو كل كذاب. فإن لنا الوعد فى الكتاب المقدس كله أننا لن نحارب حروبنا بمفردنا. وقد كتب يوحنا، التلميذ الذى كان يسوع يحبه، كلمات التشجيع هذه بعد حياة مليئة بالخدمة للسيد: «ياأولادى أكتب إليكم هذا لكى لا تخطئوا، وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب، يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً» (١يوحنا ٢: ١-٢).

وقد أكد الرسول بولس أن الخطية ليس من حقها أن تسود علينا. فقال:

"فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح، الذى به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله".

هذه هى البشرى العظيمة لجميع الذين أعيتهم وأنهكتهم ضغوط الحياة. فإن كل شىء يكمن فى هذا المفهوم البسيط: أن الله ليس ضدنا بسبب خطايانا، بل هو معنا ضد خطايانا. هذا هو الفرق العظيم.

الفصل العاشر

مزيد من الأسئلة وأجوبتها

دعونا نرجع الآن إلى أسلوب المناقشة، مع التركيز على بعض النقاط الإضافية التى تعرضنا لها.

السؤال الأول:

لقد صلينا من أجل أولادنا الثلاث من قبل أن يولدوا، وقد وضعنا أسماءهم أمام الرب تقريباً كل يوم من أيام حياتهم. ومع ذلك فلقد اختارت ابنتنا الوسطى أن ترفض الإيمان، وأن تعمل أشياء تعرف أنها خطأ. إنها تعيش مع رجل مطلق مرتين وعلى ما يبدو أنها لا تنوى أن تتزوجه. لقد قامت بعملية إجهاض مرتين على الأقل فى حدود علمنا، وقد أصبحت لغتها بذيئة. وقد صليت أنا وزوجتى من أجلها إلى حد الإرهاق، ومع ذلك فلم تصدر من جانبها أى بادرة للرجوع إلى الكنيسة. أحياناً أشعر بالغضب الشديد تجاه الله لأنه سمح بحدوث هذا الأمر الرهيب. وقد بكيت حتى لم تعد هناك قوة على البكاء. هل يمكنك أن تقدم لنا أى تشجيع؟

الإجابة:

إننى أستطيع بالطبع أن أتفهم ألمكما. وبحسب اعتقادى، إن أكثر الأمور إحباطاً للناس من جهة الله هى تلك الأمور المتعلقة بأبنائهم. فليس هناك فى نظر الآباء المؤمنين موضوع

أهم من موضوع خلاص أبنائهم. بل أن كل هدف أو إنجاز آخر فى الحياة يتضاءل بالمقارنة مع هذا الأمر. فهذه هى الوسيلة الوحيدة التى بها يضمنون وجودهم معهم طوال الأبدية. ولذلك فإنهم يصلون، مثلما فعلت أنت وزوجتك، من أجلهم نهاراً وليلا لكى تستيقظ أرواحهم. ولكن للأسف، إذا لم يستجب الله لهذه الصلوات بالسرعة الكافية فإنهم يميلون الى إلقاء اللوم عليه وإلى الوقوع فى أشد حالات المرارة. فها هو «حاجز الخيانة» يطالب بضحية جديدة!

وغالباً فإن الغضب تجاه الله ينشأ من سوء الفهم لما يريد الله وما لا يريد أن يفعله فى حياة الأشخاص الذين نصلى من أجلهم. والسؤال الفاصل هنا هو: هل يمكن لله أن يرغم أبناءنا على عبادته إذا هم اختاروا طريق العصيان؟ إنه سؤال حيوى للغاية.

والإجابة عليه بحسب رأى «الدكتور جون هوايت» وغيره من اللاهوتيين الذين استشرتهم فى هذا الأمر، هو أن الله لا يفرض أبداً نفسه على أحد. فلو لم تكن هذه من صفاته لما هلك أحد. تخبرنا رسالة بطرس الثانية ٣:٩ أنه «يتأنى علينا، وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة». فللحصول على هذا الخلاص العظيم هناك شرط. وهو أن يتقدم الشخص ويمسك به. على الشخص أن يتوب عن خطاياه ويؤمن باسم الرب يسوع المسيح. بدون خطوة الإيمان هذه، لا يمكن الحصول على عطية الغفران والحياة الأبدية.

فما هو إذاً دور الصلاة، طالما أن هناك منطقة لا يمكن للآب أن يقتحمها؟ نقتبس من كتاب «آباء متألمون» للدكتور «جون هوايت» حيث يقول:

هنا يكمن المفتاح لفهم الطريقة التى بها يمكننا أن نصلى لأبنائنا أو لأى أشخاص آخرين. فإننا نستطيع بكل ثقة أن نطلب من الله أن يفتح أعين العميان روحياً ومعنوياً. ونستطيع أن نطلب منه أن يهدم بقوة الحق حصون الأوهام الذاتية التى يختبىء خلفها الخطاة، وأن يشقق المغاير المظلمة لكى يشرق فيها نور النهار، وأن ينزع عن الناس الثياب المزيفة التى يستترون بها فيظهر لهم خزى عريهم أمام النور الإلهى المقدس. ونستطيع أن نطلب فوق كل شىء أن إنجيل مجد الله فى وجه يسوع المسيح يشرق فى وسط العمى الروحى الذى صنعه إله هذا الدهر (٢كورنثوس ٤: ٤، ٦). هذه كلها نستطيع أن نطلبها واثقين تماماً ليس فقط بأن الله سيسمعها بل أيضاً سيسر بأن يستجيبها.

ولكننا لا نستطيع أن نطلب منه أن يرغم أى إنسان على أن يحبه ويثق فيه. أن ينجيه من التجربة؛ نعم. أن يقدم له كل فرصة ممكنة؛ نعم. أن يعلن له عن جماله وحنانه وغفرانه؛ نعم. ولكن أن يرغم إنساناً على غير رغبته أن يحنى ركبتيه أمامه، أو أن يرغم إنساناً أن يثق فيه؛ كلا، البتة.

وبمعنى آخر، فإن الله لا يخلص أحداً على غير رغبته، ولكنه يستطيع بألف طريقة أن يجعله أكثر رغبة فى ذلك. وهكذا فإن صلواتنا تطلق قوة الله فى حياة الأشخاص الذين نصلى من أجلهم. إن لنا هذا الامتياز أن نمارس الصلاة الشفاعية من أجل أحبائنا، وأن نحمل أسماءهم أمام وجه أبينا.

وفى المقابل، فإنه سيجعل القرارات المصيرية تلمع أمام هؤلاء الأشخاص وسوف يضع العديد من المؤثرات الإيجابية فى حياتهم لتشجيعهم على اتخاذ الخطوة الصحيحة، ولكنه لن يتدخل أبعد من ذلك.

ولعلنا الآن نخوض فى مياه عميقة نسبياً من الناحية اللاهوتية. فمن يعرف بالضبط ما هى الطريقة التى بها يستجيب الله الصلاة الشفاعية؟ كيف أستطيع أن أفسر صلوات جدى الأكبر (من جانب أمى) الذى توفى قبل ولادتى بسنة واحدة؟ كان هذا الرجل التقى «ج.و. ماكلاسكى» يخصص ساعة يومياً، من ١١ صباحاً إلى ١٢ ظهراً، ليصلى بالتحديد من أجل سلامة أسرته من الناحية الروحية. كان يتحدث مع الرب ليس فقط بخصوص الأحياء منهم فى ذلك الوقت، بل أيضاً من أجل الأجيال التى لم تولد بعد. لقد كان هذا الرجل التقى يصلى من أجلى حتى قبل أن تحبل بى أمى.

وقرب نهاية حياته، أعلن جدى الأكبر هذا إعلاناً مدهشاً. قال أن الرب قد وعده بأن أفراد أسرته حتى أربعة أجيال - الموجودين منهم والذين لم يولدوا بعد - سيكونوا جميعهم مؤمنين. حسناً، فها أنا الآن من الجيل الرابع لذلك الشخص، وقد استجاب الرب لصلاته ربما بطريقة أعظم مما كان يتوقع.

لقد كان للجد ماكلاسكى ابنتين، إحداهما هى جدتى. وقد تزوجت كلتاهما من رعاة فى الكنيسة. وقد ولد لهاتين السيدتين خمس بنات وولد واحد. واحدة منهن هى أمى. وقد تزوجت البنات الخمسة من رعاة فى الكنيسة والولد أيضاً اتجه إلى العمل الرعوى. وهكذا وصلنا إلى جيلى، فكنت أنا وابن خالتى «هـ.ب. لندن» أول من التحقنا بالجامعة، وكنا

نسكن معاً فى حجرة واحدة. وفى بداية السنة الثانية لنا فى الكلية، صرح لى بأن الله يدعوه للتبشير. وفى الحقيقة فإننى بدأت أشعر بالقلق تجاه هذا التقليد السائد فى العائلة!

ولم أشعر أبداً أن الله يدعونى لمثل هذا العمل، فأكملت دراستى الجامعية وتخصصت فى علم النفس. ومع ذلك فلقد قضيت حياتى العملية كلها فى الكلام والتعليم والكتابة عن أهمية الإيمان بيسوع المسيح. وأحياناً عندما أجلس على المنبر فى الكنيسة مستعداً لإلقاء كلمة على جمع من المسيحيين، أتخيل أن جدى الأكبر يبتسم وهو ينظر الى من مكان ما. لقد بلغت صلواته حتى الجيل الرابع واستطاعت أن تؤثر على ما أفعله بحياتى اليوم.

فما علاقة هذا بحرية الإرادة؟ لست أعرف تماماً، ولكنى أعرف فقط أن الله يكرم صلوات أتباعه الأتقياء، وعلينا أن نظل أمامه على وجوهنا حتى يحصل جميع أبنائنا على كل فرصة ممكنة للتوبة. ولكن علينا أن نتذكر أن الله لن يستخدم اللجام أبداً مع أى شخص. ولكنه يحترم إرادة الإنسان بينما هو يحاول أن يجذبه إلى نفسه. لذلك فمن الخطأ أن نلوم الله إذا استغرقت هذه العملية سنوات عديدة أو حتى إذا لم تتم بالمرة. فهذا هو ثمن الحرية.

السؤال الثانى:

(سؤال تابع) معنى إجابتك أننا ينبغى أن نستمر مصلين من أجل ابنتنا سنة بعد سنة حتى تعود إلى الإيمان. هل هذا يعنى أن الله لن يستاء من إلحاحنا فى طلب نفس الشىء مراراً وتكراراً؟ هل هذا هو ما يريده منا بخصوصها؟

الإجابة:

نعم. طالما أن الشيء الذي تطلبونه في إطار مشيئة الله، مثل الصلاة من أجل خلاص ابنتكم، أعتقد أنه ينبغي أن تستمروا في وضع الأمر أمامه حتى تحصلوا على الإجابة. فهناك حرب روحية قائمة بخصوص نفسها، وصلواتكم مهمة جداً للانتصار في هذه الحرب. ويحرضنا الرسول بولس قائلا: «صلوا بلا انقطاع» (١تسالونيكي ٥:١٧). أليس هذا ما علمنا يسوع إياه في مثل قاضي الظلم؟ دعونا نقرأه في إنجيل لوقا:

وقال لهم أيضاً مثلا في أنه ينبغي أن يصلى كل حين ولا يمل، قائلا: "كان في مدينة قاض لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً. وكان في تلك المدينة أرملة، وكانت تأتي إليه قائلة: انصفني من خصمي. وكان لا يشاء إلى زمان. ولكن بعد ذلك قال في نفسه: وإن كنت لا أخاف الله ولا أهاب إنساناً، فإني لأجل أن هذه الأرملة تزعجني أنصفها لئلا تأتي دائماً فتقمعني". وقال الرب: "اسمعوا ما يقول قاضي الظلم. ألا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلا وهو متمهل عليهم؟ أقول لكم إنه ينصفهم سريعاً" (لوقا ١٨: ١-٨).

إني أحب هذا النص الكتابي لأنه يخبرنا أن الله لا يغضب من إلحاحنا في الصلاة. فهو يحثنا ألا نستسلم بل أن نزلزل السماء بطلبات قلوبنا. وفي هذا التشجيع الكافي لي لكي أستمر مصلياً مدى الحياة.

لقد شاركتكم فى قصة عن جدى الأكبر من جانب أمى. أرجو أن تسمحوا لى بسرد قصة من حياة جدتى من جانب أبى، وهى «جوانيتا دوبسون». لقد عرفت ما معنى «الصلاة بلا انقطاع»، حتى فى عدم وجود أى دلائل مشجعة. لقد كانت مؤمنة عميقة فى التزامها الروحى، وكانت متزوجة من رجل غير مؤمن. ولأنه كان رجل ذو أخلاق حميدة وقلب طيب، فلم يكن يشعر بحاجته إلى العلاقة الشخصية مع المسيح. وكانت هذه الحقيقة لعنة عليه.

لم يمانع فى أن تذهب زوجته إلى الكنيسة وأن تقوم بأنشطة دينية ولكنه لم يكن يشارك فيها. وكان يبغض بصفة خاصة أى محاولة لاجتذابه إلى هذه الأمور. كان هذا باباً موصداً بالنسبة له. ولذلك فبدلا من أن تلح على زوجها لكى يأتى إلى المسيح، بدأت «جوانيتا» حملة صلاة من أجله استمرت عشرات السنين. فلقد ظلت لسنوات عديدة تصوم بانتظام من أجل خلاص نفسه، وذلك على الرغم من عدم وجود أى دليل حتى على أن هناك من يستمع إلى صلواتها!

ومع ذلك، فلقد ظل قلب جدى متقسياً كالصخر. ولكن عند بلوغه سن التاسعة والستين، أصيب بعدة جلطات تركت أثرها عليه فيما يشبه الشلل. لقد كان قبلا رجلا قوياً، طوله ١٩٠ سم، يعمل سائقاً فى السكة الحديد، ولم يمرض ولا يوم واحد طوال حياته. وقد تحطم تماماً لوجوده فى هذه الحالة من العجز الدائم. وفى إحدى الأمسيات كانت ابنته تقوم على خدمته، وتقدم له الدواء، وبينما هى تميل نحوه لكى تعد له الفراش، لاحظت أنه يبكى. لا يذكر أحد أبداً أنه رأى ذلك الرجل المغرور يذرف دمعة واحدة. فاندهشت الإبنة وقالت له: «ماذا بك يا أبى؟». أجابها: «اذهبى ياحبيبتى واستدعى أمك».

وجاءت جدتى تجرى وركعت بجوار سرير زوجها. فأخذ يدها وقال لها: «أنا أعرف أنى سأموت، وأنا لست خائفاً من الموت. ولكنه مظلم جداً. هل تصلين من أجلى؟»

قالت جدتى: «هل أصلى من أجلك؟» لقد انتظرت منه أن يسأل هذا السؤال لأكثر من ٤٠ سنة! فبدأت فى الحال تطلب إلى الله من أجل زوجها، وهكذا أقبل إلى علاقة شخصية مع يسوع المسيح وهو على فراش المرض. وتقول جدتى أنها شعرت فى هذه اللحظة وكأن جمهور من الملائكة قد بدأوا يرنمون داخل قلبها. وبعد أسبوعين مات الجد «دوبسون» وشهادة يسوع على شفتيه. وإنى أثق أنه هو وجدتى الآن فى السماء بسبب مثابرة إيمانها.

قال «ونستون تشرشل» أثناء الحرب العالمية الثانية: «لا تستسلموا أبداً! لا تستسلموا أبداً، أبداً، أبداً!». هذه النصيحة لا تنطبق فقط على مدينة واقعة تحت الحصار ولكن أيضاً على المؤمنين الطالبين لمسة من العلى. وأقولها ثانية لجميع الآباء والأمهات، إن أولويتكم الأولى هى أن تقودوا أولادكم إلى الراعى. فلا تكفوا عن الصلاة إلى أن يتحقق هذا الهدف.

السؤال الثالث:

لقد سبق أن كتبتم عن الافتخار البشرى وكيف أنه يهين الله. ولكنى لست أفهم ما الذى تقصدونه بالضبط. ألا ينبغى أن تفتخر البشرية بإنجازاتها واكتشافاتها؟ ألا تشعر بالإعجاب تجاه إنجازات العلم الحديث فى مجال الطب والفنون؟ فما الخطأ فى أن يشعر الإنسان بقليل من الإعجاب والثقة بالنفس؟ هل تظن أن الله، إذا كان موجوداً، يريدنا أن نتذلل أمامه مثل المتسولين؟

الإجابة:

بصفتي أستاذ سابق في كلية الطب، فلقد أبصرت الكثير من المعجزات التي تحققت من خلال البحث العلمي. وإني سعيد حقاً لأني أعيش في زمن فيه المعرفة متاحة لأي إنسان يدخل إلى مكتبة عامة. فإن زمننا بلا شك هو زمن متميز ومن حقنا أن نشعر بالرضى من نحو الجهد المبذول للتقليل من آلام البشرية وتقديم حياة أفضل لنا جميعاً. فليس هناك ما يسيء إلى الله من جهة التقدم في حد ذاته.

ولكن يوجد شر دفين في الفكرة السائدة بأن الإنسان لم يعد يحتاج إلى الله، وأننا أصبحنا نستطيع أن ندبر أمورنا بأنفسنا. بل والأخطر منها هي فلسفة العصر الجديد New Age والتي تمنح الصفات الإلهية للبشر المائتين. فإن أتباعها يعبدون الذهن البشري، وكأن هذه الكتلة المجعدة من مادة المخ هي التي خلقت نفسها من العدم. وينادي أتباع «شيرلي ماكلين» قائلين: «إننا نستخدم فقط ٥ في المائة من أذهاننا، فتخيل ما الذي يمكننا تحقيقه لو أننا استخدمنا طاقاتنا كاملة». إني لست ضد النظريات العلمية، أما نظرية «الطاقات البشرية» فلست أجد لها أي معنى. فلو كانت هناك إمكانية بأن نستخدم أذهاننا بكفاءة تزيد ٩٥٪ عن طاقتها الحالية، لكان بالضرورة قد اكتشفها أحد. وحتى لو حدث ذلك، فإننا سنظل نمتلك أذهان صغيرة جداً بالمقارنة بحكمة وسلطان الخالق القدير.

والكلمات التي يمكن أن نصف بها مثل هذا الافتخار البشري هي «التكبر» أو «الغطرسة». فمع أننا موجودون بفضل نعمة إله محب، إلا أن البشرية تحاول باستمرار أن

تتخطاه كالسلطة الأخلاقية لهذا الكون. لقد نبذنا وصاياه واستبدلناها بأفكارنا وآرائنا العقيمة. وقد استنتج أتباع «الحركة الإنسانية العلمانية» بأنه ليس هناك حقائق أبدية، ولا مبادىء علوية، ولا يوجد صواب مطلق وخطأ مطلق. فإن ما يبدو صواباً فى اللحظة الحالية هو صواب. أما الأخلاقيات فإنها تتحدد بناء على الرأى العام، وكأن محصلة جهلنا ستقودنا بطريقة ما إلى الحقيقة. وفى خضم هذه النظريات نسينا إيمان آبائنا الذى تسلم لنا بكل حب وعناية والذى استؤمنا عليه.

وبالطبع فإن الغطرسة ليست ظاهرة جديدة فى المجتمع البشرى. فلقد أخبرنا يسوع عن مزارع غنى لم يكن محتاجاً لله. كانت حياته مريحة ومرتبة. وقد أنتجت مزارعة فى تلك السنة إنتاجاً غزيراً إلى درجة أنه لم يجد أين يخزن كل هذا المحصول. لقد كانت هذه هى مشكلته الوحيدة فى عالم ملىء بالجوع والحرمان.

"وقال: أعمل هذا، أهدم مخازنى وأبنى أعظم، وأجمع هناك جميع غلاتى وخيراتى. وأقول لنفسى: يانفس لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة. استريحى وكلى واشربى وافرحى. فقال له الله: ياغبى هذه الليلة تطلب نفسك منك. وهذه التى أعددتها لمن تكون؟" (لوقا ١٢: ١٨ - ٢٠)

إن هذا المزارع الغنى الذى كان يفتخر باكتفائه الذاتى يذكرنى بنجوم ومشاهير عصرنا. تصفح فقط أى عدد من مجلة People وستجد رائحة الكبرياء البشرية تفوح من بين صفحاتها. فعندما أفكر فى الغطرسة البشرية وتبجحها على

الله، أتذكر مطرب الروك الراحل «جون لينون». فلقد تمرد هو وزملاؤه من البيتلز على كل ما هو مقدس وطاهر. وقد انغمسوا فى أشر الممارسات الجنسية والشذوذية، وقد أشاعوا استخدام الماريجوانا والمخدرات الثقيلة بين جيل كامل من الشباب، ولا زلنا نعانى من هذه الضربة حتى يومنا هذا. وقد كانت بعض مقطوعاتهم الموسيقية، على الرغم من براعتها، تعبر تعبيراً قوياً عن هذا الانحطاط والتدهور، وقد أعدت المسرح للإضافات الشيطانية التى أدخلت إلى موسيقى الروك فى أيامنا هذه.

وقد كان «لينون» أيضاً ملحداً مشهوراً. إحدى مقطوعاته الموسيقية المعروفة كانت أغنية بعنوان «تخيل» والتى فيها يفترض وجود عالم ليس به ديانة تجلب الدمار على الجنس البشرى!كان «لينون» يشعر أن الوطنية والإيمان بالله هما المسئولان عن الحروب وجميع الأمراض الاجتماعية الأخرى. قال فى سنة ١٩٦٦:

المسيحية ستذهب، ستنقرض وتتلاشى. ليس هناك حاجة للجدال بخصوص ذلك. فإنى على حق، وسيثبت الزمن أنى على حق. نحن الآن أشهر من يسوع. لست أعرف ما الذى سينتهى أولا، الروك أند رول أم المسيحية.

ولكن ثبت بعد ذلك أن «لينون» هو الذى ذهب، مقتولا بخمس رصاصات فى شوارع نيويورك سنة ١٩٨٠. لقد كانت أجرة خطيته هى الموت. والآن عليه أن يقف أمام الذى قال: «لى النقمة، أنا أجازى، يقول الرب» (رومية ١٢:١٩).

مهما كان ذكاء الإنسان أو إنجازاته، فهو فى الحقيقة غبى إذا فشل فى معرفة الله خالق الكون. هذا هو الأمر بكل بساطة.

السؤال الرابع:

فى محاولتى لفهم الأمور التى يصنعها الله، تعجبت من أمر عالم الأرواح المشار إليه فى الكتاب المقدس. فهل تؤمن حقاً بوجود مثل هذا العالم غير المرئى؟

الإجابة:

نعم أؤمن بوجوده، وإن كنت لا أدعى بأنى أفهمه. إنى أعرف فقط أن الكتاب المقدس يتكلم عن وجود حرب روحية تدور فى مستوى خارج مستوى الإدراك البشرى. فليس فى وسع الإنسان أن يدرك تماماً أبعاد هذا النوع من الحرب فى الزمان الحالى. ومع ذلك فإن وجودها وأهميتها واضح جداً فى الكتاب المقدس.

ويمكننا أن نجد نافذة على هذا العالم الروحى غير المنظور بحسب ما رآه دانيال قبل ولادة المسيح بخمسمائة سنة. لم يكن هذا الفتى الذكى قد تعدى السادسة عشرة من عمره عندما سقطت أورشليم أمام البابليين وأخذوه هو وسائر أبناء وطنه كأسرى إلى بابل. وهناك ارتقى إلى مستوى مرموق سياسياً وسرعان ما أصبح نبياً لشعبه.

وبعد بضعة سنوات رأى دانيال رؤية مرعبة فيها زاره رسول سماوى. وفى الأعداد القليلة الأولى من رواية دانيال لهذه الرؤية نستطيع أن نلمح لمحة مبهرة عن عالم الأرواح الذى لا نستطيع أن نراه وعن الصراع الدائر بين الخير والشر فى هذا العالم.

· رفعت ونظرت فإذا برجل لابس كتاناً، وحقواه متنطقان بذهب أوفاز. وجسمه كالزبرجد، ووجهه كمنظر البرق، وعيناه كمصباحى نار، وذراعاه ورجلاه كعين النحاس المصقول، وصوت كلامه كصوت جمهور.

فرأيت أنا دانيال الرؤيا وحدى؛ والرجال الذين كانوا معى لم يروا الرؤيا، لكن وقع عليهم ارتعاد عظيم فهربوا ليختبئوا. فبقيت أنا وحدى، ورأيت هذه الرؤيا العظيمة؛ ولم تبق فى قوة، ونضارتى تحولت فى إلى فساد ولم أضبط قوة. وسمعت صوت كلامه، ولما سمعت صوت كلامه كنت مسبخاً على وجهى، ووجهى إلى الأرض.

وإذا يد لمستنى وأقامتنى مرتجفاً على ركبتى وعلى كفى يدى. وقال لى؛ يا دانيال أيها الرجل المحبوب افهم الكلام الذى أكلمك به، وقم على مقامك، لأنى الآن أرسلت إليك. ولما تكلم معى بهذا الكلام قمت مرتعداً.

فقال لى لا تخف يا دانيال، لأنه من اليوم الأول الذى فيه جعلت قلبك للفهم ولإذلال نفسك قدام إلهك، سمع كلامك، وأنا أتيت لأجل كلامك. ورئيس مملكة فارس وقف مقابلى واحداً وعشرين يوماً، وهوذا ميخائيل واحد من الرؤساء الأولين جاء لإعانتى، وأنا بقيت هناك عند ملوك فارس" (دانيال ١٠: ٥-١٣).

توجد العديد من العناصر المبهرة والمثيرة فى هذه القصة. أولا، من المدهش أن رجلا مثل دانيال (محبوباً فى نظر الرب) لم يحصل على إجابة فورية لصلاته، بل كان

عليه أن ينتظر ثلاثة أسابيع قبل أن يأتيه الرد من الرب. والشيء الأعجب هو سبب هذا التأخير. فمع أن صلاة دانيال قد استجيبت في الحال، إلا أن الشخص المرسل من الرب لإبلاغه بالرد استغرق ٢١ يوم ليشق طريقه بين القوات الشيطانية التي اعترضته.

وأخيراً أود أن نفهم أكثر عن تلك الحرب التي دارت في السماء مع هذا المرسل. فهو يقول لدانيال في جزء لاحق من الحوار: «الآن أرجع وأحارب رئيس فارس، فإذا خرجت هوذا رئيس اليونان يأتي» (ع ٢٠). إن المعاني المتضمنة في هذا الجزء هي معاني مبهرة. فإنه يضع أمامنا صورة وكأن الأرض كلها مقسمة إلى مناطق تحكمها كائنات قوية هدفها هو تعطيل إرادة الله. وربما هناك رتبة عاليه من الأرواح الشريرة مخصصة لكل كنيسة ولكل مؤسسة مسيحية، كما قال «فرانك بيريتي» في كتابه «الظلمة الحالية».

هل يبدو هذا الكلام خيالياً؟ فلنقرأ إذاً التحذيرات التي كتبها لنا الرسول بولس، إذ يقول: «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات» (أفسس ٦:١٢).

فكيف يمكننا أن ننتصر روحياً على عدو في مثل هذه القوة والخطورة؟ لا نستطيع بقوتنا الذاتية، ولكن شكراً للرب فإنه هو يستطيع. والكتاب المقدس يؤكد لنا أن «الذي فيكم أعظم من الذي في العالم» (١يوحنا ٤:٤). وبالإضافة إلى ذلك، فإنه توجد كلمات مطمئنة في أجزاء أخرى من الكتاب المقدس. دعونا نتأمل في واحدة من القصص الأكثر تشجيعاً.

تكلمنا من قبل عن إيليا الذى أرسله الله ليختبىء عند نهر كريث. والآن دعونا نتأمل فى قصة عن أليشع، النبى الذى جاء بعد إيليا، كما هى مدونة فى ٢ملوك ٦. كان ملك أرام الشرير يبغض أليشع، وقد سمع أنه ساكن فى دوثان. وفى إحدى الليالى، أرسل جيشاً كبيراً مع خيل ومركبات كثيرة للقبض على النبى. فنزل الجيش وعسكر حول المدينة حتى طلوع الفجر. وفى صباح اليوم التالى، استيقظ غلام أليشع مبكراً واكتشف القوات المحتشدة ضدهم. فأسرع إلى أليشع وقال له مرتعباً: «آه ياسيدى، كيف نعمل؟» (ع ١٥)

فأجابه رجل الله العظيم قائلا: «لا تخف، ... لأن الذين معنا أكثر من الذين معهم» (ع ١٦).

ولا بد أن الغلام تحير، فلم يكن هناك أحد غيرهما. فطلب أليشع من الرب أن يفتح عينى الغلام لكى يبصر، وفجأة أبصر الغلام فرأى الجبل مملوء خيلا ومركبات نار حول أليشع. كان هناك جيش كامل من الكائنات السماوية مستعدة لكى تحارب حرب الرب.

ياله من أمر مثير أن نعرف أنه يوجد جنود غير مرئيين حولنا فى وقت مهاجمات العدو. فهل لا زال هذا الكلام ينطبق على وقتنا الحاضر؟ يخبرنا مزمور ٣٤:٧ أن «ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم». ويقول مزمور ٩١:١١ «لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك». إنه أمر مشجع حقاً أن نعرف أننا لسنا وحدنا، حتى فى وسط الحرب الروحية. وأيضاً يجب ألا ننسى أن الملائكة الذين يسهرون على خدمتنا قد اشتركوا فى حرب سماوية قبل فجر الخليقة. ليست لدينا تفاصيل هذه الحرب، ولكننا نعرف أن الله وملائكته قد غلبوا الشيطان وملائكته.

لذلك فمن الرائع أن ندرك أن الملائكة التى «تحل حولنا» هى كائنات مدربة على التصدى لقوات الشر. وإذا احتاجت إلى معونة، فإنها تستطيع أن تطلب من ذلك الشخص المكتوب عنه «إن كان الله معنا، فمن علينا؟» (رومية ٨:٣١).

السؤال الخامس:

ما هى فى رأيك الطريقة التى بها يؤثر عالم الأرواح هذا على أنشطتنا اليومية فى حياتنا المسيحية ؟

الإجابة :

لست أعرف، ولكنها نقطة تستحق الدراسة. دعنى أشاركك فى اختبار شخصى حدث معى، وذلك لمجرد مناقشة الاحتمالات الممكنة. منذ عدة سنوات كنت أقوم بأحد الأبحاث وكان يتطلب منى أن أزور ١٦ مركزاً طبياً كبيراً كل سنة. وفى إحدى هذه الرحلات ذهبت إلى نيويورك حيث أتممت مهامى فى المستشفى، ثم أخذت يوماً أجازة حيث اتفقت مع اثنين من الزملاء على القيام بجولة لمشاهدة معالم المدينة. كان يوماً ممتعاً، وقد تحدثنا معاً فى شتى المواضيع أثناء ركوبنا لمترو الأنفاق.

وفجأة، بينما كنا واقفين فى إحدى المحطات، قال زميلى: «انظر إلى هذا الشاب الواقف هناك على الرصيف. ألم يكن معنا فى القطارين السابقين؟»

وتأكدنا جميعاً أن هذا الرجل كان يحاول الاقتراب منا لمدة نصف ساعة على الأقل. والآن هو واقف ينظر إلينا باهتمام من على مسافة ٣٠ قدم تقريباً. وقبل أن نفهم ما الذى

يريده منا، فوجئنا بأن المترو قد وصل إلى المحطة بدون أن نلحظه. فأسرعنا بالركوب وبمجرد أن وضعنا أقدامنا أغلقت الأبواب وراءنا. وقد حاول الرجل أن يلحق بنا ولكنه لم يتمكن. فقفز إلى جانب القطار وأخذ يهددنا ويتوعدنا، ولكنه اضطر إلى النزول بمجرد أن تزايدت سرعة القطار. ثم اختفى عن الأنظار وهو لا يزال يلوح بيديه ويصيح متفوهاً بكلمات بذيئة.

وحاولنا بعد ذلك أن نفهم ما هو سر هذا التصرف الغريب. ما الذى كان ينوى أن يفعله؟ هل نجونا من أحد أعمال العنف بركوبنا فى القطار؟ من يدرى؟ كان من الواضح أن هذا الرجل يخبىء لنا مفاجأة، سيئة على الأرجح. ربما نجونا من شىء يهدد حياتنا بطريقة بدت وكأنها مجرد صدفة.

قد يكون، بالطبع، أن الرب هو الذى تدخل لإنقاذنا فى هذا اليوم. فإننا لم نكن فى حالة استعداد، وقد كنا معرضين للوقوع فى أى مخطط سرى كان يخطط له ذلك الشخص الذى يرجح أنه إما مدمن أو قاتل أو مريض عقلياً. وبمجرد ذكر الاحتمالات التى كان من الممكن حدوثها، تذكرنا سؤالا أوسع وهو: كم من المرات فى حياتنا نجونا من عواقب خطيرة حتى بدون أن نلاحظها؟ من يدرى كم مرة قام الرب بحمايتنا، أو بتحويل طرقنا، أو بقيادتنا نحو طرق أكثر أماناً؟

أتذكر أنى شاهدت حادث تصادم رهيب على الطريق السريع فى لوس أنجلوس، بينما كنت عائداً إلى المنزل فى إحدى الأمسيات. فلقد تخطت السيارة الأولى الحاجز الذى فى منتصف الطريق، واصطدمت على الجانب الآخر بسيارة

بونتياك قادمة فى الاتجاه العكسى. ومات السائقان فى الحال. وقد فكرت كثيراً فيما بعد فى ظروف هذا الحادث. فوجدت أنه إذا افترضنا أن كليهما كان يقود بسرعة ٦٠ ميل فى الساعة، فإن سرعتهما الإجمالية لحظة اقترابهما من بعض كانت ١٢٠ ميل. وبمعنى آخر فإن السيارتين كانتا تقتربان من بعضهما بسرعة ١٧٦ قدم فى الثانية. فلو كانت السيارة الأولى قد وصلت مبكراً بمقدار ١/١٠ من الثانية لكانت السيارة الثانية قد تخطت نقطة التصادم ونجا صاحبها. أليس ذلك عجيب حقاً أن جزءاً من الثانية يصنع كل هذا الاختلاف فى حياة الناس؟

فإن كانت هذه هى حياتنا، ألا يبدو من الحكمة أن نغمر كل تحركاتنا وكل أيامنا بالصلاة؟ يقول الرسول يعقوب:

"هلم الآن أيها القائلون نذهب اليوم أو غداً إلى هذه المدينة أو تلك وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر ونربح. أنتم الذين لا تعرفون أمر الغد. لأنه ما هى حياتكم؟ إنها بخار يظهر قليلا ثم يضمحل. عوض أن تقولوا إن شاء الرب وعشنا نفعل هذا أو ذاك" (يعقوب ٤: ١٣-١٥).

وخلاصة القول هى أن سلامتنا فى هذه الحياة متوقفة على عوامل خارجة عن نطاق إدراكنا. إننا واقعين فى صراع بين الخير والشر، وهذا الصراع يلعب دوراً هاماً فى حياتنا. لذلك فإن مهمتنا ليست هى أن نفهم أبعاد هذا الصراع، بل أن نظل أمناء ومطيعين لسيدنا الذى يعرف جميع الأسرار.

الفصل
الحادى عشر

ما وراء
حاجز الخيانة

نأتى الآن إلى تعليقاتنا النهائية على هذا الموضوع الهام: عندما يكون الله غير مفهوم، فإن الأمر كله يتمخض عن هذا المفهوم البسيط: وهو أن الله لا يريد منا شيئاً سوى أن نمارس الإيمان. وهو لا يقتحم أبداً هذا الإيمان، كما أننا لا نستطيع أن نرضيه بدون إيمان. ولتعريف كلمة «إيمان» مرة أخرى نقول أن الإيمان هو تصديق ما ليس له أى دليل أو برهان (عبرانيين ١١:١). إنه التمسك والتشبث فى الوقت الذى تشير فيه كل الدلائل إلى ضرورة التراجع. إنه التصميم على الثقة فى الله فى الوقت الذى لا يكون فيه قد أجاب جميع طلباتنا أو حتى ضمن لنا مساراً خالياً من الألم.

وليس هناك صورة أوضح لهذه الأمانة مثل تلك التى نراها فى النصف الثانى من عبرانيين أصحاح ١١. هذه الجزء الذى أشرنا إليه سابقاً يطلق عليه اسم «أبطال الإيمان» وهو له علاقة وثيقة بموضوعنا. فهو يصف حياة رجال ونساء ثابروا فى إيمانهم تحت أقسى الظروف. تعرضوا لجميع أنواع الشدائد والمشقات والمخاطر من أجل الصليب. بعضهم ذاقوا التعذيب والحبس والجلد والرجم والنشر والقتل بالسيف. احتملوا الهزء والإهانة والاضطهاد والعرى. تاهوا فى البرارى والجبال والمغاير وشقوق الأرض. والشىء الأهم بالنسبة لموضوعنا أنهم ماتوا وهو لم ينالوا المواعيد. وبمعنى آخر فإنهم تمسكوا بإيمانهم إلى حد الموت، على الرغم من أن الله لم يفسر لهم الأشياء التى كان يفعلها (عبرانيين ١١:٣٥-٤٠).

وبدون التقليل من قدسية هذا النص الكتابى، أريد أن أضع أمامكم بعض الأمثلة «لأبطال الإيمان المعاصرين». فإن هذه القائمة تشمل أناساً غير عاديين وبلا شك أن لهم مكانة خاصة فى قلب الله الكبير.

على رأس هذه القائمة لا بد أن أضع بعض الأولاد والبنات الذين عرفتهم أثناء عملى لمدة ١٤ سنة فى مستشفى الأطفال فى لوس أنجلوس. بعض هؤلاء الأطفال كانوا يعانون من أمراض لا شفاء منها، وآخرين احتملوا أمراضاً مزمنة شوهت طفولتهم واغتالت براءتها. بعضهم لم يتعدوا سن العاشرة، ومع ذلك كان إيمانهم بيسوع المسيح راسخاً كالجبال، وقد ماتوا وعلى شفاههم شهادة عن صلاح الله وجوده بينما كانت أجسادهم النحيلة تذبل وتنطفىء. ترى كيف كان استقباله لهم ذاك الذى قال «دعوا الأولاد يأتون الى» (مرقس ١٠:١٤).

فى المجموعة الأولى من أفلام Focus on the Family التى قمت بإعدادها، قدمت قصة ولد أمريكى أفريقى فى الخامسة من عمره. كان هذا الولد فى أيامه الأخيرة تحت رعاية ممرضة معروفة لى هى «جريسى شيفلر». وهى لا يمكن أن تنساه أبداً شأنها شأن جميع الذين عرفوه. كان هذا الطفل مصاباً بسرطان الرئة، وهو مرض رهيب فى مراحله الأخيرة، إذ تمتلىء الرئتين بالسوائل، ويصبح المريض غير قادر على التنفس. إنه أمر مرعب حقاً خاصة بالنسبة لطفل صغير.

كان لهذا الولد أم مؤمنة رائعة لازمته طوال محنته. كانت تأخذه على صدرها وتكلمه برقة عن الرب يسوع، كما لو كانت بطريقة تلقائية تعد ابنها لساعاته الأخيرة. تقول «جريسى» أنها دخلت فى أحد الأيام إلى غرفة ذلك الغلام

وسمعته يتكلم عن صوت أجراس تدق. قال: «ها هى الأجراس تدق ياأماه، إنى أسمع صوتها». فظننت «جريس» أن الولد يهذى بسبب المرض. فخرجت ورجعت مرة أخرى وسمعته أيضاً يتكلم عن الأجراس.

فقالت الممرضة للأم: «أعتقد أنك تدركين أن طفلك يسمع أشياء غير حقيقية. إنه يهذى بسبب المرض». فأخذت الأم ابنها فى حضنها وابتسمت قائلة: «كلا، ياآنسة شيفلر. إنه لا يهذى. بل إنى علمته أنه عندما يشعر بالخوف لعدم قدرته على التنفس، عليه أن يصغى باهتمام وسيسمع أجراس السماء تدق من أجله. وهذا ما كان يتحدث عنه طوال اليوم».

وقد مات هذا الولد الشجاع بين ذراعى أمه فى مساء ذلك اليوم، وكان لا يزال يتكلم عن أجراس السماء عندما أتت الملائكة لتحمله. يا له من محارب شهم. لم يكتب أحد عن شجاعته فى الجرائد فى اليوم التالى، ولم تتكلم عنه أية إذاعة فى النشرة الأخبارية، ومع ذلك فإنه هو وأمه ستظل أسماؤهم إلى الأبد مكتوبة فى قائمة «أبطال الإيمان».

وفى نفس القائمة يمكننى أن أرشح أيضاً رجلا آخر لم ألتق به إطلاقاً، ومع ذلك فإنه لمس حياتى بقوة بينما كان هو يفقد حياته. لقد سمعت عنه من خلال برنامج تليفزيونى شاهدته منذ عدة سنوات. كان المنتج قد حصل على تصريح من أحد الأطباء المتخصصين فى علاج السرطان بأن يضع الكاميرات فى عيادته. ثم بموافقة ثلاثة من مرضاه، رجلين وامرأة واحدة، قام بتصوير اللحظة التى فيها علموا أنهم مصابون بالسرطان فى مراحله الأخيرة. وهكذا تم تسجيل تفاصيل الصدمة الأولى، وعدم التصديق، والخوف، والغضب. وبعد ذلك قام فريق البرنامج بمتابعة هؤلاء المرضى الثلاث فى

مراحل العلاج بما فيها من صعود وهبوط، أمل ويأس، ألم ورعب. كنت أجلس مشدوداً ومسمراً فى مكانى وأنا أشاهد فصول الحياة والموت تمر على الشاشة. وفى النهاية مات المرضى الثلاث بدون أى تعليق من مقدم البرنامج.

وقد شد انتباهى اختلاف الأسلوب الذى به تعامل كل من هؤلاء المرضى مع ظروفهم المرعبة. اثنان منهما، كانا على ما يبدو بلا إيمان، تفاعلوا بغضب ومرارة. فإنهما كانا يصارعان مع المرض، كما لو كانا أيضاً فى حرب مع كل شخص آخر. وقد اهتزت علاقاتهما الشخصية وأيضاً علاقتيهما الزوجية خاصة مع اقتراب النهاية. وأرجو ألا تفهم أنى أنتقدهم، فعلى الأرجح أن معظمنا سيتصرف بنفس الطريقة فى مواجهة الموت المحقق. ولكن هذا هو سبب تأثرى الشديد بموقف الشخص الثالث.

لقد كان رجلا زنجياً راعياً لكنيسة معمدانية صغيرة. كان فى أواخر الستينات من عمره وكان يعمل فى الخدمة الرعوية معظم سنين عمره. كان حبه للرب عميقاً بدرجة جعلت هذا الحب ينعكس على كل شىء يقوله. عندما علم هو وزوجته أنه لن يعيش سوى بضعة شهور أخرى، لم تظهر عليهم أى علامات للاضطراب، بل بكل هدوء سألا الطبيب ما الذى يعنيه بالضبط. وعندما شرح لهما نظام العلاج، وما هى الأشياء المتوقعة، شكراه بلطف من أجل اهتمامه وغادرا العيادة. وقد تتبعت الكاميرا الزوجين حتى سيارتهما القديمة واختلست بعض اللقطات بينما هما يحنيان رأسيهما ويسلمان أنفسهما من جديد بين يدى الرب.

وفى الشهور التالية، لم يفقد ذلك الرجل رباطة جأشه، كما أنه لم يكثر الكلام عن مرضه، وذلك ليس عن عدم تصديق

أو إنكار، بل لأنه كان متفهماً تماماً لحالته ولنهايتها المتوقعة. كان يعرف أن الرب هو المتحكم فى جميع الأمور. وقد رفض أن يتزعزع فى إيمانه.

وقد كانت الكاميرا موجودة فى كنيسته فى يوم الأحد الأخير من حياته. وقد ألقى العظة فى ذلك الصباح وتكلم بوضوح عن اقتراب موته. وفى حدود ما أتذكر فهذا تقريباً ما قاله:

«بعضكم قد سألنى هل أنا غاضب من جهة الله بسبب هذا المرض الذي استفحل فى جسدي. وأقول لكم بكل صدق أنه لا يوجد فى قلبى سوى الحب من جهة إلهى. فإن الله لم يسبب لى ذلك، ولكننا نعيش فى عالم حيث المرض والموت هما اللعنة التى جلبها الإنسان على نفسه. إنى ذاهب إلى مكان أفضل لن يكون فيه دموع ولا ألم ولا معاناة فيما بعد. ولذلك لا أريدكم أن تتأسفوا من أجلى.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الرب قد تألم وقد مات من أجل خطايانا. فلماذا لا أشاركه فى ألمه؟». ثم بدأ يرنم منفرداً بصوت منكسر هذه الكلمات:

هل ينبغى أن يحمل يسوع الصليب وحده،
وكل العالم يخرج حراً؟
كلا، فإن كل شخص له صليب
ويوجد أيضاً صليب لى.

كم هى سعادة القديسين هناك،
الذين اجتازوا الحزن مرة هنا؛
ولكنهم الآن يتذوقون الحب الصافى،
والفرح الذى لا يشوبه دموع.

سوف أحمل صليبي المقدس،
إلى أن يطلق الموت سراحي
ثم أذهب إلى بيتي لألبس التاج
فإنه يوجد هناك تاج لي.

لقد بكيت بينما كان هذا الرجل الوديع يرنم عن حبه ليسوع. كان صوته ضعيفاً جداً، وكان وجهه مفسداً من آثار المرض اللعين، ولكن تعليقاته كانت من أقوى التعليقات التي سمعتها طوال حياتي. وقد كانت كلماته هذه هي آخر كلماته على المنبر، في حدود علمي. وبعد بضعة أيام مضى إلى الأبدية حيث التقى بسيده الذي خدمه طوال حياته. إن هذا القس المجهول الاسم وزوجته لهما مكان بارز بين «الأبطال الروحيين».

وسأحكي لكم عن شخصية أخرى مرشحة لقائمة «أبطال الإيمان». إنها سيدة تدعى «ماريان بندكت مانويل» لا زالت على قيد الحياة. وقد بدأت معرفتي بها من خلال خطاب كتبته لي سنة ١٩٧٩، ولن أنسى أبداً ما كتبته لي. وقد احتفظت بخطابها طوال هذه السنوات. وفي الواقع فإني اتصلت بها هذا الأسبوع، فوجدتها لا تزال متمسكة بشدة بإيمانها بيسوع المسيح. ولكن دعوني أخبركم بما كتبته لي في ذلك الخطاب القديم الذي أرسلته منذ عدة سنوات.

عزيزي الدكتور دوبسون،

أريد أن أحكي لك عن قصتي البائسة. لقد كنت الطفلة الأولى لمبشر مسيحي شاب وزوجته. وقد كانا في الثلاثين من عمرهما عند ولادتي. (والآن استعد لما سأقوله). عندما كان عمري ثمانية شهور انفلت فجأة الزنبرك الثقيل للأرجوحة التي كنت أتأرجح فيها،

وحيث أنه كان مشدوداً، فلقد ارتد بقوة واصطدم بأول نقطة صادفته - وقد كانت الجزء الطرى فى هامة رأسى.

لم يكن هناك أى شىء يمكن عمله. فإن والدى ووالدتى وخالتى وزوجها (وقد كنا نقضى الأجازة عندهما) ظنوا أنى قد مت. وأخيراً أحضروا طبيباً فأخذنى إلى مستشفى على بعد ثمانية أميال، ولكنهم لم يستطيعوا أن يعملوا أى شىء سوى أنهم قد طهروا الجرح وضمدوه بعصابة. ولم يكن هناك أى أمل فى أننى سأعيش.

وقد كان أبى وأمى أناساً أتقياء، وكانا يؤمنان بالصلاة، مثلهما مثل جميع أقاربنا وأصدقائنا. وبفضل إيمانهم لا زلت أعيش حتى الآن. نعم، بنعمة الله عشت، وعلى الرغم من أن الأطباء أكدوا لأسرتى أنى سأكون عاجزة جسمانياً وعقلياً، إلا أن هذا لم يحدث، ولكن كانت هناك فقط بعض المشاكل.

أولا، لم أكن طفلة جميلة. بل كنت دميمة وأيضاً عرجاء. نعم، كنت أمشى، إذ أن الرب قد شفانى من الشلل الكامل. وكنت أيضاً سريعة البديهة. ولكن، كما سبق أن قرأت فى كتاباتك، فإن الناس يهمهم جداً الجمال فى الأطفال. وقد كان شقيقى الأصغر جميلا. فقد كان يشبه والدى بعينيه البنيتين وشعره الكستنائى. ولم أستطع أن أتعلم الجرى أو القفز بالحبل أو لعب الكرة أو أن ألتقط أى شىء يقذفه الآخرون نحوى. فقد كان جانبى الأيسر مشلولا. وأعتقد أن هذا هو سبب انطوائى. وقد نميت قوة التخيل لدى مما أتاح لى أن أعيش حياة رائعة بفضل الكتب العديدة التى قرأتها وأحلام اليقظة التى نسجتها.

وعندما أخبرت أمي - التي ماتت بالسرطان وأنا في سن العاشرة - أنى أريد أن أصبح ممرضة أو مرسلة، قالت لى "هذا شيء رائع"، ولكنها كانت متأكده أنى لن أكون أياً منهما نظراً لإعاقتي. ثم انتقلنا إلى مدينة أخرى صغيرة حيث تزوج والدى مرة أخرى بعد وفاة والدتي بسنتين. وقد تعقدت الأمور أكثر عند التحاقي بالمدرسة. فلم أكن فتاة محبوبة. بالإضافة إلى أن الطلبة كانوا يستهزئون بي ويطلقون على اسم "ابنة المبشر". وقد زاد هذا من شخصيتي الانطوائية. ولكنى قبل هذا الوقت بمدة طويلة كنت قد سلمت حياتي للرب.

وفي أحد الأيام، بينما كنت أمشي بصعوبة متجهة إلى المدرسة، جاء من خلفي فتى مراهق، وسأل بصوت مرتفع "ما هذا؟ لماذا تعرجين هكذا؟ ليس هناك من يحب أن يسير مع فتاة عرجاء مثلك".

لقد عانيت كثيراً إلى أن تعلمت أخيراً أن المسيح يستطيع أن يعطيني القوة للحفاظ على هدوئي ورباطة جأشي في مثل هذه الظروف.

وقبل أن أكمل خطاب السيدة مانويل، دعوني ألخص أولا الظروف التي مرت بها. لقد كانت تعانى من إعاقة مرتبطة بالأعصاب منذ طفولتها المبكرة، فلم تتمكن من اللعب مثل باقي الأطفال. وقد اضطرت نظراً لرفض أقرانها لها إلى اللجوء إلى التخيلات لتلبية احتياجاتها الاجتماعية. إنها تذكر ببساطة شديدة حادثة موت أمها الرقيقة وهي في سن العاشرة، ومجيء زوجة الأب وهي في بداية سن المراهقة. أضف إلى ذلك تهكم الجنس الآخر عليها والمزيد من الرفض لكونها «ابنة مبشر». هذه هي المكونات التي تضمن حدوث

خلل نفسى لدى أى طفل. ولكن هذه السيدة لم تكن إنسانة عادية.

والآن دعونا نرجع مرة أخرى إلى الخطاب لنرى ما الذى فعله الرب فى حياتها:

وفيما بعد، تزوجت فتى كنت أذهب معه إلى المدرسة، وقد باركنى الرب بستة أبناء وابنتين! وجميعهم متزوجون بأزواج مؤمنين رائعين. والآن على مدار ٤٠ سنة، كان زوجى مصدر حماية لى. وقد أعطانى الثقة بالنفس وشجعنى لكى أستخدم قوة التخيل التى نميتها فى طفولتى (لكتابة الشعر والقصص القصيرة).

إنها لمكافأة كبيرة لى أن أشعر أن أولادنا يعيشون حياة مشرفة كأعضاء نافعين لمجتمعهم وكأشخاص مهتمين بأزواجهم وبأسرهم. وقد قامت ابنتى الكبرى منذ سنتين أو ثلاثة بزيارة لإحدى زميلات الدراسة فأصيبت بصدمة كبيرة إذ علمت أن كثيرين من زملاء الدراسة قد فشلوا فى حياتهم. فمنهم من أدمن الخمر أو المخدرات، ومنهم من فشل فى زواجه، ومنهم من دخل السجن.

وتقول ابنتى لى: "عندما أرى أسرتنا الكبيرة، والتى لم تتمتع بأى من متع الحياة تقريباً، ومع ذلك فكل فرد فيها مواطن صالح يحترم القانون، أشعر بالامتنان الشديد لله. لا بد أنك صليت لأجلنا كثيراً".

بكيت .. لأن هذه هى أفضل مكافأة فى نظرى يمكن أن يحظى بها الأبوين. شكراً لك يادكتور دوبسون لأنك أعطيتنى هذا القدر من وقتك، وليباركك الرب.

ماريان بندكت مانويل

وشكراً لك يا ماريان، من أجل إفصاحك لنا عن أمانتك هذه. كان فى إمكانك بسهولة أن تلقى اللوم على الله لأنه جعل حياتك بهذه الصعوبة. فحتى وأنت طفلة لابد أنك فهمت أن الله كان بإمكانه أن يمنع ذلك الزنبرك من الانفلات أو أن يوجهه فى اتجاه آخر بعيداً عن رأسك. وكان بإمكانه ألا يأخذ والدتك فى الوقت الذى كنت فى مسيس الحاجة إليها. كان بإمكانه أن يجعلك جميلة أو موهوبة أو محبوبة. فمن الطبيعى جداً إزاء جميع أوجه الحرمان هذه أن تتولد لديك المرارة تجاه الله. ولكن لا يوجد فى خطابك أى بادرة غضب أو تمرد. بل إننا لا نجد أى إشارة للإشفاق على الذات وأنت تصفين حالتك. وإنما تقولين «قبل هذا الوقت بمدة طويلة كنت قد سلمت حياتى للرب».

إنى معجب بك جداً ياماريان بندكت مانويل، وكذلك الرب أيضاً بلا شك. فمع أنه كان يبدو غير مبال فى السنوات الأولى، إلا أنه كان يعمل فى هدوء من وراء الستار لكى يرسل لك زوجاً مؤمناً يحبك ويرعاك. ثم باركك أيضاً بثمانية أبناء جميعهم مؤمنون ويخدمون الرب. ياله من تتويج لحياة الإيمان! فلو كنت قد استسلمت للمرارة والأنين بسبب إعاقتك فلابد أن أبناءك كانوا قد لاحظوا هذا، وربما كانت نفس هذه المشاعر قد انتقلت إلى بعضهم. لكن شكراً لك لأنك تمسكت بقوة بإيمانك حتى عندما كان الله يبدو غير مفهوم فى أمور حياتك! إنك حقاً من الأعضاء البارزين فى قائمة «أبطال الإيمان».

ويوجد أبطال آخرون كثيرون فى قائمتى لا تسعهم عدة مجلدات فى حجم هذا الكتاب، ولكنى سأقاوم الرغبة فى ذكر أسمائهم. فإن غرضنا، كما تعرفون، هو مساعدة أولئك

المتزعزعين فى عقيدتهم. فلو أن كل إنسان كان يتمتع بإيمان أبينا ابراهيم لما كانت هناك حاجة لمثل هذا الكتاب. ولكننا معظمنا لسنا نجوم من الناحية الروحية. ولذلك فإنى أهدى هذه الأفكار بكل محبة إلى الأشخاص الذين جرحت أرواحهم بسبب تجارب ليس فى استطاعتهم أن يفهموها. فإن جزئيات حياتهم تبدو ببساطة غير متناسقة، مما يجعلهم يصابون بالحيرة والغضب والإحباط.

ربما أنت من الذين يصارعون لفهم أحد الجوانب المحيرة فى حياتهم، ولماذا سمح الله به. ربما تدور فى ذهنك على الدوام آلاف الأسئلة التى لا تجد لها إجابة، وجميعها تبدأ بكلمة "*لماذا*....؟" أنت تريد بكل أمانة أن تثق فى الآب وأن تؤمن بصلاحه وجوده. ولكنك فى أعماقك أسير للشعور بالخيانة والترك. من الواضح أن الله هو الذى سمح لهذه الصعوبات أن تحدث لك. فلماذا لم يمنعها؟ ولماذا لم يحاول أن يقدم تفسيراً أو تبريراً لها؟ إن عدم المقدرة على إجابة هذه الأسئلة الأساسية قد أصبح يمثل بالنسبة لك حاجزاً روحياً ضخماً لا يمكنك تخطيه أو تسلقه.

بالنسبة لبعضكم، كان السبب المباشر لأحزانكم هو موت ابن أو ابنة غاليين. وقد كان ألم الفراق عنيفاً بدرجة حتى أنه كان يبدو من المستحيل احتماله. فلقد كان ذلك الابن أو الابنة مصدر كل فرح لقلوبكم. كان يجرى ويقفز ويمرح ويضحك. وفجأة كان هذا التقرير الطبى البغيض، أو هذا الحادث فوق الدراجة، أو هذه الرحلة على شاطىء البحر. والآن قد رحل صغيركم العزيز، وبقى هدف الله من هذا الحادث يشمله الغموض.

وبالنسبة لآخرين، ليس هناك أصعب من الإحساس بالرفض من جانب الزوج أو الزوجة. فاليوم الذى اكتشفت فيه

الخيانة، أو الذى وصلت فيه أوراق الطلاق إلى المنزل، أو ليلة العنف هذه التى لا تنسى، هذه كلها لحظات من الألم الذى لا يمحى. فعلى ما يبدو أنه كان من الأسهل احتمال وفاة الشريك عن احتمال رؤيته بين يدى آخر. كيف أمكن لهذا الشخص الذى أعطيته كل شىء أن يتصرف بمثل هذه الوحشية؟ ودموع كثيرة قد ذرفت أثناء التوسل إلى الله لكى يتدخل فى الأمر. وعندما استمر الفشل فى الزواج، وجرفتك المرارة واليأس مثل الموج العنيف، قلت فى نفسك أنك لن تثق مرة أخرى فى أى شخص، ولا حتى فى الله القدير.

وإنى أفكر أيضاً فى الأرامل الذين يبذلون قصارى جهدهم لمواصلة الحياة بمفردهم. فإذا كنت واحدة منهن فلابد أنك مندهشة لأن القليلين جداً من أصدقائك يتفهمون موقفك. إنهم يريدونك أن تتغلبين على هذا الحزن وتعودين للمشاركة فى الحياة. ولكنك ببساطة لا تستطيعين. فإن الزواج كان لسنين طويلة يمثل محور حياتك. لقد اتحد حقاً كائنان بشريان وصارا «جسداً واحداً» كما قصد الرب أن يكون. كان الحب هكذا صافياً حتى أنه كان يبدو أنه يمكن أن يستمر إلى الأبد. فى أيام الشباب كان يبدو أن هذا ممكناً، ولكن فجأة انتهى كل شىء. والآن لأول مرة بعد سنين عديدة تشعرين بالوحدة على حقيقتها. فهل هذه هى نهاية كل شىء؟

لم تسترد أمى قوتها أبداً بعد وفاة أبى. فلقد تركها فجأة وهو جالس إلى المائدة فى إحدى الأمسيات، وقد كان فى سن السادسة والستين. ومع أنها عاشت ١١ سنة بعد هذا اليوم، إلا أن قلبها كان منكسراً ولم يجبر أبداً. فلقد أسست حياتها على الرجل الذى أوقفها على قدميها سنة ١٩٣٤، وهى ببساطة لم تتخيل أنها ستواجه المستقبل بدونه. لم توجه أمى

اللوم إلى الله من أجل هذا، ولكنها على كل حال كانت متألمة. وهذا ما كتبته فى مذكرتها بعد مرور سنة على وفاة والدى:

"قال الناس لى أن السنة الأولى ستكون هى الأصعب. والآن مرت سنة وثلاثة أيام بعد يوم وفاتك، ومع ذلك فإنى اليوم أحترق شوقاً إليك. آه يارب! إن الأمر فوق طاقة احتمالى. إن البكاء يجعل ضربات قلبى غير منتظمة. إنى لا أستطيع أن أرى الورق. إن رأسى ينبض. المنزل غارق فى الصمت والوحدة. إننى أراك وكأنك لا تزال موجوداً ولم تفارقنى أبداً. اليوم شكرت الرب لأنه أرسل ملاكاً ليرعانى. ولكن كم أنا مشتاقة لك!

الجو فى الخارج بارد جداً. فى الليلة الماضية، هبت عاصفة ثلجية وغطت الأرض بالجليد الذى تجمد على هيئة قشرة صلبة. الشوارع زلقة وخطرة. وهى تشعرنى بالخوف والكآبة والوحدة. إنى أخشى هذا الشتاء. إنه سيستمر لثلاثة شهور أخرى.

لقد انتقلت اليوم إلى حجرة النوم الصغيرة. كنت أود أن تكون هنا لتشاركنى فى هذه الحجرة. إن بها الكثير من الذكريات الغالية. عندما مرضت منذ أربع سنوات، كنت تقضى ساعات الليل مصلياً من أجلى فى هذه الحجرة. كنا كلينا متأكدين أن الروح القدس يصلى من خلالك فى ذلك الوقت. وقد قادنا الرب بعد ذلك إلى طبيب ساعدنى كثيراً فى استرداد صحتى. حقاً، كم كنت أحبك. ولا زلت اليوم أحب ذكراك".

لقد كانت أمى امرأة عظيمة حقاً. كم كانت محبتها لأبى عميقة! الآن هى معه فى السماء. ولكن توجد هنا أرامل أخريات أحببن بنفس المقدار والآن عليهن أن يواجهن المستقبل وحدهن. إنى أهدى لهن حبى وصلواتى.

ويوجد أيضاً العديد من المصادر الأخرى للألم. فإنى أدرك ما الذى يشعر به أولئك الذين نشأوا فى كنف والدين مدمنين للخمور، أو الذين تعرضوا فى طفولتهم للإيذاء الجسمانى أو الجنسى، أو الذين يعانون من الشلل أو العمى أو الأمراض المزمنة. كما إنى أعرف أيضاً معاناة كل أم تحمل حمل أولادها بمفردها وتخشى أن تخور تحت ثقل المسئولية الموضوعة على كاهلها. وتوجد ملايين الحالات الأخرى والتى تؤول كلها إلى نفس النوع من الإحباط واليأس، وجميعها تشترك فى مغزى روحى واحد.

إلى جميع هؤلاء الذين طال صراعهم من أجل فهم قصد الله، عندى لكم اليوم مصدر رجاء! كلا، لا يوجد لدى حل جذرى لجميع مضايقات الحياة، فإن هذا لن يحدث إلا بعد أن نرى الرب وجهاً لوجه. ولكن قلب الله يشفق بصفة خاصة على المنكسرين والمنسحقى القلوب. إنه يعرف اسمك وقد رأى كل دمعة قد ذرفتها أمامه. لقد كان موجوداً فى كل منحنى مرت به مسيرة حياتك. وما ظننته أنه عدم مبالاة أو قسوة من الله لم يكن سوى سوء فهم على أحسن تقدير وكذبة شيطانية على أسوأ تقدير.

كيف أعلم أن هذا صحيح؟ لأن الكتاب المقدس يقوله لنا بوضوح. فللمبتدئين، يقول داود: «قريب هو الرب من المنكسرى القلوب ويخلص المنسحقى الروح» (مزمور ١٨:٣٤). أليس هذا قولا جميلا؟ كم هو أمر مشجع أن الله

الملك، خالق السماء والأرض، يرف حول المجروحين والمنسحقين. فلو أمكنك فقط أن تعرف كم أنت محبوب، لما عاودك الشعور بالوحدة مرة أخرى. وقد رجع داود إلى هذه الفكرة فى مزمور ١٠٣: ١١ حيث يقول: «لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه».

وإحدى الآيات المفضلة أيضاً لى هى تلك المذكورة فى رومية ٨: ٢٦، حيث يخبرنا أن الروح القدس يصلى فعلا من أجلى ومن أجلك بحب لا تستطيع اللغة البشرية أن تصفه. تقول هذه الآية: «كذلك الروح أيضاً يعين ضعفاتنا. لأننا لسنا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغى، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها». فأية راحة يمكننا أن نستمد من هذا الفهم! إنه يحمل اليوم اسمك أمام الآب، مدافعاً عن ظروفك ومعبراً عن احتياجاتك. فكم هو من الخطأ أن تلقى باللوم من جهة آلامك على أعظم صديق يمكن للبشرية أن تعرفه! لذلك فبغض النظر عن أى استنتاجات أخرى أرجوك أن تعرف شيئاً واحداً: إنه ليس هو مصدر آلامك!

وربما لو كنت جالساً أمامى فى هذه اللحظة، لكنت سألتنى هذا السؤال: «إذاً كيف يمكنك أن تفسر المآسى والكوارث التى حلت بحياتى؟ لماذا سمح الله بها؟» وستكون إجابتى، كما قرأتها فى الصفحات السابقة، بسيطة للغاية، ولكنى متأكد أنها صحيحة! ان الله لا يريد أن يجيب على هذه الأسئلة فى هذه الحياة! هذا هو ملخص ما أردت أن أقوله. إنه لن يعرض علينا خططه للتصديق عليها. فقبل كل شىء يجب ألا ننسى أنه الله. إنه يريدنا أن نؤمن به ونثق فيه على الرغم من الأشياء التى نعجز عن فهمها. هذه هى الفكرة بكل صراحة!

لم يجب الله على تساؤلات أيوب، وهو أيضاً لن يجيب على جميع تساؤلاتك. وكل إنسان عاش على وجه هذه الأرض قد تعرض للمتناقضات والألغاز المحيرة، وبالطبع فإنك لن تكون استثناء. فإذا كانت هذه الإجابة غير مقبولة لديك فعلى الأرجح أنك ستقضى حياتك بإيمان ضعيف غير فعال أو بدون إيمان بالمرة. فعليك إذاً أن تبحث على أى أساس آخر لكى تبنى قلعة حياتك عليه. ولكن هذا فى حد ذاته هو أعظم تحدى، لأنه لا يوجد فى الواقع أى أساس آخر. إنه مكتوب: «إن لم يبن الرب البيت فباطلا يتعب البناؤون» (مزمور ١٢٧:١).

لذلك فإن نصيحتى العظمى هى أن يدرك كل واحد منا، قبل حدوث الأزمة إن أمكن، أن ثقتنا فى الله ليست مبنية على فهمنا لأموره. مع أنه بالطبع ليس هناك أى خطأ فى محاولتنا أن نفهم، ولكن لا ينبغى أن نعتمد على قدرتنا على الفهم! فإننا عاجلا أو آجلا سنتعرض لأسئلة نعجز عن إجابتها. وعند هذه النقطة فإنه من الأكثر حكمة لنا أن نتذكر كلمات الرب: «لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم» (إشعياء ٥٥:٩). ويجب أن يكون ردنا: «لتكن لا إرادتى بل إرادتك» (لوقا ٢٢:٤٢).

لو فكرنا فى الأمر لوجدنا أن هذه هى أفضل طريقة للتعامل مع تجارب الحياة وآلامها. فإنها تعفينا من مسئولية إيجاد تفسير لما يحدث لنا، لأننا ببساطة لا نمتلك المعلومات الكافية لفك رموز الشفرة. لذلك يكفينا فقط أن نعرف أن معاملات الله لها معنى حتى عندما تبدو بلا معنى. فهل يبدو هذا التفسير بسيطاً أكثر من اللازم، أشبه بالتفسيرات التى نقدمها للأطفال؟ نعم، وهذا أفضل. لقد قال يسوع: «الحق أقول لكم من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد (أى طفل) فلن يدخله» (لوقا ١٨:١٧).

ولكن ماذا نقول للشخص الذى لا يمكنه استيعاب هذا الحق؟ ما هى النصيحة المتاحة للذى يشعر بالمرارة والغضب العميق من نحو الله بسبب موقف معين؟ كيف يمكننا أن نجعله يتخطى حاجز الخيانة ويبدأ علاقة جديدة مع الله؟

هناك علاج واحد لسرطان الإحساس بالمرارة، وهو أن يسامح الإنسان الله، بمعونة الله، مرة وإلى الأبد. ومع أن هذه الفكرة قد تبدو غريبة، إلا أنى أقترح أن بعض الناس يحتاجون أن يسامحوا الله من أجل هذه المآسى التى يعتبرونه مسئول عنها. لقد حملت الضغينة من نحوه طوال هذه السنين. الآن جاء وقت العفو. قد يبدو هذا الكلام تجديفاً، لأن الله هو الذى يغفر لنا ولا يمكننا أن نتخيل أنه يمكن أن يحدث العكس. إنه لم يرتكب خطأ ولا يحتاج الى عفونا. ولكن يجب الإقرار أولا بمصدر المرارة قبل التطهر منها. لذلك فليس هناك طريقة للتخلص منها أفضل من أن نعفى الله منها ثم بعد ذلك نطلب منه العفو من أجل عدم إيماننا. هذه العملية تسمى المصالحة، وهى الطريقة الوحيدة للحصول على الحرية الكاملة.

إن واحدة مثل «كورى تن بوم» تستطيع بلا شك أن تفهم معنى هذه النصيحة. لقد أرسلها النازيون هى وأسرتها إلى أحد معسكرات التعذيب فى «رافنسبروك»، فى النمسا، أثناء السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. وقد احتملوا جميعاً أشد أنواع القسوة والحرمان على يد الحرس النازيين، وفى النهاية مات جميع أفراد أسرتها وبقيت هى وحدها على قيد الحياة. وبعد الحرب أصبحت «كورى» كاتبة مشهورة وكتبت كثيراً عن محبة الله وعن تدخلاته فى حياتها. ولكنها فى قرارة نفسها كانت لاتزال تحمل مرارة شديدة تجاه النازيين من أجل ما صنعوه معها ومع أسرتها.

وبعد الحرب بسنتين كانت «كورى» تتحدث فى أحد الاجتماعات فى ميونخ، فى ألمانيا، عن موضوع الغفران الإلهى. وبعد الخدمة أبصرت رجلا يتقدم نحوها. وهذا ما كتبته فيما بعد عن هذا اللقاء:

"عندما رأيته يشق طريقه إلى الأمام، عكس اتجاه الآخرين، أبصرت فى لحظة السترة العسكرية، والقبعة البنية، وفى اللحظة التالية رأيت الرداء الأزرق وحافة الخوذة وعليها رسم الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين، عادت ذاكرتى إلى الوراء بسرعة؛ الغرفة الواسعة بأضوائها الساطعة، كومة الملابس والأحذية فى منتصف الغرفة، خزى المشى عريانين أمام هذا الرجل، رأيت أمامى هيئة أختى الهزيلة، وضلوعها تبرز من تحت جلدها الرقيق، نعم، كم كانت نحيفة!

المكان هو "رافنسبروك"، والرجل الذى كان يتقدم نحوى هو أحد الحراس، أكثرهم قسوة، ها هو الآن أمامى مباشرة، يمد يده نحوى قائلا: "يا لها من رسالة عظيمة حقاً! كم هو مسر أن نعرف أن جميع خطايانا قد أصبحت فى أعماق البحار!".

وبعد أن كنت أتكلم بمنتهى السهولة عن الغفران، وجدت نفسى أتحسس بيدى الأشياء التى فى جيبى بدلا من أن أضعها فى تلك اليد الممدودة لى، إنه بالطبع لن يتذكرنى، فكيف يمكنه أن يتذكر واحدة من بين آلاف المأسورات؟

ولكنى تذكرته والسوط الجلد يتدلى من حزامه، لقد كنت وجهاً لوجه مع أحد معذبى وقد بدأ دمى يتجمد فى عروقى،

قال: "أنت ذكرت اسم رافنسبروك أثناء العظة. لقد كنت أعمل حارساً هناك". قلت فى نفسى: "من الواضح أنه لا يتذكرنى".

أضاف: "ولكنى بعد ذلك مباشرة أصبحت مسيحياً. وأنا أعلم الآن أن الله قد غفر لى جميع أعمال القسوة التى مارستها هناك، ولكنى أريد أن أسمعها منك أنت أيضاً باآنستى". ومرة أخرى مد يده نحوى قائلا: "هل تغفرين لى؟"

وتسمرت فى مكانى، أنا الذى أحتاج إلى الغفران كل يوم، ولكنى لا أستطيع أن أغفر. لقد ماتت شقيقتى فى هذا المكان، فهل يمكنه أن يمحو الموت المرعب البطىء الذى ماتته لمجرد أنه طلب الغفران؟

مرت على بضعة ثوانى وهو لا يزال واقفاً أمامى يمد يده نحوى، ولكنها بدت لى وكأنها ساعات بينما كنت أصارع مع أصعب عمل على الإطلاق قد طلب منى عمله. لم يكن هناك مفر، كنت أعرف ذلك. فإن رسالة غفران الله لها شرط واحد: أن نغفر نحن أيضاً للذين يسيئون إلينا. قال يسوع: "إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم".

كنت أعرف ذلك ليس فقط كوصية من وصايا الله، ولكن كاختبار يومى. فمنذ نهاية الحرب، كنت أدير منزلا فى هولندا لضحايا العنف النازى. وقد لاحظت أن الذين استطاعوا أن يسامحوا أعداءهم السابقين استطاعوا أن يعودوا للتعامل مع العالم الخارجى وأن يرمموا بناء حياتهم مهما كانت حجم الخسائر. أما الذين تمسكوا بالمرارة فقد ظلوا غير أسوياء. كان الأمر بمثل هذه البساطة والبشاعة.

ومع ذلك فقد كنت لا أزال واقفة فى مكانى والبرودة تغلف قلبى. ولكن الغفران ليس عاطفة، إنى أعرف ذلك. إنه عمل إرادي، والإرادة تستطيع أن تعمل بغض النظر عن درجة حرارة القلب. صليت فى صمت: "يايسوع، أعنى! فى إمكانى أن أمد يدى، وعليك أنت بالباقى".

وهكذا مددت يدى بحركة أوتوماتيكية آلية ووضعتها فى اليد الممدودة لى. وبمجرد أن تلامست اليدان حدث أمر عجيب. شعرت بتيار يبدأ فى كتفى، ويسرى بسرعة فى ذراعى، ويندفق إلى يدينا المتشابكتين. وفى الحال غمرت كيانى كله تلك الحرارة الشافية، وملأت عينى بالدموع.

فصرخت قائلة: "إنى أسامحك، أيها الأخ، من كل قلبى". وللحظة طويلة ظلت اليدان متشابكتين، يد الحارس ويد السجينة. ولم يسبق أن عرفت محبة الله مثلما عرفتها فى هذه اللحظة. ولكن حتى فى ذلك، فلقد أيقنت أن هذا ليس حبى. لقد حاولت، ولكن لم تكن لدى القوة. إنما هذه هى قوة الروح القدس المسجلة فى رومية ٥:٥ "... لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا".

وكلمات «كورى» لها مغزى كبير بالنسبة لنا فى هذه النقطة. فالمرارة بجميع أنواعها، حتى تلك التى تبدو «فى محلها»، تدمر الإنسان روحياً وعاطفياً. إنها داء يصيب النفس بالعطب. لقد سامحت «كورى» الحارس النازى الذى اشترك فى قتل أفراد أسرتها، ألا نستطيع أن نسامح ملك الكون الذى أرسل ابنه الوحيد لكى يموت كفارة عن خطايانا.

وقبل أن أختم حديثى، يوجد شخص معين أريد أن أوجه إليه كلاماً مباشراً. فإنى مهتم بصفة خاصة بهذا الشخص من بين القراء الذى يعانى اليوم من مرض مينوس من شفائه. لقد عرفت الكثير عن العلاج الكيماوى، والعلاج بالإشعاع، وعمليات أخذ عينة من الكبد، والفحص المقطعى. فإن أى واحد من هذه المصطلحات كفيل بأن يفقد سلام أكثر الناس هدوءاً. ربما ليس فى داخلك غضب من نحو الله، بالطريقة التى وصفتها، ولكنك على جميع الأحوال متألم ومتحير ومضطرب. أنت تتساءل، بكل وقار واحترام، لماذا سمح الله بأن يحدث لك هذا. أعتقد أن لدى كلمة من الرب لك.

من المهم جداً أن نفهم أن تقدير الله للأمور يختلف عن تقديرنا نحن، وأن تقديراته هو صحيحة. ففى نظر الإنسان، يعتبر الموت هو الهزيمة النهائية، أو المأساة العظمى. فهو مثل السيف الذى يظل مرفوعاً فوق رؤوسنا منذ يوم ولادتنا.

حدث أول لقاء لى مع الموت وأنا فى سن الثالثة. كان لى صديق فى الثانية من عمره، وكان والداه عضوين فى الكنيسة التى يرعاها أبى. كان اسم الولد «دانى»، وأتذكر أنه جاء لزيارتى فى يوم من الأيام، فارتدينا ملابس رعاة البقر وجعلنا نجوب المنطقة مصوبين بنادقنا على الأشياء، وأتذكر أنى بذلت جهدى لتعليم هذا الصديق الصغير قواعد اللعبة.

وبعد بضعة أيام أصيب دانى بمرض ميكروبى ومات بعد زمن قصير. ولم أستطع أن أفهم ما الذى حدث له، مع أنى أدركت أن والدى كانا فى حزن وكرب. وقد أخذانى معهما إلى مكان الجنازة ولكنهما تركانى فى السيارة لفترة بدت لى كأنها ساعة أو أكثر. وأخيراً جاء والدى واصطحبنى معه إلى الداخل. وقد رفعنى بين يديه حتى أستطيع أن أرى جسد

«دانى». وقد ظننت فى ذلك الوقت أنه نائم، وأننى أستطيع أن أوقظه لو سمحوا لى فقط بأن أفتح عينيه. وبعد أن رجعنا إلى السيارة، حاول والدى أن يشرح لى ما الذى حدث لصديقى «دانى».

كانت هذه هى بداية إدراكى بأن الأمور الرديئة يمكن أن تصيب الأشخاص الصالحين. وبعد فترة قصيرة حدث نفس الشىء لجدتى، فازدادت الصورة وضوحاً. وبهذه الطريقة فإن مفهوم الموت يتكون تدريجياً لدى الأطفال الصغار. تموت كلابهم وقططهم، ثم يفقدون جداً أو جدة أو أحد أفراد الأسرة. وبعض الأطفال، خاصة فى المدن غير الآمنة، يتعرفون على الموت من خلال أعمال العنف التى يشاهدونها فى الشوارع.

وبغض النظر عن المصدر الذى نستقى منه مفهومنا عن الموت، فإنه ابتداء من تلك اللحظة يصبح للموت أعمق الأثر على سلوكنا وعلى نظرتنا للأمور. وهو بالنسبة لمعظمنا يمثل المأساة العظمى، نهاية كل شىء مألوف ومتوقع. وهو يمثل نقطة البداية للمجهول، كما نرى فى أفلام الرعب وفى «مشاهد من وراء القبر». وهو غالباً مرتبط بالمرض والحوادث والعنف، وهى جميعها أشياء تحمل نغمة تهديد بالنسبة لنا.

ونظراً لهذه الخلفية المتأصلة عن الموت، فإن مجرد اكتشاف مرض خطير (أو فقد أحد أعزائنا) يحمل معه العديد من الآثار الرهيبة علينا سواء من الناحية النفسية أو الروحية. إنى متأكد أن هذا سيظل يحدث دائماً، وأن هذه الكلمات لن تغير من الأمر شيئاً. ولكننا نحتاج فقط أن نعرف أن الله ينظر إلى الموت نظرة مختلفة تماماً عن نظرتنا.

فهو ليس كارثة بالنسبة له. يقول إشعياء ١:٥٧ «باد الصديق وليس أحد يضع ذلك فى قلبه، ورجال الإحسان يضمون وليس من يفطن بأنه من وجه الشر يضم الصديق». وهذا يعنى أن الأبرار يكونون فى حالة أفضل كثيراً فى العالم الآخر عن حالتهم هنا. ومزمور ١٥:١١٦ يقدم نفس الفكرة بصورة أوضح، إذ يقول: «عزيز فى عينى الرب موت أتقيائه».

فما الذى تعنيه هذه الآيات بالنسبة للأحياء؟ إنها تشير إلى مكان عبر النهر أروع كثيراً مما نتخيل. وهذا فى الواقع هو ما نقرأه فى ١كورنثوس ٩:٢: «ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه». فكم هو أمر مطمئن أن نعرف أن أحباءنا قد ذهبوا إلى هذا العالم الأفضل وأننا نحن كمؤمنين سنلحق بهم قريباً!

فهل يبدو هذا الكلام مثل «أفيون الشعوب» كما وصفه «كارل ماركس» على سبيل التهكم؟ بالطبع هو يبدو هكذا، ولكن هذا ما يقوله الكتاب المقدس وهذا ما أؤمن به. ولأنى أؤمن بذلك، فلقد اتخذ الموت أبعاداً جديدة تماماً بالنسبة لى.

أجريت مؤخراً مكالمة تليفونية مع القس بلى جراهام، والذى أكن له كل احترام وإعجاب بسبب ثباته فى السير مع الله، وقد علمت أنه يعانى من مرض «باركينسون». وحيث أنى أعرف الكثير عن الآثار المدمرة لهذا المرض على الذهن والجسد، وذلك لأنه أصاب أمى فى سنواتها الأخيرة، فلقد سألته: «هل إيمانك كافى أن يسندك ويثبتك فى هذه المرحلة من الحياة؟ هل لا زلت تؤمن بما كنت تؤمن به وأنت بعد فى سن الشباب؟»

فأجاب هذا الرجل التقى بلا أدنى تردد وقال: «آه ياجيم، إنى بالكاد أستطيع أن أصبر إلى أنْ أرى إلهى!». هذا هو رد الفعل الكتابى إزاء الموت. إنه ليس مأساة، بل انتصار! علينا أن نراه كمجرد انتقال إلى الأفراح والشركة التى لا ينطق بها فى الحياة الأبدية. سمعت رجلا كان يدرك هذا المفهوم بطريقة رائعة، كانت آخر كلماته قبل أن يموت هى هذه: «لابد أنه سيكون أمراً ممتعاً».

وقد صاغ بولس هذا المفهوم بالقول: «أين شوكتك ياموت؟ أين غلبتك ياهاوية؟» (١كورنثوس ١٥:٥٥). ثم قرب نهاية حياته قال: «لأن لى الحياة هى المسيح، والموت هو ربح» (فيلبى ١:٢١).

فإذا كنت قد فقدت مؤخراً ابناً أو ابنة أو إذا كنت تواجه الموت بنفسك، فإنى لا أريد أن أهون من حجم الألم الذى تشعر به. ولكنى أريدك فقط أن تعرف أن مفهومنا المغلوط عن الزمن هو الذى يزيد من الألم. فإن رحلتنا فى هذه الحياة تعطى انطباعاً بالبقاء. والبلايين غيرنا الذى سبقونا ظنوا نفس الشىء. والآن لقد مضوا جميعهم بلا استثناء. فنحن فى الواقع، نعبر هنا فقط. فلو أننا فهمنا الطابع المؤقت لهذه الحياة، لما أعطينا اهتماماً كبيراً لكثير من الأمور التى تحبطنا، خاصة الأمور التى يبدو الله فيها غير مفهوم.

إن هذا المبدأ الكتابى فى غاية الأهمية. قال داود: «الإنسان مثل العشب أيامه، كزهر الحقل كذلك يزهر، لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون ولا يعرفه موضعه بعد» (مزمور ١٠٣:١٥-١٦). وقال أيضاً: «عرفنى يا رب نهايتى ، ومقدار أيامى كم هى، فأعلم كيف أنا زائل» (مزمور ٣٩:٤). وقد

عبر موسى عن نفس الفكرة فى مزمور ٩٠:١٢: «إحصاء أيامنا هكذا علمنا فنؤتى قلب حكمة». فهذه «الحكمة» التى تكلم عنها موسى تضع كل شيء فى مكانه الصحيح. فإنه من الصعب، على سبيل المثال، أن يفتخر الإنسان وينبهر بالماديات إذا تذكر أن كل شيء فى هذه الحياة مؤقت.

جاءنى هذا التفكير فى أحد الأيام عندما كنت فى المطار ورأيت طائرتين عملاقتين ٧٤٧ واقفتين بجوار الممر. كان طلاؤهما قد تآكل والصدأ قد بدأ يغطيهما من أعلى. كانتا مفرغتين من الداخل، وكانت نوافذهما مسدودة. ثم رأيت رقعة صغيرة من الطلاء الأزرق على ذيل إحداهما فأدركت أنهما كانتا سابقاً مركبتين تعملان بكل كبرياء فى رحلات طيران «بان أمريكان».

كان منظر الطائرتين يدعو إلى الرثاء وهما واقفتين بمفردهما متجردتين من جمالهما. ولسبب ما تذكرت قصيدة شعرية بعنوان «الولد الصغير» بقلم «يوجين فيلد» (١٨٥٠-١٨٩٥):

الكلب الدمية الصغير قد غطاه التراب،
ولكنه يقف فى ثبات وصمود،
والعسكرى الدمية الصغير قد احمر من الصدأ،
وهو ممسك بيده بندقيته العتيقة.

فى يوم الأيام كان الكلب الدمية الصغير جديداً
وكان العسكرى يسير مزهواً،
وهذا هو اليوم الذى كان فيه ابننا الصغير
يقبلهما بفمه ثم يضعهما فى مكانهما.

وقد أمكننى أنا أيضاً أن أنظم قصيدتى الخاصة وأنا أنظر إلى هاتين الطائرتين:

فى يوم من الأيام كانت هاتان الطائرتان جديدتين
وكانتا تطيران إلى ارتفاعات شاهقة فى السماء
ولكنهما الآن قديمتان وصدئتان ومنسيتان
ويبدو أنهما تتساءلان "لماذا؟"

لقد تخيلت اليوم الذى فيه خرجت هاتان المركبتان من مصانع بوينج بطلاء جديد لامع وعلامة «بان أمريكان» تبدو واضحة على ذيليهما. لقد تم تدشينهما بالشمبانيا والتصفيق والضحك. ثم بدأت رحلاتهما عبر الآفاق. كان الأولاد والبنات يمدون أعناقهم نحو السماء لمتابعة هذه الطيور الغريبة. كم من إثارة ومتعة قد سببتا لركابهما.

والآن الشركة التى كانت تمتلكهما قد أفلست، وستقف الطائرتان هنا إلى الأبد. كيف حدث هذا فى أقل من ٢٠ سنة؟ من كان يظن أن هذه المركبة الهوائية التى تقدر بالملايين ستكون هذه هى نهايتها السريعة؟

وأخذت أفكر فى عدم دوام أى شىء من الأشياء التى تبدو الآن ثابتة. كلا، ليس هناك شيئاً يستمر طويلاً. فإننا مجرد عابرون فى طريقنا إلى حياة أخرى لها معنى أكبر كثيراً.

فإلى الذين يتألمون ويعانون الآن، أعتقد أنه من المعزى أن نرفع عيوننا متطلعين إلى الوقت الذى فيه ستكون التجارب الحالية مجرد ذكرى باهتة. سيأتى يوم احتفال لم يحدث مثله فى تاريخ البشرية كلها. وضيف الشرف فى هذا

الحفل سيكون هو ذلك الشخص المتسربل بثوب إلى الرجلين، والذى عيناه كلهيب نار، ورجلاه شبه النحاس النقى. وإذ ننحنى بخشوع ساجدين أمامه، سيدوى فى السماء صوت عظيم قائلا:

"هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم. وهم يكونون له شعباً، والله نفسه يكون إلهاً لهم. وسيمسح كل دمعة من عيونهم. والموت لا يكون فيما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت" (رؤيا ٢١: ٣-٤).

ومرة أخرى سوف يتردد الصوت العظيم عبر دهاليز الزمن قائلا:

"لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شىء من الحر. لأن الخروف الذى فى وسط العرش يرعاهم، ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية. ويمسح الله كل دمعة من عيونهم" (رؤيا ٧: ١٦-١٧).

هذا هو رجاء الأزمنة الذى يشتعل به قلبى. إنه الإجابة النهائية لجميع الذين يتألمون ويعانون الآن. وهو العزاء الوحيد لجميع الذين ودعوا أحد أحبائهم. فمع أن الألم يجل عن الوصف الآن، إلا أننا يجب أن نتذكر أن الفراق مؤقت فقط. فسوف نلتقى مرة أخرى وإلى الأبد فى فجر تلك القيامة السعيدة. وكما تخبرنا وعود الكتاب فإن الدموع ستفارق عيوننا إلى الأبد!

فى ذلك اليوم سيكون أبى وأمى بين الجموع، واقفين فى ترقب بجوار جدى الأكبر الذى صلّى من أجلى قبل أن أولد.

سوف يجتهدان معاً لكى يلمحا لحظة وصولنا تماماً مثلما كانا يفعلان فى كل سنة فى الكريسماس وهما يستقبلاننا فى مطار مدينة كنساس. جميع أحباءكم الذين رقدوا فى المسيح سيكونون أيضاً فى هذا الحشد، مرنمين وهاتفين بالتسبيح للذى فداهم. كم سيكون محفلا عظيماً!

ستكون هذه هى مكافأة الأمناء، الذين تخطوا عبر حاجز الخيانة وصبروا إلى النهاية. هذا هو إكليل البر الذى أعده الرب للذين قد جاهدوا الجهاد الحسن، وأكملوا السعى، وحفظوا الإيمان (٢تيموثاوس ٤:٧). لذلك دعونا فيما تبقى لنا من أيام فى هذه الحياة، ألا ندع الأمور الوقتية ترخى من عزيمتنا. ولنتوقع أن نصادف أوقات ضيق، فلا ننزعج عندما تأتى، بل لنعلم عندئذ أن الله سيستخدم هذه التجارب لتنفيذ مقاصده، ولخيرنا. إن الرب قريب جداً، ولقد وعد أنه لن يدعنا نجرب فوق ما نستطيع.

وسوف أترككم الآن مع هذه الكلمات الرائعة من مزمور ٣٤: ١٧-١٩:

"أولئك صرخوا، والرب سمع، ومن كل شدائدهم أنقذهم. قريب هو الرب من المنكسرى القلوب ويخلص المنسحقى الروح. كثيرة هى بلايا الصديق ومن جميعها ينجيه الرب".

عندما يقول الله لا

ما الذي يفعله الإنسان عندما
يعجز عن فهم الله؟
إلى من يعترف الإنسان بأفكاره
المزعجة وأحيانا المهرطقة؟
ممن يطلب المشورة؟
هل يوجد اسم آخر أو إله آخر؟

لوجوس